

III

للضياء

قفطاريم بن قبطيم

يرفع الستار

مرمدة بنى سلامة

أنوبيس يرقص

الفلاح الفصيح

وقفه الحائر

ثلاثة آلاف عام

الصفحات الأخيرة

الحضارة المصرية

obeikandi.com

قفطاريم بن قبطيم

عرفنا حال مصر بعد اندحار جيشها المملوكى فى موقعة الريدانية وسبيل علان ،
والعوادى التى جرت عليها ، ورأينا إلى أى درك انحطت البلاد ، وسامها العثمانيون
والمماليك والدلاة والأرنؤد العذاب والحسف والهوان .

ونحب أن نسأل : ماذا كان يذكر أجدادنا ، الذين عاشوا هذه الضعة ،
بل ماذا كان يحفظ أجدادنا كلهم من تاريخنا منذ دخول المسيحية مصر ، وبماذا
كانت توحى إليهم أطلال ذلك التاريخ القديم ؟

هل طالعوا أو سمعوا بما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، ويوسيفوس
اليهودى ، عن مصر القديمة ، ديانتها وآثارها ؟ لم يطالعوا شيئاً من ذلك فى الأغلب .
أى أن أوربا كانت تعرف عن مصر القديمة أكثر كثيراً مما كان يعرف أجدادنا
الأبعدون والأقربون . بل ما تزال أوربا تسبقنا فى كل شىء ، حتى فى دراسة
تاريخنا القديم والحديث .

أى أن المصريين ، منذ العهد المسيحى ، نسوا تاريخهم . أمجد صفحات من
أيامهم ! ولا نعلم متى فقدوا الصلة بحضارتهم الفرعونية ، ومتى عجزوا عن قراءة اللغة
القديمة . وإن كان الغالب أن مقاومتهم للهليينية ، علومها ومعارفها ولغتها ،
واستعمالهم مع ذلك الحروف اليونانية فى كتابة لغتهم القديمة ، ثم اعتناقهم المسيحية ،
وتغاليهم فى تطبيق مرسوم تيودوسيوس بإيقاف العبادات الوثنية ، كل هذا انتهى
بهم إلى الانفصال عن التاريخ القديم . ومن السهل أن نتصور سر قراءة الهير وغيليفية
والهيراطيقية والديموطيقية ، وقد دفن مع آخر الكهان والكتاب والعرافين ، الذين
احتفظوا بديانتهم العتيقة ، وماتوا عليها ، وعفت بانقراضهم .

ومعنى هذا ، من باب أولى ، أن ينسى المصريون المسلمون تاريخهم القديم .

وبذلك يجمع سكان وادى النيل على الاكتفاء من ذلك التاريخ بما ورد فى كتبهم المقدسة . قال المستشرق فون هامر ، فى كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« أما من جهة عجائب مصر ، فإن أكثر الناس تمدناً ، من الأتراك والفرس والعرب ، لم ينظروا إليها بالعين التى يراها الأوربيون وقدماء اليونان والرومان . فبينما يعتبر الأوربي مصر المنبع الأول للعلوم والفنون ، ومهداً للهندسة وتخطيط البلدان والعمارة والزراعة والكتابة والملاحة ، وبينما هو يحترمها ويقدها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظم السياسية والكهنوتية والرموز الدينية ، وبينما هو يعجب بأثار عمارتها وبهياكلها وبمدافنها وأهرامها ومسلاتها وتمائيلها ، وبينما حب العلوم يحمله على مطالعة نصوصها السرية المنقوشة على ذلك الكتاب الحجرى . الذى فتحت صفحاته منذ ألوف من السنين ، وأقيمت عند أعلى شلالات النيل ، منحدره إلى الوادى الخصيب ، نجد أن الشرق لا يرى فى تلك الهياكل والقصور الملكية القديمة ، ولا فى تلك التماثيل الفخمة ولا فى أبى الهول ، سوى مخائى سحرية لكونوز مدفونة . تقوم التماثيل والصور على خفارتها . ولا يجد فى تلك الكتابة الرمزية إلا طلاس مخفى على الناس طرق استخراج الذهب ، واستكشاف المطالب الخبأة فيها . ولقد شاركت أوروبا أهل الشرق فى الاعتقاد بتلك الأوهام زمناً طويلاً ، وسألت تلك الأحجار عن سرّ حجر الفلاسفة ، وأنكرت المعانى المستترة وراء سر الكيمياء التى نقلتها العصور الوسطى من مصر .

« على أن تعاليم الزراعة التى تحيل ماء النيل ذهباً قد حلت تلك القضية حلاً طبيعياً ؛ فإذا لم ير الشرقيون فى الفراعنة والبطالسة إلا أبطال رموز وأسرار ، ولم يمكنهم أن يفقهوا عقائد مصر القديمة ، وإذا استغلقت عليهم الكتابات المطوية فى ملفات البردى ، فإن شرائع الأنبياء قد نزلت فجلت لأعينهم أرض مصر مجللة بأكاليل من النور ، غاب إشعاعه عن أهل أوروبا فلم تشاهده عيونهم إلا قليلاً .

« فصر مقدسة عند أهل الشرق ، لا يذكرى يعقوب وأولاده فحسب ، ولكن بما ورد عن صلاحها فى كتاب الله ، وأحاديث الرسول . فالمسلم لا يعرف سيزوستريس ولا أوزيماندياس ، ولا فراعنة عنده إلا فرعون الذى ملأ يوسف أهرامه ، وفرعون الذى ابتلغته مياه البحر الأحمر . ومع ذلك فقد سمع ببناء الأهرام . وهو فى الحقيقة

يسميه بأسماء تختلف تمام الاختلاف عن الأسماء التي يعرفهم اليونان بها ، وهو يحل منهم ذكرى هرمس بصفته مبدعاً للكتابة والهندسة والعمارة ، ومنظماً لطقوس الكهنة وشرائع الأسرار ، وترجماناً بين الأرض والسماء » .

ولو قد توفر المصريون الأقباط والمسلمون على مطالعة ما جاء عن أجدادهم في كتب هيرودوتس وديودورس الصقلي وجرجس سنسيلوس واسترابون وبلوتارك وبوليبيوس ويوسيفوس ، لعرفوا بعض هذا التاريخ ، وإن اختلط بالخرافات والأساطير ؛ ولفهموا على الأقل ما فهمه اليونان والرومان ، ومن جاء بعدهم ، من آثار مصر . ولكن سوء الطالع قضى بأن لا يتعدى الأقباط إلى أبعد من تاريخ المسيحية بمصر ، وأن لا يعنى العرب في عهد الحضارة الإسلامية الكبرى بغير ما جاء في كتب اليونان خاصاً بالفلسفة والطب والعلوم . وأن يبقى التاريخ والأدب بأنواعه شيئاً مجهولاً عندهم إلا في أقله . وبذلك قصرت معارف المصريين جميعاً عن أن تبلغ من تاريخهم مبلغ ما عرفه الإغريق والرومان .

ولقد حاولت أن أعرف من كتب المسيحيين ما تذكر عن تاريخ مصر القديم فلم أجد إلا التزر اليسير ، فهذا العلامة غريغوريوس أبو الفرج هرون المعروف بابن العبري لا يتحدث عن تاريخ مصر البتة ، مع أنه يعنى بتاريخ العالم منذ الخليقة ، ويكتب تاريخ الدول اليونانية والفارسية والمغولية والإسلامية ، ويترجم لعلماء المسلمين والنصارى ، ويختص بعنايته تراجم الأطباء . وكل ما تعلمته من ابن العبري هو أن هرمس طرسميجسطس — أى المثلث الحكمة — هو إدريس العرب ، وربما كان أيضاً أخنوخ بن متوشالch ، وأن معلم هرمس كان أغاثاديمون المصرى ، وأن أسقليبادس الملك واحد ممن أخذ الحكمة عن هرمس . كما عرفت أن مايندروس استنبط نوعاً من الشعر يسمى « قوموديا » (كوميديا) ونوعاً آخر يسمى « طراغوديا » ، وأن الملكة البطليموسية المشهورة ينطق باسمها « فلاوفطرا » ، ومعناه « الباكية على الصخرة » .

ولم ألك أكثر توفيقاً في قراءة كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » تأليف البطريك أفتشيوس المكنى بسعيد بن بطريق (باتريك) ، وقد كتبه لأخيه عيسى يرد على مذهب الطبيعة الواحدة ، بعد أن يسرد التواريخ الكلية من عهد آدم

حتى سنى الهجرة الإسلامية .

وكل هذا غير مفهوم ولا معقول ، فإن تاريخ مصر القديمة لا يمكن أن يكون فص ملح ذاب بين أيدي المسلمين والأقباط . والحقيقة أنه موجود معروف متداول عند غالبية من أرخوا لمصر من الكتاب العرب . وما عليك إلا أن تتابع ما يقوله أولئك المؤرخون بعد الخليفة بقليل ، قبل الطوفان وعقب الطوفان ، لتكتشف لمصر تاريخاً هو العجب العجائب ، أقدم لك خلاصته . لتكون على علم تام بالصورة التى كانت فى أذهان آبائنا منذ العهد المسيحى حتى الأمس القريب عن أجدادنا العظماء .

فصر الفرعونية عند مؤرخى العرب كانت بلاد السحر والعرافة والكهانة . وقد سمع أولئك المؤرخون أن اليونان يعترفون بما للمصريين عليهم من فضل ، فيقولون بأننا عرفنا هذا عن طريق حكماء مصر ، وتعلمنا ذلك على أيديهم . وأن كهنة المصريين أسسوا علومهم على النجوم ، وأن النجوم علمتهم الأسرار ، وكشفت لهم عن الحجب . وأن الكهنة أقاموا الشرائع العادلة ، وصنعوا الطلاسم المشهورة ، ورسوموا الصور التى تبرجم ، ونحتوا التماثيل التى تتحرك ، وتخرج الأصوات ، وأنشأوا البرابي والأهرام ، ونقشوا على جدرانها أسرار الطب والعلوم .

وكانت مصر مقسمة فى أيامهم إلى خمسة وثمانين كورة ، خمسة وأربعين بالوجه البحرى ، وأربعين بالصعيد ، ويرأس كل كورة كبير الكهنة .

وكان اسم مصر « إمسوس » [إجبِتوس] . ويتولى عرشها ملك كاهن اسمه عنقام من نسل عرباق بن آدم . وعاش عنقام هذا قبل الطوفان وتنبأ به . وتنسب إليه كتب الأقباط . التى تحكى سير ملوكهم . وفى أوراق الأقباط هذه . حديث قونية ، الكاهنة التى تجلس على عرش من نار ، إذا جاءها طالب الحق يسعى . وكان صادقاً . اخترق إليها النار . فكانت عليه برداً وسلاماً .

وأول من حكم مصر . قبل الطوفان . مصرام بن مراكيل بن داويل بن عرباق ابن آدم . خرج مع بضعة سبعين من نسل عرباق يبحثون عن مكان يقيمون فيه بعيداً عن الناس . فبلغوا نهر النيل وساروا بمحاذاته . حتى وصلوا إلى بلاد الحرث والزرع . فاستقروا بها . وهم الذين شيدوا القصور . وأقاموا الآثار العجيبة .

وأطلق مصرايم اسمه على حاضرة البلاد ، وبني غيرها مدنا كثيرة ، أسكن فيها الناس . وأخذ هؤلاء يحفرون الترع ليجلبوا ماء النيل إلى محلاتهم . أما قبل ذلك فكان النهر يجري على غير نظام ، في بطائح وسيالات وأخاديد .

وفي السنة العشرين بعد المائة من حكم مصرايم ، أمر فأقيمت الأبراج وكتبت على أسوارها أسرار الحكمة ، وقسم الملك بين بنيهِ ، فأعطى الغرب لنقراوس ، والشرق لسوريد ، وولى ابنه الأصغر المسمى باسمه ، مصرايم ، على مدينة اسمها يربيان .

وحكم مصرايم الكبير مائة وثمانين عاما ، ولما مات حنط جثمانه بدهان المسك ، ووضع في تابوت من ذهب ، ومعه كنوزه وتماثيل من ذهب . وكتب تاريخ موته على القبر ، ثم صنعت الطلاسم لإبعاد الزواحف والأوباء ، وكل من حاول نبش قبره ، من إنسان أو حيوان .

ومن ملوك مصر خصليم ، وكان أول من بنى مقياسا للنيل ، وجمع لبنائه العلماء والمهندسين ، فأقاموا بيتا من زجاج على الشاطئ ، وفي وسطه حوض ماء من صفر ، وعلى حافة الحوض وضعوا عقابين من نحاس ذكرا وأنثى . ففي بدء الفيضان كانوا يجتمعون أمام تلك الدار ، ويدخل الكهنة بحضور الملك ويتلون التعاويذ ، حتى يصفر أحد الطائرَين . فإن صفر الذكر جاء النيل غالبا ذلك العام ، وإن صفرت الأنثى فقلل يا رحمن يا رحيم !

ومن ملوك مصر سوريد بن سهلوق ، وهو الذى بنى الأهرام التى تنسب إلى شداد بن عاد . والأقباط ينكرون أن أهل عاد دخلوا بلادهم ، بل وينكرون دخول العمالقة ! وبنها سوريد توقيا من الطوفان الذى تنبأ به الحكيم فليمون – ولعله نقل ذلك عن الملك عتقام من نسل عرباق ابن آدم ؟ – وكذلك أنشأ البرابى والآثار الأخرى ليحفظ فيها جثمانه وجثمان أهله ، وجميع ما تحتوى خزائنه . وأمر فتنقشت على الحيطان والعمدان أسرار العلوم وأسماء النجوم والنباتات وخواصها ، وطريقة صنع الطلاسم . وبني الأهرامات من الصوان الذى جىء به من أسوان ، وكانت أبوابها في سراديب تحت الأرض ، وأقام عليها الطلاسم ، وأودع بها تاريخ الملوك وحكمهم ، وما هو مكتوب لمصر في لوح القدر حتى آخر الزمان .

ويقول الأقباط الذين قرعوا ما كتبه على الأهرام إنه يتحدى الأجيال بقوله :
« أنا الملك سوريد ، قد بنيت هذه الأهرام في ستين سنة ، فن أتى بعدى ، ويزعم
أنه مثلى ، فليهدمها في ستائة عام ، علماً بأن الهدم أهون من البناء » وقيل بأن
سوريد هو الذى بنى البراني في قفط وإخميم .

وعندما جاء المأمون إلى مصر ورأى الأهرامات ، أراد أن يهدمها ليرى ما بداخلها
فعجز . ثم حاول فتحها ، وأجرى بها الفتحة الموجودة إلى الآن ، واكتشف أن عرض
الحائط عشرون ذراعاً ، ودخل رجاله إلى الهرم فانحدروا في سرداب ، وعاد بعضهم
ولم يعد الآخرون ، وقال من نجا منهم بأنهم رأوا بالداخل وطاويط في حجم التور
والعقبان .

وأغرق الطوفان مصر في زمن الملك فرعان بن ميسور . وبلغ ارتفاعه ربع الهرم ،
وما زال أثر الماء يرى عليه إلى اليوم .

ومع أن الفرس والهنود ينكرون بأن الطوفان شمل الأرض كلها . إلا أن المؤرخين
أجمعوا على أنه أغرق الدنيا بما فيها .

وأول من حكم مصر بعد الطوفان كان مصرايم بن بيسر بن حام بن نوح .
وتزوج بنت الحكيم فليمون ، فأنجب منها قبطيم . وأكل قبطيم دينه في شرخ شبابه -
وما يكاد يبلغ التسعين عاماً ! - فرزق بقفطاريم وأشمون وأتريب وصا . وبني
مصرايم مدينة مافة ، وهى منف . وكشف فليمون للملك عن كنوز مصر المخبوة
قبل الطوفان . وعلمه قراءة الكتابات التى بالبراني . وأنشأ فليمون على البحر المالح
مدينة رقودة [راکو تيس] . التى قامت الإسكندرية إلى جانبها فيما بعد .

وقسم مصرايم الملك بين بنيه : من أسوان إلى قفط لابنه قبطيم . ومن قفط إلى
منف لابنه أشمون . وولى أتريب على الحوف ، وأقام صا ملكاً على الغرب حتى
إفريقية .

وحكم قفطاريم بعد قبطيم . وبني أهرام دهشور . وأسس مدينة دنلرة .
وكانت مدة حكمه أربعمائة عام . وهو الذى أقام حيال قفط منارة يرى من أعلاها
البحر الشرق كله . وفي عهده اكتشف إبليس اللعين أغلب الأوثان التى أغرقها
الطوفان . وأعادها إلى أمكنتها فى الهياكل . وبني قفطاريم لنفسه قبراً فى الجبل

الغربي ، على مقربة من مدينة إرم ذات العماد ، حفره في بطن الجبل قاعات كبيرة امتلأت بالكنوز ، وتحيط بيهو وسطها ، كسي سقفه بالجواهر . وأجلس الملك محطاً وسط البهو على عرش يتلأأ ، وحوله آلاف من أواني الكافور . ووضع أمام باب القبر صنمان عظيمان من النحاس ، يحمل كل منهما سيفاً ، وأمامهما مصطبة يطؤها الداخل إلى القبر . فتتحرك ذراعا التمثالين ، وتقطع الداخلين بالسيوف .

وبنى مدينة بمصر على اسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنماً من صفر ، فكان إذا بلغ تلك الأبواب غريب ، ألقى عليه النوم ، فلا يفيق إلا أن يأتيه واحد من أهل المدينة ينفخ في دبره . وإن لم يفعلوا ذلك ، ظل الغريب نائماً حتى يموت .

ويولى البودشير بعد ققطاريم ، وكان عالماً فاضلاً في الطلسمات والكهانة والسحر . وله أعمال عجيبة . منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر . وأقامها في الفضاء ، فكان لا يمر بها وحش ولا طير إلا وتسمر في مكانه ، لا يستطيع حراكاً حتى يؤخذ باليد . فشبت الناس في أيامه من لحوم الوحش والطيور .

وفي زمانه قام هرميس على خدمته . فأرسله للكشف عن منابع النيل . وصنع الطلاسم هناك .

وفي أواخر حكمه ، اختفى البودشير عن الناس . وأقام في السحاب ؛ ثم ظهر لقومه عند طلوع الشمس وهي في برج الحمل . ونادى على الجند ، وأمرهم بتولية ابنه عديم ، وكان عديم جباراً عنيداً ، لم يحكم إلا مائة وأربعين عاماً ؛ وهلك في العام الثلاثين بعد التسعمائة من عمره . وخلفه شداد وهو غير شداد بن عاد . وشداد هذا هو باني معبد أرمنت . كما أنشأ معبداً مماثلاً بمدينة أنصنا . وهو أول من خرج إلى الصيد . فاستألف الكلاب السلوقية من الذئاب ، ومات في سن الزهور . وعمره أربعون وأربعمئة عام . وكانت مدة حكمه قصيرة ، لم تزد على التسعين عاماً . وخلفه منفاوس الذي قسم مغل مصر إلى أربعة أنصبة : ربع للملك ، وربع للجيش . وربع لاستصلاح الأرض وإقامة الجسور والقناطر . وحفر الترع . وربع للطرازين . وكان إيراد مصر في زمانه ثلاثة ومائة مليون دينار . وكانت البلاد

مقسمة إلى ثلاثة ومائة كورة . ولكن كور مصر الآن خمسة وثمانون فقط .

ورثه ابنه متاوس ، وهو أول من عبد العجل في مصر .

ومن ملوك مصر أشمون بن قبطيم ، وكان من أعظم ملوك مصر ، على قول القبط ، وحكم ثمانمائة عام ، وكان ملكه قد وقع في أيدي أبناء عاد في السنة الستائة ، ولكنهم غادروا البلاد ، بعد أن أقاموا فيها تسعين عاماً . وفي عهد أشمون أنشئت مدينة البهنسا .

وتولى بعده ابنه مناقيوس ، وكان أول من صنع الميزان ، ثم مرقورة وهو في كتب القبط أول من استألف الأوبد ، وروض السباع ، وركبها ذلولاً . وتولى ابنه بلاطس وكان طفلاً ، فأدارت المملكة أمه مرهبة ، وكانت امرأة حازمة عاقلة . وانتقل الملك إلى عم بلاطس ، وهو أتريب .

ومن ملوك مصر طوطيس . ويقول القبط إنه أول الفراعنة بمصر ، وهو الذي حاول اغتصاب سارة زوجة إبراهيم . وكان إبراهيم حين وفد على مصر ، ادعى أنها أخته . وكلما هم بها الفرعون وقفت ذراعه وتبيست ، فيطلب إلى سارة أن تدعو ربها فيبراً ، ويعود إلى مراودتها عن نفسها ، فتجف ذراعه ، وهكذا دواليك حتى يتوب ، فيقدم سارة إلى ابنته حورية ، فتتعلق حورية بها ، وتهدي إليها جارية قبطية اسمها هاجر ، هي أم إسماعيل .

وبعد طوطيس حكمت حورية ، وهي التي وجه إليها ملك سورية العمالقي جيشاً بقيادة جيرون . ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن الذي غزا مصر حينذاك هو الوليد بن دومع . وأن الوليد هو الذي أعاد بناء الإسكندرية بعد أن دمرها أهل عاد . وتجيء هنا حكاية الراعي والخنثى البحرية التي أوردت نصها في كتابي : « حديث السندباد القديم » .

وبالوليد بن دومع تبدأ أسرة العمالقة بمصر . ويخلفه في الحكم الريلق بن الوليد ، أسلادس . وتسميه القبط نهراوس . وكان طويل القامة جميل الخلقة . عالماً بالظلمسات . بدأ حكمه بالعدل والقسطاس ، ثم خضع لروح الشر ، وانغمس في الفجور ، وترك الحكم لواحد من رجاله اسمه قطفير ، وهو الذي يعرف بالعزير . وكان حاكماً عادلاً نزيهاً . قال الواقدي إن الريان بن الوليد هو الذي بنى

قصر الشمع [حصن بابلون] ولم يزل القصر عامراً ، حتى خربه بختنصر ، عندما دخل مصر . وأقام القصر خراباً نحو خمسمائة سنة ، لم يبق منه إلا الرسوم . فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس ، وجعله بيتاً لعبادة النيران . قال وهب بن منبه إن الريان كان مؤمناً على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ، وكان يكتم إيمانه خوفاً من فساد ملكه . وفي أيام الريان ، بنى يوسف مدينة الفيوم ، وقيل لأنها بنيت بالوحي إلى يوسف على لسان جبريل عليه السلام . وعمرها يوسف في مدة يسيرة ، فلما نظر إليها الملك الريان ، صار يتعجب من سرعة بنائها ، وقال هذا كان يعمل في « ألف يوم » فسميت الفيوم .

واستمر الريان حتى هلك ، فاستقر يوسف مكانه . وبعد ذلك تولى على مصر ملك يقال له داروم ، وهو الفرعون الثالث . أما الفرعون الرابع عند القبط فهو دريموس ، وكانت له أعمال وصنائع عجيبة ؛ منها أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار - كالفرن الكهربائي في أيامنا - وعمل سكيناً منصوباً تأتى إليه البهائم فتذبح فيه نفسها من غير يد - الذبيح الأتوماتيكي ! - وكل هذا من باب علم التارنجيات . أما الفرعون الخامس فهو الذي يقال له ميلاطس بن دريموس ، وقد غرق في النيل ، وطفئت جثته أمام شظنوف .

والفرعون السادس هو فرعون موسى ، واسمه عند القبط ظلما بن قومس . قال وهب بن منبه : كان اسمه الوليد بن مصعب ، وكان أصله من مدينة بلخ ، وقيل بل من أرض حوران من نواحي الشام ؛ وكان عطاراً فتجمد عليه دين . فخرج على وجهه حتى دخل مصر . وكانت صفته أعور ، وطول لحيته سبعة أشبار ، مع قصر قامته وعرج ؛ ولم يزل قائماً بملك مصر حتى هلك في أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق . فعند ذلك طغى وتجبر ، وقال أنا ربكم الأعلى . قال وهب ابن منبه : عاش فرعون موسى أربعمائة سنة ، وهو منفرد بملك مصر ، ولم يزل في النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، غرقاً في البحر . قال إبراهيم بن وصيف شاه إن خراج مصر كان يجبي في كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار .

ولم يزل فرعون قائماً بمصر حتى هلك وأغرقه الله تعالى ، لما خرج في طلب موسى وبني إسرائيل ؛ وقيل غرق في بركة الغرنبل المعروفة في التوراة باسم بحر سوف .

قال القضاعى : لما أغرق الله فرعون وقومه ، صارت مصر ليس بها أحد من أشرف أهلها سوى العبيد والأجراء والنساء ، فكانت المرأة تعتق عبدها وتزوج به ، والأخرى تتزوج بأجيرها . كنّ يشرطن عليهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ؛ وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط إلى اليوم ، لا يبيع أحدهم ولا يشتري حتى يستأذن زوجته — والواقع أن أمر هذا معروف في القانون المدنى أيام القراعنة — ثم إن النساء اجتمع رأيهن على تولية امرأة منهن ، يقال لها دلوكه ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة ، فلكوها . وأنشأت دلوكه على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحفظت قرى مصرى وضياعها بذلك الحائط ، وجعلت له حراساً ، وجعلت عليه أجراً من نحاس ، يحركها الموكلون بها إذا أتاهم طارق يخافونه ، فيسمعون من بالمدينة فيستعدون لقتالهم . وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن بأعلى بلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : إن دلوكه لما تولت على مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدورة [تيودورة] وكانت ساحرة عظيمة ، فعملت بربا من الحجارة في وسط منف ، وجعلت لها أربعة أبواب بالجهات الأربع ، وصورت بها في كل جهة صور الخيل والبالغ والإبل والحمير والسفن والرجال . وقالت للدلوكه قد عملت لكم عملاً يهلك به من أرادكم بسوء من بر أو بحر . فكان إذا قصد إليهم أحد من الملوك الجبابرة ، وعجزوا عن قتاله ، يدخلون في تلك البربا ويقطعون رهوس تلك الصور ، أو يفقتون أعينها ، فهما فعلوا في تلك الصور ، يؤثر ذلك الفعل في عسكر الملك الذى يقصدهم . فامتنعت عنهم الملوك ، ولم يقدرُوا على بلادهم في أيام دلوكه . وأقامت دلوكه في ملك مصر نحو ثلاثين ومائة سنة ؛ ولم تزل مصر ممتنعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت ، فلم يقدر أحد على إصلاح ما يفسد من تلك الصور .

قال المسعودى : لما هلكت دلوكه انتشأ من بعدها شخص من أولاد أشراف القبط يقال له دركون بن نكوطس ، فوقع الاتفاق من الجند على توليته ، فأقام في

الملك مدة طويلة وهلك ، فتولى من بعده شخص يقال له مرنئوش ، فأقام فى الملك مدة ، وفى أيامه قدم بختنصر إلى مصر ، وجرى منه ما جرى من إخراج مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبي نساها ، ولم يترك بها شيئاً من الطلسمات والحكم ، وأخرب غالب البرابى التى كانت مودعة بها تلك الحكم . فلما خرب بختنصر مصر ورحل عنها ، أقامت بعد ذلك أربعين سنة خراباً ليس بها ساكن ولا متحرك ، فكان نيلها إذا زاد ينفرش على الأرض ثم يهبط ولا يجدها من يزرع عليه ويتفع . ثم بعد ذلك عمر مصر أخلاط من الأمم ما بين قبطى ويونانى وعملىقى ، ولكن أكثرهم كانوا قبطاً ، وأكثر من ملك مصر الغرباء . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد ، إلى آخر من تولى منهم وهو . . . المقوقس . وبذلك يسلمنا هذا التاريخ الأسطورى إلى ما نعرفه من وقائع الفتح العربى .

ولقد عجز المؤرخون فيما يبدو عن تفصى مصدر كل هذه الأساطير . وقال البارون كارآ دى فو . وهو الذى ترجم إلى الفرنسية مخطوطة « مختصر العجائب » ، التى نقلنا عنها الكثير مما أوردناه ، بأن الغالب أنها كل ما بقى لدى الأقباط من تاريخ بلادهم .

وللمسعودى قصة فى « مروج الذهب » تؤيد كلام دى فو كل التأييد . قال إنه سمعها وهو فى مصر أيام الإخشيديين :

« وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه ، فى سنة نيف وستين ومائتين ، أن رجلاً بأعلى مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة . من الأقباط ممن يشار إليه بالعلم من لدى حدائته . والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل . وأنه علامة بمصر وأرضها . . . برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها . وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك . وشاهد الأمم من أنواع البيصان والسودان ، وأنه ذو معرفة ببهيثات الأفلاك والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه ، فحمله فى النيل إليه مكروماً . وكان قد انفرد عن الناس فى بنیان اتخذها وسكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر إلى رجل دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن نفسه . فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب ، فأبى أن لا يتوطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء حملة معه من كعك وغيره وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء وهذا الملبس . فإن أنتم ستمتموها النقلة عن هذه العادة ، وتناول ما أوردتموها عليها من المآكل والمشارب والملابس ، كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة . فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته . وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الديار . وصرف همهته عليه ، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراداته ، وجواباته فيما سئل عنه . فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط . . . قيل له فما منتهى النيل في أعاليه ، قال : البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها ، وهي نحو الأرض التي الليل والنهار فيها يتساويان طول الدهر ، وهي تحت الموضع الذي يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » . وما ذكرت فمعروف غير منكر .

« وسئل عن بناء الأهرام فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم ، إذا مات . وضع في حوض حجارة يسمى بمصر والشام ، الجرن ، وأطبق عليه ، ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض وسط الهرم . ثم يقنطر عليه البنيان والأقبا ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ، ثم يحفر له طريق في الأرض بعقد أزج . فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر ؛ ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت . فقليل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة . وعلى أي شيء كانوا يصعدون ويننون ؟ وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ، إن قدروا ؟ فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج ، فإذا فرغوا منه ، نحتوه من فوق إلى أسفل ؛ فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لم صبر وقوة وطاعة للملوكهم وديانة .

« فقليل له : ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ ؟ فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومي ، كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها ، على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومي والقبطي ، فذهب عنهم كتابة آبائهم .

« فقليل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض ، مصر بن بيسر بن حام بن نوح وور في أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم في الأرض .

« فقليل له : أتعرف في مصر مقاطع رخام ؟ قال : نعم في الجبل الشرقي من الصعيد جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمود وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر ، فمنها العمود والقواعد والرؤوس التي تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئتين من السنين ، ومنها العمود التي بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير ، لا يعلم بالعالم عمود مثله ؛ وقد رأيت في جبل أسوان أخاً لهذا العمود ، قد هندس ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحكّ ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم ...

« وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى يعقوبية .. وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه ، فأبى قبول شيء من ذلك ، فردّه إلى بلده مكروماً ؛ وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك . وله مصنّفات تدل من كلامه على ما ذكرناه عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك » .

هذه قصة لا شك في صحتها . ولست متأكداً إن كان الشيخ القبطي يقصد عمود السوراي بالإسكندرية أم المسلة التي كانت قائمة قرب محطة الرمل ، والتي كانت تعرف بمسلة كليوباترة . لأنه رأى في أسوان أخا هذا العمود ، وكلنا نعرف المسلة التي لم تفصل من صخرها بقرب أسوان ، والتي ما نزال نرى بها كسراً ، يظن بأنه كان السبب في العدول عن استخراج تلك المسلة .

وقول المسعودي بأن للعجوز « مصنّفات » . ومعناه أن كانت لدى الأقباط كتب تحوى صفحات من التاريخ القديم ، يختلط فيها الواقع بالأساطير .

والواضح أن ما بقى لنا من واقعها نزر يسير . أما الأساطير فهي التى طالعنا بعضها فى هذا الفصل . وإن ثقتى بأبى الحسن المسعودى . وإعجابى بتفكيره المنطقى السليم . وبأسلوبه العلمى ، بقدر ما وعاه زمانه . تغرينى بأن أزعج أنى وضعت إصبعى فى هذه القصة على مصدر من مصادر التاريخ الأسطورى لمصر . ولست أدعى أن يكون هذا الشيخ القبطى وحده هو مصدر ذلك التاريخ ، وإنما هو واحد من أسلافنا المسيحيين الذين احتفظوا أباً عن جد . بأصداء تاريخنا القديم . عندى أن ما جاء فى الكتب العربية تاريخاً لمصر الفرعونية – وقد درج أصحابها على أن ينقل بعضهم عن بعض دون تحرج – منقول عن الأحاديث التى كان يدلى بها أمثال ذلك الرجل .

قال المسعودى : « وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخيمى الزاهد . وكان حكماً ، وكان له طريقة يأتيا ونحلة يعصدها . وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى وزارها . وامتنحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته ، فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة ، وتبينها فى ذلك القلم الأول ، فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

« وكانت هذه الأمة . التى اتخذت هذه البرابى . لهجة بالنظر فى أحكام النجوم . مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها أن طوفاناً سيكون على الأرض . . . فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها . فاتخذت هذه البرابى . واحدها برابى ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة . وجعلت بنيانها نوعين : طيناً وحجرًا . وفرزت ما بينى بالطين . مما بينى بالحجر . وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما بينى بالطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم . وإن كان الطوفان الوارد ماء . أذهب ما بينى بالطين . ويبقى ما بينى بالحجارة . وإن كان الطوفان سيفاً . بقى كلا النوعين . ما هو بالطين وما هو بالحجر . وهذا ما قيل . والله أعلم ، كان قبل الطوفان . وإن الطوفان الذى كانوا يرقبونه لم يعينوه

أنار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها ،
وملك نزل عليها . فأباد أهلها ، ومصدق ذلك . . . ما يوجد ببلاد مصر وصعيدها
من الناس المتكسين بعضهم على بعض في كهوف وغيران ونواويس . ومواضع كثيرة
من الأرض . لا يدري من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من
أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم لإنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ،
ولا تاريخ ينبئ عن حالهم . عليهم أنوابهم ، وكثيراً ما يوجد في تلك الجبال والروابي
من حلهم . والبرابي ببلاد مصر ببيان قائم عجيب ، كالبربا الموجودة بأصنا ،
والبربا التى ببلاد إخميم ، والبربا التى ببلاد سمنود . . . والأهرام وطولها عظيم ، وبنائها
عجيب . عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة . والممالك الدائرة .
لا يدري ما تلك الكتابة . ولا المراد بها . . . وأن ذلك علوم وخواص . وسحر
وأسرار للطبيعة » .

قال المسعودى : « وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد . وغيره من بلاد
مصر . من أهل الخبرة . عن تفسير فرعون . فلم يخبرونى عن معنى ذلك . ولا
تحصل فى لغتهم . فيمكن - والله أعلم - أن هذا الاسم كان سمةً للملك تلك
الأعصار . وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية » .

وعندما يسرد المسعودى التاريخ الأسطورى لمصر يبدأه بقوله : « ثم يحكى
المسعودى . عن جماعة من الشرعيين . أن بصر بن حام بن نوح لما انفصل عن
أرض بابل بولده . وكثير من أهل بيته . غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة :
مصر بن بصر . ونوف بن بصر . وساح ، وباح . فنزل بموضع يقال له منف .
وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا . . . » ثم واصل قصة الملوك القدماء الذين حكموا مصر .
من أمثال الريان بن الوليد . وظلما . والملكة دلوكة صاحبة حائط العجوز ،
بما لا يختلف كثيراً عما نقلناه عن كتاب « مختصر العجائب » : الذى ينسب إلى
إبراهيم بن وصيف شاه . ويظن البعض أنه منقول عن كتاب المسعودى المفقود .
الذى يشير إليه كثيراً فى « مروج الذهب » . باسم « أخبار الزمان » .

يرفع الستار

سنة ١٨٥٢ ، في عهد عباس الأول ، إرادة لمدير الحيزة :

حيث إنه يوجد آثار قديمة في نقط مختلفة ببلدة سقارة التابعة لمديريتكم كان قد أعطيت رخصة حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط أن لا ينقلوا منها شيئاً للخارج . . . ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لهم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية يخفونها وينقلونها للخارج سراً ، وحيث إن نقل الآثار والمومياء للخارج أمر ممنوع جداً ، فيجب بعد الآن الاهتمام بها ، ومنع إخراجها كلما ظهرت . ولأجل منع الأهالي من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها ، يلزم أن تعينوا شخصاً موثقاً بواسطتكم . . . وتقيموه في محل الاستكشاف ، ليراقب الحفر بدقة عظيمة ، ومنع تسرب الآثار المكتشفة للخارج ، ويعتني بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس . . . لتحفظ هناك وتبقى سليمة من التلف والضياع ، حسب رغبتنا . ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالي والأجانب استحوذ على شيء من هذه الآثار . . . تأكد أني لا أنظر في وجهك مرة ثانية ، وسأصدر أمري حالا بعزلك ، وفصلك من المديرية . (مترجم عن التركية)

صح النوم يا أفندينا !

وفي هذه السنة اكتشف أوجست مارييت في سقارة مقبرة العجل أبيس المعروفة بالسرايوم .

* * *

سنة ١٨٥٧ ، في عهد سعيد ، إرادة لعبد القادر بك مدير القليوبية :

كما ورد في كتاب الموسيو أرغسطس مارييت الذي قدم لطرفنا كشف الجهات المأمول وجود آثار قديمة فيها ، لإخراجها ووضعها في دار الآثار المزمع تأسيسها وإنشاؤها ، تنفيذاً لرغبتنا . . . وحيث أن الآثار الملحوظ كشفها وإخراجها ليست لغيرنا بل لذاتنا فبناء عليه . . . (مترجم عن التركية)

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال للداخلية منطوقه :

إنه قد عرض لدينا من موسيو مارييت عن بعض طلبات مختصة بأشغال عملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد إصدار أوامرها عنها ، ومن الحملة ما هو موضحاً ببيان بأعلى أمرنا عنه ، واقتضت إرادتنا تأديته بمعرفة الداخلية ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لإجري ذلك ، والثلاثة أود أن يعطوا له في المحل الذي تستنسبه الداخلية ببلاق . والموسيو وسالى تصرف له ماهيته من الميرى في المدة المذكورة ، وبمقتضاها يرفت كما اقتضته إرادتنا . (نص أصل)

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال للمديرية قنا وإسنا ، منطوقه :

إن موسيو مارييت قد أنهى إلينا عن بعض أشياء تختص بعملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد إصدار أوامر عنها ، من ضمنها مادة العفش الكائنة على هيكل إدفو . اللازم تخطيطهم ، وإن كان رأى مع موسيو بك أنه يمكن استعواضهم على أربابهم بمبلغ أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف غرش ، ثم لزوم قدرار بعين

حمار لأجل أشغال الفحت ، كذا يريد إعطا الريسا اللازمة على الأنفار الشغالة من كل مديرية ، الذى يعين أسماهم . تمكن يكون لهم دراية كافية بالمحلات الموافقة . ليكونوا مأنوطين بإدارة الفحت . باعتبار كل خمسين نفرا واحد قفر ريس تقريبا ، وبحسب لكل واحد منهم يوى أربعة أو خمسة غروش مدة أيام الشغل فقط . وحيث من وافق إرادتنا إجابات الموصى إليه فى طلباته هذه ، فقد أصدرنا أمرنا لباقي المديرىات فى خصوص الريسا المقتضى طلوعهم من مديرياتهم . وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لأجل فهو مادة العئش . ومشرى الحخير . وإعطى الريسا المختصة بمديريتكم على الوجه المشروح ، كما اقتضت إرادتنا . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٣ . فى عهد إسماعيل . إرادة لمصطفى الكريدلى باشا . محافظ مصر :
حيث إن مارييت بك عرض علينا لزوم تخصيص الشونة الموجودة أمام دار الأنتيقة خانة الكائنة ببلاط لوضع الآثار . لأن دار الأنتيقة خانة الحاضرة غير موافية للغرض ، فبنا عليه وافق إرادتنا تخصيص وإعطاء الشونة المذكورة لوضع الأنتيقة . فيجب أن تبادروا بالإجرى بمقتضاه .
تحشية : الشونة الموصى إليها ليست شونة الميرى الكبيرة المعدة لوضع الفلال ، بل هى العريخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية ، لذلك وضحنا لكم هذه التحشية .
(مترجم عن التركية)

سنة ١٨٦٣ . فى عهد إسماعيل . أمر عال لديوان المالية ، منطوقه :
قد عرض علينا الإبنى النوارى من مدير الآثار التاريخية . . . بناء على أمرنا الشفاحى السابق إليه عن تنظيم الأنتيقة خانة تكون جاهزة للتفرج عليها وأن تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قائمتها . وأوضح بأنه أجرى العمل . ومن أول شهر نوفمبر صار فتحها . وكثير من المتفرجين يحضروا للتفرج عليها . ولكون المصاريف التى صرفت على ذلك تبلغ خمسة وخمسين ألف فرنك وأربعين فرنك وخمسة وخمسين ستميرام صدور الأمر بصرفه . وبترجمة القوائم التى وردت مع الإبنى المذكور . . . وحيث وافق إرادتنا صرف ذلك المبلغ إلى أربابه . بعد المراجعة وأخذ السندات اللازمة . فقد أصدرنا أمرنا إليكم . والقوائم المذكورة والجدول المحرز عنهم ، وإفادة أمين الأنتيقة خانة . ورسولين لطرفكم معه عدد ٢٠ لإجرى صرف المبلغ . . . الذى توضح عنه على وجه ما ذكر ويخصم بالأبعادية . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٩ . فى عهد إسماعيل ، أمر كريم صادر للمالية منطوقه :
ماريت بك مدير الأنتقخانة أعرض لطرفنا بأن ولو أنه نتج من عملية القهر على الآثار القديمة بمقتضى أوامرنا استكشاف جملة آثار تكون منبعاً لعلم التاريخ مدة طويلة ، غير أنه لا يتم هذا المقصد إلا بنشرها وتعميمها ، وحيث لا يكتفى الحال بجمع وتخزين هذه الأدوات والمهمات فقط . ويلزم للوصول لإتمام هذا المقصد ، أعمال مؤلف يتركب من ستة محلدات . فى الكمال ، تحتوى ثلثمائة صورة ، ولأجل إعمال مائة نسخة من هذا المؤلف ، يتكلف جميع ذلك ثمانين ألف فرنك كالبیان الموضح بأعلاه ، وبما أن نشر وتعميم ذلك فيه منافع عمومية وخدمة مفتخرة لعلم التاريخ . قد وافق إرادتنا قبول ذلك وتأدية المبلغ المرقوم إلى البليك المولى إليه فى باريس بالإحالة على بيت مسيو براويه ، بشرط يصرف له كل سنة ربع المبلغ فقط ، حتى يتم على أربعة سنوات حسب إنهاء ، ولاعتاد الإجرى على الوجه المشروح ، أصدرنا أمرنا هذا إليكم . (نص أصلى)

لم يكن حديثي في الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر الخرافى لمجرد الفكاهة والتندر . إنما هو منطق الكتاب دفعني إلى محاولة تحديد الحالة الفكرية التي كان عليها آباؤنا وأسلافنا منذ انهارت الحضارة المصرية القديمة ، وتحولنا عن الوثنية إلى المسيحية ، وقضينا على آخر صلة لنا بماضيينا عندما كتبنا لغتنا بأحرف يونانية ، فضاء مفتاح الكتابة المصرية مع آخر العارفين بها من الكتاب والكهان . وأن لنا أن نصعد في التاريخ ونهبط . نتابع أدوار التحول من أساطير التاريخ المصري القديم ، إلى بعض وقائعه ، بفضل الكشف عما بقي من آثاره .

قال المسعودي في « مروج الذهب » :

« ولصر أخبار عجيبة من الدقائق . وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض . وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب ، إلى هذه الغاية (أى إلى زماننا هذا سنة ٣٣٢ هجرية) .

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز و ذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة في بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأفلام [أى الكتابات] السابقة . فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلباً عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم في حفره . وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجها . فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة في صخر . منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأظلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء . والصور المختلفة . منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال . أعينهم من أنواع الجواهر . كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد . ومنها ما وجوها من ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رمماً بالية ، وأجساماً فانية . وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني [جمع برنية] وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذي قد طلى منه ذلك الميت الموضوع في تمثال الخشب . وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق . وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منها على النار . فتناح منها روائح طيبة مختلفة . لا تعرف في نوع من الأنواع

التي للطيب ؛ وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر . أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملك [الإخشيد محمد بن طعج] . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض - أعنى أرض مصر - أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه (انظر الفصل السابق) دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدبهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، [٩٣٩ م] .

« وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر ، إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة - أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر . وما أصيبت في هذه المطالب من القبور والحرائن . وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق » .

* * *

أما ترى في هذه الفقرة وصفاً بديعاً للكشف عن مقبرة مصرية قديمة : « حجارة مجوفة في صخر » . أى نواويس . « منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب » ، أى توايت أعطيها على شكل الميت . « فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فيها رمماً بالية وأجساماً فانية » . أى مومياء . وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات من المرمر والرخام » . وهى الأواني المعروفة بالكانوب . « وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل » . أى التوايت الخشبية . « تمثال من حجر المرمر أو من الرخام الأخضر » . على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور » . أى تمثال القرين « كا » . أو ما أسميه « عفريت الميت » . إلى آخره !

وقد تنبهت إلى فقرة وردت في تاريخ حياة أحمد بن طولون بكتاب (مصر فى العصور الوسطى » للدكتور على إبراهيم حسن ، حيث يقول (صفحة ٨٢ من الطبعة الرابعة - يناير ١٩٥٤) :

« وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالاً قد لا تتمشى مع موارد البلاد في هذا العصر ، فإن خراج مصر في عهده لم يزد عن ٤,١٠٠,٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن ابن طولون قد عثر على كتزين كبيرين ، أحدهما في الصحراء ، والآخر في الجبل ؛ ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكتزين » .

هل يقوم لديك شك في صحة ما ذهب إليه أولئك المؤرخون . بعد مطالعة ما يقوله أبو الحسن المسعودي عن البحث عن الدفائن والمطالب : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى أحمد ابن طولون وغيره ، إلى هذه الوقت : أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ... » إلى آخر الفقرة .

* * *

والعجيب أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . وقد زار دار البعثة العلمية الفرنسية ، وترك لنا وصفاً طريفاً لهذه الزيارة ، لم يشر إلى عملها الكبير في وصف وتسجيل الآثار المصرية .

ولكنه أشار في سلخ عام ١٢٣٢ هـ (أى عام ١٨١٧ م) يصف سائحين إنجليز يزورون الأهرام . وينهون الآثار : وإليك الفقرة كلها كما وردت في الجزء الرابع من « عجائب الآثار » :

« ومنها أن طائفة الإفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة . الكائنة ببر البحيزة . غربى القسطة . لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات . والفحص عن الجزئيات . وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان . والتساوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى ، بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم . بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك حملاً من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم ؛ حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد . وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتساوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية . بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلى ؛ ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التى كان عليها فى حال حياته ؛ وتمثيل آدمية من الحجر السماقى الأسود المنقط الذى لا يعمل فيه الحديد ، جالسين

على كراسى . واضعين أيديهم على الركب ، ويبد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى . والشخص مع كرسيه قطعة واحدة . مفرغ معه . أطول قامة من الرجل الطويل ؛ وعلى رأسه نصف دائرة منه في علو الشبر ، وهم شبه العبيد المشوهى الصورة . وهم ستة على مثال واحد ، وكأنما أفرغوا في قالب واحد ؛ يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين . وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضاً رأس صنم كبير . دفعوا أجرة السفينة التى أحضره فيها ستة عشر كيساً (نحو ثمانين جنياً) ، وأرسلوها إلى بلادهم ، لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ؛ وذلك عندهم من جملة المناجرة فى الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى . وسيدى إبراهيم المهدي الإنجليزى . إلى بيت قنصل بدر البربرة . بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية . وشاهدت ذلك كما ذكرته . وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم . وضقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون . التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

« وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام . وأذن لهم صاحب المملكة . فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان . وعبروا إلى داخلها . وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الطوط و غيره ؛ ونزلوا إلى الزلافة . ونقلوا منها تراباً كثيراً وزبلاً . فأنهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك . هذا ما بلغنا عنهم . وحفروا حول الرأس العظيمة التى بالقرب من الأهرام . التى يسميها الناس رأس أبى الهول . فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد . ممتد كأنه راقد على بطنه . رافع رأسه . وهى التى يراها الناس . وباقى جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال ؛ وساعده . من مرفقيه . ممتدان أمامه . وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر . عليه نقوش شبه قلم الطير . فى داخله صورة سبع مجسم . من حجر مدهون بدهان أحمر . رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ؛ رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل . ورأيت يوم ذاك .

« وقيس المرتفع من جسم أبى الهول . من عند صدره إلى أعلى رأسه . فكان اثنين وثلاثين ذراعاً . وهى نحو الربع من باقى جسمه . وأقاموا فى هذا العمل نحواً

من أربعة أشهر . . .

« . . . ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الإفرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضى الصعيد ، والفحص وفجر الأراضى والكهوف والبرانى ، واستخراج الآثار القديمة ، والأمم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى » .

وبعد ذلك لا نجد فى تراثنا غير الإرادات والأوامر العالية التى نقلنا طرفا منها فى صدر هذا الفصل ، والتى ندرك منها أن الولاة بدءوا يتنبهون ، تحت تأثير الأجانب ، إلى أهمية « الأنتيقة » . ويغلب على ظنى أنهم كانوا يطمعون ، كأسلافهم ، فيما يمكن أن تؤدى إليه « مادة الفحت » من كنوز مخبوءة . ولكنهم على كل حال اعتنوا بأمر الرجل الذى تدين له مصر والعلوم الإنسانية بدين كبير ، وهو أوجست مارييت ، وسلموا إليه « الشونة المومى إليها ، وليست شونة الميرى الكبيرة لوضع الغلال ، بل هى العريخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية » . كما جاء فى « التحشية » . لتضم إلى « دار الأنتيقة خانة . الغير موافية للغرض » .

والحق أن قائمة الشرف -- التى يثلج صدورنا أن تنتظم أخيراً أسماء مواطنينا، تحت اسم أحمد كمال -- تبدأ بالبعثة العلمية الفرنسية . فشابوليون ، فاريت ، فلبسيوس . أولئك هم مؤسسو علم العاديات المصرية ، أو المصروولوجيا كما أحب سلامة موسى أن يسمى الإيجتولوجيا .

وضياع كنوزنا الأثرية ، وانتقال الكثير منها إلى متاحف العالم كله -- حتى ذلك المتحف البسيط ، الذى زرته ببلدة صغيرة من بلاد المجر ، يحتوى على موميائه المصرية بتابوتها ! -- وإلى أيدي الأفراد ، بدأ منذ عهد الأسرات بسرقة المقابر . وهناك قضية مشهورة فى التاريخ القديم عن عصابة من لصوص المقابر . حدثت فى عهد رمسيس التاسع ، حين آتهم عمدة طيبة زميله ، رئيس حرس المدافن الملكية ، بالتستر على اللصوص ، وبأن مقبرة أمنحوتب الأول قد نُهبت . وأجرى تحقيق على يد لجنة عليا اعترف أمامها أحد أفراد العصابة بسرقة هرم شيسسكاف . وأقر على شركائه .

ولعل أهون الخطب أن تسرق الآثار . وتنتهى إلى مكان أمين ، سواء بمصر أو بالخارج . إنما الطامة الكبرى هى فيما انهار منها تحت معاول الهدم ، أو ذاب فى بوتقة الصائغ . أو احترق فى شيشة الساحر . ولو استطاع الرهبان المصريون أن يسووا بالأرض كل ما كان قائماً من آثار الوثنية المصرية ، لفعلوا ، ولكنهم عجزوا فى كثير من الأحوال : أو هم فضلوا بناء بيعهم مستندة إلى صروح المعابد ، وتعميد كنائسهم فى قاعاتها الداخلية . هذا إلى أنهم حولوا المدافن المنهوبة إلى « قلايات » لإقامتهم وتعبدهم . وكانوا يطمسون على نقوشها وصورها بالملاط أو الطين مخلوطا بالنين ، حتى لا يوسوس الشيطان لهم . وكان فى هذا الطين والملاط ، الذى طمسوا به حوائط المعابد والمقابر ، ما حفظ صورها على طول الزمان . ولم يكن المصريون المسلمون أكثر رحمة بآثارهم من إخوانهم المسيحيين . وقد طالعنا ، فيما اخترناه من كلام المسعودى ، صورة مما حدث على مدى آباء التاريخ المصرى . من تدمير وتحطيم ، بحثاً عن الدفائن والمطالب .

وكان أهلنا ، إلى عهد قريب منا ، يضعون أيديهم على كل ما تصل إليها من قطاعات الأعمدة ، ليستعملوها حجارة رحي . ومن لوحات تذكارية « ستىلا » ، ليسطوها عتبات بيوت ، وعقود أبواب . وكانت بعض المعابد تتحول إلى محاجر . . . وقمائن جبر . هذا إلى ما نقل من أعمدة المعابد ، لإقامة الكنائس والمساجد . ثم تلك المدن الكبرى التى هجرها الناس ليسكنوا قراهم الحفيرة ، لم تترك لينهاى عليها تراب الزمان ورماله ، بل ساعد الأهليون على دفنها ، إذ كانوا يحيلونها إلى مقابل لقمامتهم ، وكأنهم يعبرون بذلك عن كرههم لتلك « الكفريات » ، وخوفهم من العفاريت وفعل الطلاسم . وإنهم لعائدون إلى تلال القمامة فى الغد القريب ، سباخين يستخرجون منها سماداً كفيرياً لزراعاتهم .

وقد حرصت على وضع نصوص الأوامر العالية فى صدر هذا الفصل بسبب قرب أولها من عهد حمد على . وكان من أشد العهود نكيرا على آثار أجدادنا . وكأنه لم تكف هذه الآثار أن تنال منها القرون والأجيال ما نالته : بل جاء نشاط محمد على فى بناء المصانع — التى أفلست كلها — وقضى فى أقل من ربع قرن على أكثر مما محاه الفرس واليونان والمسيحيون والمسلمون والمغامرون الأجانب مجتمعين .

ويقدر إرنست رينان أن تلك المصانع . وبناء القصور . أزلت من على وجه البسيطة ما لا يقل عن عشرة معابد كبيرة .

والآثار التي نراها الآن قائمة فوق الأرض . ونجوس في رحابها وأبهاها ، لم تكن حتى القرن الماضي غير حجارة مبعثرة في الفلاة . أو أعمدة مدفونة إلى أكثر من نصفها في الرمال . وتحت تلال من القمامة* وكانت بعض المعابد قد تحولت إلى كفور وعزب وساحات موالد وأسواق . ويكفي أن نقلب صفحات الكتب التي سجلت صور هذه الأطلال . منذ البعثة الفرنسية . لتتحسر على ما صنعت الأيام والآباد . والسلف الصالح والطالح . بآثار آبائنا وأجدادنا الأولين .

الموقف إذن هو : أطلال مدمرة مهتمة مشوهة . مدفونة في الحماة والرمال السافية . وكلام يختلط فيه الوصف الصادق بالخرافات والأساطير . يرد في كتب الرحالة والجغرافيين القدماء . وعلى رأسهم ذلك الصمخى الأول هيرودوتس الهاليكارناسى . وتهريف لا رأس له ولا ذنب . تقدمه الكتب العربية على أنه تاريخ مصر . و « قلم » مات وضاعت مفاتيح قراءته . وقوائم بأسماء ملوك مصريين انتظموا في أسرات . نقلها المؤرخ اليهودى يوسفوس . ويوليوس الأفريقى . ويوسابيوس . فيما يعرف « بالختصرات » عن كتاب ألفه الكاهن السنودى مانيتون بأمر بطليموس الثانى . . . ودمتم !

ومنطق هذا الكتاب بطلبنى بأن أضعف فى التاريخ على ضوء ما بذل العلماء الأعلام من جهود المؤمنين . للكشف عن وجه أمّ الحضارات وقد تغطى بنقاب إيزيس . وعليه أحوال وأدران . . . وسباخ كفرى . وتصعيدى فى التاريخ . عن طريق أولئك الجهابذة ليس من السهولة كما يبدو لأول وهلة . فهناك أسباب تجعل فهمنا للتاريخ المصرى عسيراً : وما أعنيه من فهم ، ليس مجرد الإدراك العقلى لتاريخ بلادى . وإنما هو الإحساس بذلك التاريخ . ووصل ما انقطع من الروح المصرى . فإن بين حاضرتنا وماضينا البعيد . هوة فكرية عميقة . لم يحدتها الفتح العربى كما يظن بعض الناس . وإنما غار الطريق المنبسط بعد غزو الإسكندر . وربما قبل ذلك . فإن القرون الأخيرة للأسرات كانت فى صميمها قرون انحلال . نشأ عن اختلاط المصريين بالشعوب الأجنبية اختلاطاً كبيراً ، منذ غزا الهكسوس

مصر ، فقامت قومة رجل واحد تتخلص من نير أولئك البرابرة الآسيويين ، وتكتسحهم حتى حدود بلادهم ، وإلى أبعد من حدود بلادهم ، وتؤسس إمبراطورية واسعة الأرجاء . وقد أحست بأن اطمئنانها إلى حدودها المائية والصحراوية لم يكن إلا خيالا . وهى فى حاجة ، للاحتفاظ بإمبراطوريتها ، إلى جيشن محترف ، لا مجرد زراع وصناع يجندون لأداء مهمة بوليسية محدودة فى النوبة أو سينا ، ثم يعودون إلى زراعاتهم وحرفهم . وما حدث فى مصر حدث فى روما ، وهى تتحول من جمهورية مزارعين إلى إمبراطورية يساندها جيش محترف كبير . وملوك مصر يصاهرون الأسر الأجنبية . يستقبلون أمراءها غلماناً وفتياناً . ويشرفون على تربيتهم تربية مصرية . لينشأوا أعوانا لهم فى بلادهم . يحكمونها باسم مصر . ولقد انتهت إمبراطورية الرعامسة إلى ما انتهت إليه الإمبراطوريات : رخاء واسع وثرأ عريض ، أجناد أجنبية . ومعابد كبرى . أغدقوا الخيرات على آلهتها الذين ناصروهم فى فتوحاتهم . فإذا الكهنة يسيطرون على الحياة العامة . وعلى الأسرة الملكية . وإذا الكاهن الأكبر . هريهور . يغتصب العرش فى مطلع الأسرة الأولى بعد العشرين . ونجى أسرات مصرية أخرى . وأسرات إثيوبية وليبية . تعيد إلى مصر بعض مجدها الغابر . فتتوهج شعلة الحضارة زماناً . ثم تخبونها شيئاً تحت أقدام الغزاة الفرس والمقدونيين . ولا يفيدنها شيئاً أن تتمسك الأسرة اللاجيدية بمظاهر العبادة المصرية . فلم يكن هذا إلا نوعاً من النصب والاحتيال السياسى . مارسه غير قليل من الفاتحين . ولا سياً أن البطالسة لم يترددوا فى استنباط عبادات إله بزرميط ، اسمه يجمع بين اسمى أوزيريس وأبيس . فهو سيرابيس [أوزير - أبيس] ، وتمائيله الباقية لنا فى متحف الإسكندرية . تظهره على صورة أقرب إلى زفس كبير البانتيون اليونانى . وزاد الاختلاط . بل التخليط ، فى العهد الرومانى ، فلم يبق حياً فى نفوس الشعب المصرى سوى أسطورة الثلاث الأوزيريسى ، وهى الأسطورة التى ألف فيها بلوتارك كتاباً جميلاً . واضح المعالم ، لولاه لظللنا نتخبط فى فهم هذا الثلاث تخبطنا ، إلى اليوم ، فى فهم البانتيون المصرى كله ، برغم ما كتبه وكتبه المؤرخون المحدثون من مؤلفات عظيمة ، تقرأها بعناية ، فتحسب أنك فهمت شيئاً ، وتعاود قراءتها فإذا بنا . . . يا بدر !

وعندما تحول أسلافنا إلى المسيحية . وحظر مرسوم الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس عبادة الأوثان في أنحاء الإمبراطورية . أخذ الشعب المصري ، بقيادة قساوسته ورهبانه . يهدم الأوثان . ويلطخ صور المعابد والمقابر ، وينزل بمعاوله على كل ما يستطيع تبطيظه منها . وتسويته بسطح الأرض ، أو هو يحولها إلى كنائس وصوامع . فهل تنتظر من أجدادنا المسلمين خيراً من هذا ؟ لم يترددوا . هم أيضاً ، في الزحف على المعابد . وإقامة أضرحة الأولياء في وسطها ، أو نقل أعمدتها ، وأعمدة الكنائس . لإعادة استعمالها في المساجد والجوامع والمنازل .

ودخول المصريين في المسيحية لم ينته فقط إلى فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية والهيروغليفية والديموطيقية ، بل إلى فقد معالم التاريخ المصري . ومن أهم معالمه تلك الديانة القديمة التي كانت عماد الحياة الفرعونية ومصدر قوتها . . . وضعفها . فإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المحاطبة بين المصريين ، حتى بعد الفتح العربي بزمان طويل . فإن كتابتها بحروف يونانية . وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ اليونانية ، وبخاصة ما يستعمل منها في طقوس الكنيسة . وفي القضاء والإدارة ، قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية . والعجيب أنه أصبح من الخطر على المصريين ، وطُلاب العلم على وجه خاص . أن يضبطوا وفي حيازتهم برديات قديمة ، على زعم أن كل هذه الكتابات المصرية إنما تنطوي على أسرار السحر . ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلاً مصرياً لهم ، يدرس في بيروت . ومن مواليد طيبة . يمارس الشبشة . فذهبوا إلى منزله ، في غيبته . وقرروا خادمه ، حتى عرفوا أن زميلهم يخفي لقاغات بردية في قاع صندوق يستعمله كمقعد . ولما عاد الصعيدي إلى منزله . وتحقق من اكتشاف أمره . خر على وجهه . وبكى وابتهل إلى زملائه أن لا يسلموه للسلطات . ويقول ساويرس . الذي يحكي هذه الحكاية : « ولقد أشفقنا عليه ، لأننا مسيحيون نخاف الرب » . ولم يتركوا زميلهم الشاب المصري ، حتى أحرق أمامهم بردياته . ويورد يوحنا « فم الذهب » قصة مماثلة . شهد وقائعها في شبابه : كبس فيها الشرطة رجلاً يخفي برديات تحتوي على أسرار السحر . ومع أنه تمكن من إلقائها في النهر . فقد قبض عليه ، وحوكم وأعدم .

التحول إلى المسيحية هو الذي قضى على مصر القديمة عقيدة ، وقلماً ، وتاريخاً

وأثارا ، ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز على الوثنية ومعالمها ، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة ، حتى يمحي زمان لا يكاد رجال الإكليروس يعرفون من هذه اللغة إلا القليل ، يرددونه في ميوت عبادتهم . وإذا كان أجدادنا الأقباط ، في القرون الوسطى ، حاولوا الإبقاء عليها ، فلم يكن ذلك ليعيدها لغة تخاطب ، وإنما حرصاً على الطقوس ، وحفاظاً للكتاب المقدس في ترجمته القبطية القديمة . فهي حركة علمية ، اتخذت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية ، كما يظهر من الكتب التي ألفها الأقباط لهذا الغرض من القرن السادس عشر وما بعده .

والإحساس بالتاريخ إحساساً يحرك المشاعر ، ويوقظ القومية ، لا يكون إلا على أساس استمرار التقاليد . وقد انقطعت الصلة انقطاعاً تاماً بين المصريين ، مسيحيين ومسلمين ، وبين أسلافهم الوثنيين ، ولم تعد آثار هذا السلف تتحدث إلى نفوسهم بأكثر من الإيحاء بأنها رموز كفرية ، وكنوز مخبوءة ، تقوم على حراستها طلاس عمل بقوى خفية . والمصريون المسيحيون الألى ، يسألون عن حكاية السحر والطلاسم هذه ، بل ويسأل عنها أجدادهم الوثنيون ، عندما لم تبق من عقائدهم القديمة سوى رموزها السحرية ، وطبها الروحاني ، وطقوسها في عبادة الحيوانات ، ولم تكن لإيزيس في قرارة أنفسهم سوى سيدة السحر ، ومستودع أسرار الآلهة .

والعجيب أننا ما زلنا إلى اليوم ، لا في مصر وحدها ، بل في العالم أجمع ، نعتقد ، إن قليلاً أو كثيراً ، بهذا السحر ، وما زالت شعوذة المشعوذين من أمثال « مغربي كداب » يفتح الكتاب « تتحكك بالدين . فالساحر الأفاق ، وأدعياء الطب الروحاني ، ما زالوا يعتمدون أولاً على مظاهر « الولاية » ، سواء في هذا المسلمون والمسيحيون ، وهم يخلطون خلطاً خبيثاً بين ما يسمونه « اللغة السريانية » ، وهي لغة الجن في عرفهم ، وبين بعض الكلمات القدسية ، ويعتمدون على ذلك في تعاويذهم وتماثيمهم وتخليطهم . ولقد اكتشفت أخيراً أن اعتقادنا بقدرة المغاربة على السحر ، يقابله ما كان يدعيه مشعوذو الشمال الأفريقي ، وسحرة الأندلس الإسلامية ، من أنهم تعلموا السحر في ظلال الأهرام ، وتحت آراج البرابي والمدافن . هذا وعلامة السحرة في أوربا كانت ، وما برحت ، بومة — لعلها ترمز إلى الصقر ! — ومومياء ، أو بعض مومياء مصرية ! ثم تأمل الاعتقاد بلعنة الفراعنة ،

تلك الحرافقة الشائعة بين الأنجلوسكسونيين . ألا ترى فيها أثراً مما لابس الديانة المصرية القديمة من ضروب السحر ؟

ولا أنسى . في أول عهد إقامتي بأوربا . أننى دعيت إلى جلسة بين قوم مثقفين . وإن كانت غالبيتهم من السيدات ذوات اللوثة والتخليط — فإذا المحاضر يرق المنصة . فتطفأ الأنوار . إلا ضوء مسرحية زرقاء . . ويدلى إلينا الخبر الفهامة بأسرار . . . الكوتشينة « التارو » . وعلاقتها بأبعاد الهرم الأكبر . واتجاهات زواياها ! وإلى عهد قريب منا . كانت تعيش في الأقصر جماعة من المشعوذين الأجانب . يتيسون أبعاد معبد الأقصر . ثم يفضّلونها على جسم الإنسان . جنيناً . طفلاً . فرجلاً ! وقد أهدانى أحدهم مقالا له في هذا المذيان . فأعجبت به على ضيف أجنبي « مهفوف » . وإذا بالرجل يطير بالمقال . حقيقة ومجازاً . بعد أن دار أمامى دورة . وقفز في الهواء كما تقفز الهررة . فقد كان حضرته أستاذاً كبيراً من أساتذة الباليه !

وإذا فتحنا كتاباً من كتب السحر . وقد عنيت مصلحة الآثار المصرية بنشر أحدها في سلسلة جوشها — وجدنا فصوله تجمع بين الوصفات و « الأعمال » التي تشقى العليل . وتذيب القلوب صباية . وتنفع لمقابلة الحكام . وكانت النسوة . في الربع الأول من هذا القرن . يقمن بطقوس مخصوصة حول موميات القراعنة بالمتحف المصرى . علاجاً للعم . وتسمين ذلك : « راحت يا ختى تشق » . ناهيك بما في تلك الكتب من التعازيم والخطط المعقدة . والبحث عن قلب هدهد يتم . ودفن بيضة دجاجة سوداء . أربعين يوماً . بين أربعة مفارق . . . وذبح الكتكوت الذى يخرج منها . قبل أن يصيح . . . والكتابة بدمه في كاغد . ودخول القبور المهجورة بظهورك وأنت تبرجم باللاوندى . حتى تنتهى إلى الرصد . الذى يفتح لك مغاليق المطالب والدقائق !

هذه هي مصر القديمة التي نبحث عبثاً عن روحها . ونحاول أن نتصل بحقائقها الحية ، فيقصينا عنها شيء غير مفهوم . ربما كان سببه أن التاريخ الذى يكتبه علماء المصريات ما زال . في أركان كثيرة منه . شذرياً مفككاً .

ولم يكن الأوروبيون . الذين وفدوا على مصر في القرون الوسطى ، خيراً من

الزائرين العرب أو أقرب فهمًا للتاريخ المصري . هذا إلى أن مرورهم بمصر لم يكن إلا استكمالاً لارتداد الأراضي المقدسة . فكانوا يعنون . أول ما يعنون ، بآثار يسوع الطفل مع السيدة العذراء وخطيبها يوسف النجار . عند ما لحقوا إلى مصر هارين من أرض الجليل ، إنقاذاً للطفل من مذبحه الملك هيرودس . فيتبرك الحجاج بشجرة العذراء في المطرية ، ويشربون من نبع البلسان . وينتقلون إلى قصر الشمع . حيث يقودهم شماس كنيسة أنى سرجة إلى كهف تحت أرض الكنيسة . يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيه بعض الوقت . وحتى الأهرام لم تكن عند أولئك الرحالة سوى أهراء الغلال . ومخازن التموين . التي أقامها يوسف الصديق لمواجهة السنين العجاف .

ومدينة طيبة العظمى . ذات المائة باب في قول هوميروس . لم يكن أحد يعرف لها جرة ! حتى لقد حسب الرحالة الأوروبيون الأوائل موضعها مدينة أنصنا [أنطنوس وهي الشيخ عبادة حالاً] . وذلك لأن دقلديانوس كان قد جعل من هذه المدينة عاصمة الطيبائية . وأول من بلغ مكان طيبة الحقيقي اثنان من الرهبان الكابوشين . صفا ما كان يظهر من الكرنك في منتصف القرن السابع عشر . دون أن يدركا أنها أمام أعظم المعابد المصرية . في أكبر عواصم العالم القديم . ولم يتحقق من ذلك سوى الأب سيكار . في أواخر ذلك القرن .

ثم يزور مصر الرحالة بوكوك ونوردن ونيبور . فسافاري وفولانيه . ويبدأ عهد لصوص الآثار من الأوروبيين . وهواة الموميات والتحف . وكانت مصدر رزق كبير لهم . لحرص ملوك ذلك الزمان وأمراءه على اقتناء « أنثيكات » . تضم إلى مجموعاتهم الخاصة التي كانت تعرف بـ « غرف التحف والعجائب » . وكانت الأصل لكثير من المتاحف الأوربية الكبرى .

تلك كانت مصر القديمة عند المصريين . والرحالة الشرقيين والغربيين : حتى جاءت الحملة الفرنسية . وفي ركاها مجموعة ممتازة من العلماء والفنانين . جاءوا ليستكشفوا ويدرسوا ويسجلوا . ومع أن « المعهد العلمي المصري » كان قد أنشئ بمجرد بلوغ الفرنسيين القاهرة ، فإن لجنتي الآثار المصرية لم تولفا إلا بعد أن عاد البارون فيثيان دينون من رحلة الصعيد . وكان قد صحب تجريدة الجنرال ديزيه . التي أتمت الاستيلاء على مصر ببلوغها أسوان . ودينون رسام بارع بريشته وقلمه ،

يرسم كل ما يمر به من أطلال ، ويدون مذكرات رحلته . وبعد عودته إلى القاهرة ، وحديثه مع الجنرال بونا بورت ، وإطلاعه إياه على رسوماته ، أمر كبير الحملة بإنشاء لختين بالمعهد العلمى المصرى ، مهمتهما « قياس جميع آثار الصعيد ، ورسمها رسماً موضوعياً صحيحاً ؛ تراعى فيه الدقة العلمية » . وطبع دينون مذكرات رحلته مع رسوماتها بباريس سنة ١٨٠٢ ، فذاعت شهرتها عاجلاً ، وتعددت طبعاتها وترجماتها . ومن هنا تبدأ « الإيجتولوجيا » ؛ تبدأ علماء موضوعياً ، يقيس ويسجل ويقيّد ويرسم ، دون أن يحاول تفسيراً . وأتى له التفسير ، وذلك القلم البربائى — كما يسميه أحمد كمال فى كتاب « العقد الثمى » — لا سبيل إلى فض أغلاقه ؟

ولن نقفز هنا إلى خبر العثور على حجر رشيد ، فإن الهيروغليفية لم تنتظر هذه اللقيا لتجد من يبحث عن أسرارها . بل إن موضوعها قائم منذ عهد الريانس فى إيطاليا . وقد وجد الناس فى روما بعض مسلات أعادوا إقامتها . والمسلة أثر غاية فى التحدى ، فهى لوح محفوظ ، عليه كتابات تستثير فىك رغبة ملحة نحو تفسيرها . وكان المؤرخ أميانوس مارسلينوس ، فى القرن الرابع الميلادى ، قد دون فى تاريخه ترجمة لاتينية لنص منقوش على إحدى تلك المسلات ، نقلها عن واحد من الكهنة المصريين . ولكن الباحثين أيام الريانس ضلوا بين نصوص المسلات ، فأى نص ذاك الذى دون ترجمته أميانوس ؟ ثم وقع لهم كتاب باللغة اليونانية ، لمصرى اسمه هورابلون ، عن الكتابة الهيروغليفية ، يتضح منه أن أسرارها استغلقت عليه . ونشر هذا الكتاب إبان القرن السادس عشر فى طبعات كثيرة . وحاول الأب اليسوعى أنناسيوس كيرخر ، فى القرن السابع عشر ، حل اللغز البربائى ، وحسب أنه توصل إلى الحل عندما قال بأن الهيروغليفية كتابة دينية غيب فيها المصريون أسرار حكمتهم . وقد بلغ القس العلامة من فهمه لهذه الحكمة ، وفكه لتلك الأحاجى ، أن جاءت ترجمته لكلمة « أبريس » — وهو اسم علم لأحد ملوك الأسرات المتأخرة — على الوجه الآتى : « نعماء الإله أوزيريس ، تفيها على البشر طقوس مقدسة ، يقوم بها نفر من الجن فتحل بركة النيل » . . . أقل من هذا ونفق الحمار !

وحاول من بعده القس الإنجليزى واربرتون ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، محاولات فاشلة . وظن دى جين ، والأب نيدام ، أن الهيروغليفية ضرب من الكتابة

الصينية . كما ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من السريانية أو العبرانية . واستطاع الدانياركي زويجا-وكان عارفاً باللغة القبطية -التحقق من أن الخانات البيضاوية المعروفة بالخراطيش ، تحتوى على أسماء ملوك ، وأن للعلامات الهيروغليفية مقابلاً لفظياً ، أى أنها حروف صوتية (فونيتيك) . ونقل كارستن نقوشاً برائية نقشاً أقرب إلى الصحة من نقل سابقه .

وفي آخر القرن الثامن عشر ، وبينما جنود بونابرت يقيمون تحصينات على بقايا قلعة مصرية من قلاع القرون الوسطى ، إلى الشمال الغربى من رشيد ، عند قرية البرج ، على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة برج مغيزل على الضفة الشرقية ، عثروا على حجر أسود ، عليه كتابات بلغات ثلاث ، إحداها الهيروغليفية ، وآخرها اليونانية ، وفى وسطهما كتابة عرفت فيما بعد أنها ديموطيقية . وأبلغ الضابط المهندس بيير بوشار ، المشرف على الأعمال ، خبر العثور على الحجر إلى البعثة العلمية بالقاهرة . وبقية القصة معروفة ، ولكنها جديرة بأن تنشر تفصيلاً فى كتاب عربى يترجم حياة الرجل الفذ فرانسوا شامبوليون .

وكنْتُ أحسب - كما يحسب الناس فيما أظن - أن مجرد العثور على نص هيروغلى وديموطيقى ، يقابلان ترجمة إغريقية لمرسوم بطليموس إبيفانوس ، كاف لفتح مغاليق الكتابة المصرية القديمة ! والواقع أن النص الإغريقى ، على حجر رشيد ، يحتوى على أربعة وخمسين سطراً ، والنص الديموطيقى على اثنين وثلاثين سطراً ، أما النص الهيروغلى فلم يبق منه سوى أربعة عشر سطراً . اشطف هام فى الحجر . واللغة ليست مجرد ألفاظ متراسة ، بل هى كلمات وقواعد وأجرومية . ثم إن الكلمات ، فى لغاتنا - مركبة من حروف ، فهل كانت الهيروغليفية حروفاً منطوقة - فونيتيك - أم أنها رموز ذات معان ، أى إيديوجرامات ؟

كان على شامبوليون أن يكتشف أولاً أن الهيروغليفية فى أساسها كانت رموزاً ، وتحولت فى تطورها إلى الانتفاع ببعض منطوق هذه الرموز ، لتستعمل حروفاً أو مجموعة حروف . كأن نرسم صورة رجل يرمى بالجللة ، فنفهم منطوقها ومعناها : « رمى » ؛ ثم نرسم إلى جانب ذلك صورة خروف مذبح . ومعلق : فنفهم منطوقه ومعناه « ضأن » ، ونخرج من هذين الرمزتين ، بعد لائى ، إلى أن المعنى كلمة

لا علاقة لها بالضأن ولا بالرى ، فماذا تكون ؟ رى — ضأن = رى ضان = رمضان . مثلاً . ثم تطورت الهيروغليفية بعد هذا إلى حروف صوتية بعينها . ولكن الكتابة احتفظت مع ذلك بكل أدوار تطورها ، من الرموز إلى الانتفاع بمخارج أصوات الكلمات كقطائع للكلمات أخرى [رى — ضان = رمضان] إلى حروف بعينها .

وقبل شامبوليون . كان السويدي « آكربلاد » وقد وفق إلى تبين بعض حروف الديموطيقية . كما كان الإنجليزي . يونج . ركز همه في تفسير الحروف أو الرموز المكتوبة داخل الخانات [الخراطيش] الملكية . وبما أن نص حجر رشيد هو مرسوم لأحد البطالسة ، فقد تابع يونج بحثه أربع سنوات ، يتخبط بين أسماء الأسرة اللاجيدية ، حتى أصاب في قراءة بعض اسم « بطليموس » ، وبعض اسم « برنيقة » . وبذلك استطاع الكشف عن عدد من الحروف .

ولم يكن شامبوليون مجرد هاو لحل المسابقات الصحفية من نوع الكلمات المتعارضة وما إليها ، بل كان منذ حداثة كلفاً بدراسة اللغات القديمة شرقية وغربية . وقد حذق اللغة القبطية . كما توصل إلى إدراك أن القلم المصرى القديم يكتب على ثلاثة أشكال . الخط الهيروغلى والهيراطيقى والديموطيقى ؛ والأخيران يختصران الخط الهيروغلى ، كما يختصر خط الثلث أو النسخ ، بخط الرقعة ، وكما تختصر الحروف الكيرلوسية الروسية ، والغوطية الألمانية . عندما تكتب باليد سريعاً .

استغرق شامبوليون في دراسة نص حجر رشيد ، وغيره من النصوص ، نحو عشرين سنة . باحثاً منقّباً . على أساس من معرفته باللغة القبطية أولاً ، وفي قدرة عجيبة على التركيز الذهني . وما أكثر ما تردد وتراجع . فهو يؤكد في عام ١٨١٣ أن الهيروغليفية ليست رموزاً تعبر عن فكرة ، بل حروفاً هجائية ؛ ثم يتنكر لهذه الفكرة سنة ١٨١٨ . ليعود إليها مرة أخرى ، فيما بعد . إنه يبدأ بدراسة نص ديموطيقى ؛ في بردية عاينها اسم « كليوباترة » ، ويحاول أن يركب هذا الاسم من عندياته — بحروف هيروغليفية . ثم يهمل ذلك حتى يجيء عام ١٨٢٢ . حين يعثر على صورة لنص هيروغلى منقوش على مسلة من جزيرة فيليه . يطلع فيه اسم كليوباترة . . . كما كان قد كتبه من قبل ، ومن عندياته !

محاولات مرهقة . استغرقت الأيام والليالي ، والأشهر والأعوام . حتى يجيء

صباح ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ . وهو يطالع نقوشاً هيروغليفية ، نسخها ، وأرسلها إليه من مصر ، مهندس معمارى من معارفه . وكانت تلك النقوش تتميز بخانات [خرطوشات] عدة . فتأهب شامبوليون لقراءتها ، وقد جمع أمامه خمسة وعشرين حرفاً هيروغليفاً ، كان قد توصل إليها بعد قراءة أسماء بطليموس ، وكليوباترة ، وإسكندر ، وغيرها من أسماء البطالسة ، وأمباطرة الرومان :

ففى إحدى خانات النص الذى وصله حديثاً ، لاحظ علامة الشمس ، وتحته ثلاث علامات . اثنتان منهما مكررتان . هما حرف س والأولى حرف م فقرأها « مسس » . وبقيت علامة الشمس . وإذا به يدرك فجأة أن « رع » هو اسم الشمس — كما عرف من كتابات الأغارقة والرومان — فتفتجر فى ذهنه انفجاراً كلمة « رع — مسس » ! وفى خانة أخرى ، يرى نصفها الأسفل مشابهاً لنصف خانة « رع — مسس » . وفى نصفها الأول صورة طائر . يقف على قاعدة . هو الطائر المصرى أبو منجل ، وهو عند المصريين رمز إلههم « تحوت » . فيقرأ الاسم الجديد : « تحوت — مسس » أى تحوتمس !

يجمع شامبوليون أوراقه ، ويجرى إلى أخيه الأكبر ، وكان يعمل فى الأكاديمية الفرنسية . سكرتيراً خاصاً للعلامة « داسييه » . يدخل على أخيه منفعلاً . ويلقى على مكتبه بمجموعة أوراقه ، وهو يصيح « أدركتها » ، وكأنه يردد كلمة أرشميدس : « أوريكا » ، ثم يقع مغشياً عليه ، لفرط حماسه وإجهاذه . وعناء السنوات التى عاناها فى البحث والتنقيب والمقارنات . بالرغم من تضعضع صحته .

وفى يوم ١٩ سبتمبر . بعد خمسة أيام قضاها مستغرقاً فى سبات عميق ، يفتح عينيه ، وما يكاد يقوم من فراشه . حتى يشرع فى تحضير مذكرته المشهورة ، التى بدأ طبعها بعد ذلك بأيام . وقدمها إلى المجمع الفرنسى ، بعنوان « خطاب إلى السيد داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب . خاصاً بأحرف الهجاء الهيروغليفية . ذات المخارج الصوتية . التى استعملها المصريون لينقشوا على آثارهم أسماء الملوك اليونانيين والرومانيين . وألقابهم » .

وفى آخر عام ١٨٢٢ . ينتهى شامبوليون إلى التعرف على أسماء عدة ملوك من الأسر الفرعونية : أخوريس ، ونفيريئس ، وبسامتيك . وشيشونق ، وغيرهم .

وقد أدرك أخيراً أن الكتابة المصرية تتألف من أحرف ، ومن رموز ؛ وعرف أن قواعد النحو القبطى ، هى قواعد نحو اللغة المصرية القديمة ، وشرع فى ترجمة نصوص كاملة ، ظهرت سنة ١٨٢٤ فى كتابه المسمى : « الطريقة الهيروغليفية عند قدماء المصريين » .

ويسافر إلى إيطاليا ، ليدرس نصوص متحف تورينو . ثم يتاح له أن يزور مصر ، حيث قضى سنتى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، على رأس بعثة توسكانية يقص علينا طبيبها كيف عثر به ذات مرة مغمى عليه ، فى مقبرة من مدافن طيبة . وحوله اللوحات التى كان ينسخ عليها النصوص .

ويعود إلى فرنسا ، فينتخب عضواً فى أكاديمية النقوش والآداب ، وينشأ له بالكوليج دى فرانس أول كرسي لعلم المصريات . ولكن حاجته إلى الراحة التامة تضطره إلى الاعتزال فى بلدته فيجاك ، وهناك يضع آخر كتبه فى قواعد اللغة المصرية القديمة ، ويقول عنه بحق : « إنه بطاقة زيارتى ، أتركها للأجيال القادمة » .

ثم يعود إلى باريس . محطم القوى ، ليشرع فى دراسة مواد بعثته إلى مصر . ويصاب بالفالج صباح ١٣ يناير سنة ١٨٣٢ ، ويقبض فى ٤ مارس من العام نفسه .

فالأمر ، كما ترى ، ليس باليسر الذى كنت تتصوره . وقد نسيت أن أحيطك علماً بأن الكتابة المصرية ، كالكتابات السامية ، لا تعنى كثيراً بحروف الحركة ، وهى صعوبة تضاف إلى سائر الصعوبات التى يعانها كل من يحاولون مطالعة هذه اللغة .

يقول العلامة إدوارد ماير ، مؤبناً شامبوليون :
 « كان عبقرياً موهوباً ، ما فى ذلك من شك ، ولكن عبقريته كانت تسندها معرفة عميقة ، وتنظيم لمادة دراساته . ولذلك استطاع شامبوليون الغوص فى معانى نصوص البرديات والنقوش ، فى صميمها على أقل تقدير . ويندر أن نجد فى تاريخ العلوم أمثلة كهذه . فما إن يدركه الموت ، فى شرح عمره ، حتى يكون قد كشف ، فى وضوح وصحة ، لا عن أسس اللغة فحسب ، بل عن تاريخ مصر القديمة » .
 ولم تنشر أجزوميته للغة المصرية القديمة إلا عام ١٨٣٦ . أما قاموسه فقد خرج سنة ١٨٤١ . وبعد ذلك بوقت نشر كتابه عن « آثار مصر والنوبة » .

وبهذا يرتفع بناء ثان على ذلك الطريق الطويل الموصل إلى اكتشاف مصر القديمة . أما البناء الأول فكان مجلدات البعثة العلمية المصرية . وسيعمر الطريق بأعمال الألمان ريشارد لبيسوس وبروكش ودوميخن وإرمان وماير وزيته ، والفرنسيين مارييت وإيمانويل دى روجيه وشاباس وماسبيرو ، والإيطالي روزليني ، والأميركي برستيد ، والروسي جوليشيف . ويمكن أن تضيف إلى القائمة أسماء من أغلب البلاد الحية . لأن الأمم المتحضرة تفخر أن يسجل اسم ابن من أبنائها في لوحة الشرف لمن عملوا ويعملون على اكتشاف « أمنا الكبرى مصر » .

ومن بشائر النهضة المصرية — وهى عندى من أهمها وأعمقها معنى — أن تظهر أسماء مصرية . ما زالت قلة ، ولكنها تصل حاضرتنا بماضيها القريب جداً حين ظهر اسم الرائد الأثرى أحمد كمال ، وبماضيها البعيد جداً ، حتى عهود ما قبل الأسرات . فلنحفظ في قلوبنا ، ولنكرم بالستنا ، أسماء مصطفى عامر وسليم حسن وأحمد فخرى وبدوى (أحمد واسكندر) وجرجس متى وعباس بيومى وعبد المنعم أبى بكر ومكرم الله وأنور شكرى وإيبى حبشى وزكريا غنيم وزكى سعد وسامى جبرة وباهور لبيب وشارل بشاتلى وغيرهم . والتاريخ كفيل بأن يوسع لوحة الشرف المصرية هذه ، ويصحح أخطاءها ، ويغفر لى قصورى .

مرمودة بنى سلامة

إن من البيان لسحراً . وقد استطاع أساتذتى فى المدرسة الابتدائية أن يجمعوا فى جملة واحدة : تاريخ مصر الأسطورى . وتاريخ مصر فيما قبل التاريخ . وتاريخ الأسرات . قالوا : « أول ملوك مصر كان مينا أو مصرام ، وهو الذى حول مجرى النيل ، وروحد الوجه البحرى والوجه القبلى » . وهكذا عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أن مصر من مصرام — التاريخ الأسطورى — وأن النيل تحول عن مجراه — تاريخ ما قبل التاريخ — وأن مينا وحد الإقليمين — العصر التاريخى .

أما أن النيل غير مجراه ، فهى الحقيقة الجيولوجية . لا يأتيا الباطل من أى مكان تريد . وكان النيل قبل أن يستقر فى مجراه الحالى نهراً كبقية الأنهار . لا يحيا الناس بفيضانه . ولا يعمتون بتجاريقه . لأن شمال أفريقيا كله . والصحراء الكبرى ، كانت مناطق أمطار غزيرة . أشبه بالأحراج الاستوائية . ترتفع فيها الظباء . والزراف يأكل من أعلى الأشجار ، وحمر تبرطع ، وفيلة تهش بأذانها وتلوى بخراطيمها . وثيران ترعى الكلاً وتخور ، وتفترس هذه وتلك آساد وذئاب وضباع . وكان النيل يجرى هنا وهناك حسب التساهيل ، ويغضى جميع منخفضات الوادى . فكانت كل الفيوم ، ومناطق الواحات ، وبحيرات واسعة ، وكان العشب يغطى سطح الأرض ، وأشجار سامقة معرشة تلقى ظلالها الوارفة على العشب . والماء يفيض من الأرض ، وينهمر من السماء مدراراً . والإنسان القديم كان يعيش فى تلك الآجام لم يكن نحن ، بل كان مخلوقاً بدائياً يعرف بالإنسان النياندرتالى . ولم نأت نحن — « هوموسابينس » . الإنسان المدرك العارف — إلا فيما بعد . فى أواخر العصر الحجري القديم . أو ما يعرف بالعصر الحجري الأعلى .

ثم حل عهد الجفاف . فكفكت السموات مدرارها . وقلنا يا سماء غيضى . ويا أرض أقلعى . وهبط مستوى النيل ، ووقف جريان الماء فى الوديان . فتحوط أخاديد فى الصحراء ، ونقصت مساحات البحيرات ، واختفى أكثرها . وهبوط مستوى النيل ، أخذ يهدأ ويرزن ، ويعنى بحجر مجرى دائم فى أرض مصر الجيرية .

لا دخل في هذا لدينا ولا لمصرنا .

والناس الهمج . والأوايد آكلات اللحوم : والمواشي آكلات العشب . أخذت تتجمع حيث الماء والزرع . وعرف الإنسان الصيد القناص كيف يبق على بعض صيده حباً ، لأن القنص لم يعد سهلاً ميسراً كذى قبل : وكان هذا أول باعث له على التفكير باستئلاف الحيوان ، ولعله أدرك معنى هذا ، فيما يختص بالنبات . فانهى إلى محاكاة الطبيعة برى الأرض وبذر البذور . وأصبحت حياة السكان الأفريقيين الرحل الذين نزحوا إلى ضفاف النهر المهذب مرتبطة بحركة المياه في النهر . ارتفاعاً وهبوطاً .

وما أرجوه لك - إذا حرصت يوماً على مطالعة التاريخ المصرى على طوله - هو أن لا تكرر خطأى فتهمل ما أهمله التاريخ ، فسمى ما قبل التاريخ . على أن لا تهرق ذهناك بأرقام الآلاف ومئات الآلاف من السنين التى يذكرها أهل التخصص تقديرأ لبدء الإنسان على وجه الأرض . وليس مهماً أن تعرف - إذا كنت تجهل - أن الإنسان ظهر فى الحقبة الجيولوجية الرباعية .

ولا تحاول أن تتعرف على تاريخ ما قبل التاريخ فى المتاحف . كما حاولت أنا ، لأنك ستقف أمام حصباء متراصة . من الصوان أو الطران والشيست . وغير ذلك من أنواع الزلط . تراه مقلوطاً مشظباً . يقول لك العلماء بأنه أسلحة الإنسان الأول والإنسان الثانى : وستمر بأصناف من الأوانى لم تسوها يد الفخرانى على دولا ب ، مزينة برسوم هندسية ساذجة . وبرسوم بعض حيوانات تبدو وكأنها تبرطع فى الهواء بقوائم كخيوط غزل البنات .

أقول لا تحاول . لأن صناعة الإنسان فى بداية مغامراته العجيبة تحتاج إلى مران طويل . وحس تارينخى خاص . وخيال كريم . حتى يمكنك أن تطالع ما وراءها من معان . أو تشعر بما تحويه من فن .

وكلما رأيت أرقام السنين . مر عليها عاجلاً . فليس ثمة من يؤكد لك صحتها أو يخلف لك على دقتها : إن هى إلا ركيزات ، أشبه بعلامات الطريق . لا غنى عنها لأهل الاختصاص ، وهم يحاولون رسم التطور صورة إثر صورة . كما فى الفيلم السينماتوغرافى .

إنما يجدر بك أن تعرف أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب واديك ، لها أهميتها في تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه أسلاف أسلافنا منذ فجر الإنسان . وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة عليك ، ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها ، وبغير قليل من آثارها . ستسمع بحضارة البدارى وديمة وكوم أوشيم والفيوم ونقادة والعمرة وجرزة ووادى خوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة .

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن حضارة العمرة وجرزة ظهرت فيما بين منتصف الألف الخامسة حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .

حضارات حديثة العهد بالنسبة لما يعرف بالعصر الحجري القديم ، وهو سابق عليها ببضع مئات من آلاف السنين ، حضارات متأخرة حتى بالنسبة للمراحل الأخيرة من ذلك العصر الحجري القديم التى كانت ، منذ نحو مائة ألف سنة قبل الميلاد ، متأخرة بالنسبة للعصر الحجري الوسيط ، وكان فيما بين الألف العاشرة والألف الثامنة .

وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى ، من أول العصر الحجري الوسيط ، يتجه اتجاهًا حضاريًا مميزًا تختص به مصر ، لا يشبه فى شيء حضارة فلسطين أقرب جيرانه . فتطور الحضارة المصرية ، منذ العصر الحجري الوسيط ، استقل بوسائله نتيجة لعزلة مصر ، الجزيرة الخضراء ، أو الخط الطويل الزمردى وسط أقيانوس من الصحراء ، وبحرين من المياه الزرقاء ، وجبال إلى الشرق ، وهضاب إلى الغرب . وذلك بعد ما أصاب المنطقة من تغير فى مناخها ، وكانت من قبل متصلة بالشمال الإفريقى كله ، تشبه فى طبيعتها أعالي السودان كما هى حالا . انغزلت مصر عن جيرانها ، وإن بقى لها ، عن طريق النيل ، اتصال ببلاد النوبة وما فوق أرض النوبة .

وأحسبك تعرف أن الجنس المصرى ما يزال مصدر نقاش لا ينتهى ، وليس فيه عند العلماء قولان ، بل أربعة أقوال . فالمصريون جاءوا من الشمال والجنوب ، وجاءوا من الشرق والغرب ، وهم خليط سامى حامى قارى لىبى حبشى عربى ، يشاركون

في أصولهم شعوب جنوب البحر الأبيض ، وشعوب السودان والحبشة ، وشعوب غربي آسيا . ويتألف ، من كل تلك الأصول ، ذلك الجنس الواحد الباقي على صفحات الدهر حتى اليوم . وإذا كان أمر هذا الجنس المصري استعصى على العلماء ، فمنهم على الأقل يؤكدون لنا شيئاً أهم لدينا من كل تخطيطاتهم ، وهو أن المصري الذي انعزل في واديه الحصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار ، احتفظ بطابعه الإتنوغرافي ، غير مشوب في أغلبه ، إلى يومنا هذا . فإن بضع مئات من الشعوب التي اعتدت على مصر ، أو استقرت فيها وعاشت أهلها واختلطت بهم ، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء في بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة .

لعلك تعبت الآن من كل هذا السرد . لا عليك إلا أن تنسى أمره ، بشرط أن نعيرني انتباهك إلى ما يحدث فيما تلى ذلك من عصور ، وأولها العصر الحجري الحديث « النيوليتيكي » ، والعصر الذي يليه ويعرف باسم « الإنيوليتيكي » ، وآخره يعرف بعهد ما قبل الأسرات . لأن فهم هذين العصرين أساسى لإدراك نشأة الحضارة الفرعونية ، ولأسمها أن هناك رأياً يزعم بأن حضارة الأسرات لم تخرج عن كونها تفاعلاً وتطوراً نهائياً للنيوليتيكي ، لم يبلغه ناس آخرون في مكان آخر ، أو كما قال كورت لانجه : « مصر القديمة ، حتى نهاية حياتها الفرعونية ، ظلت بنت العصر الحجري . وبقاؤها في داخل هذه التخوم الحضارية مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . وإذا فهمنا ذلك وجدنا حلولاً لكل تلك الأحاجي التي تطرحها علينا مصر بلسان أبي هوها ، وهي الألغاز التي أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، بل ما فتئت تبعث على التأمل إلى يومنا هذا . »

كان مؤرخو الحضارات ، إلى عهد قريب ، يلوكون خرافة اسمها « معجزة الحضارة » ، فيحدثونك عن المعجزة الإغريقية ، وبالتالي عن المعجزة الفرعونية . ولكن العلم لا يميل إلى إدراج المعجزات ضمن عناصر تفكيره ؛ فلما انحاز المؤرخون إلى مذهب التطور ، لم يعودوا يصدقون أن يقفز المصري من مرحلة الأسلحة الظران ، والأواني الفخار من غير دولا ، وصنع السلال « البقوى » ، ودفن مواته في حفرة سطحية ، أن يقفز من هذه البداوة إلى حضارة الأسرات الأولى .

استقرت الحياة في وادي النيل محدودة محصورة فيما يحققه هذا الوادي من

ممكّنات . وكان النيل قد غطى مجاريه القديمة بطبقات من الطمي ، ولم يعد المصرى يكتفى بصيد أكله وقنصه ، والتبلى بما تنبت الأرض ؛ بل علم نفسه كيف يزرع ويقلع ، وكيف ينجى ويخزن ، واستألف من حيوان القنص ما استطاع أن يحافظ عليه حياً ، ليتغذى به عند الحاجة ، وما رأى فيه قوة على الشد والحمل ، أو معونة على الصيد والقنص فى طاعة وألفة . وحياة الاستقرار اقتضت بناء المساكن ؛ وإدخال الغذاء قصى بصنع السلال والأواني . واستعاض عن جلد الحيوان فى لباسه بما فضله عليه من ألياف النبات ينسج منها كساء وغطاء ؛ والاستقرار جعله يعنى بتنظيم معاشه ومعاش أسرته ، وزينة نفسه وأهله ، ثم التفكير بيوم يفارق فيه هذه الدنيا إلى عالم آخر .

كان العصر الحجري الحديث فى مصر سابقاً بزمان سحيق على حضارة العصر الحجري الحديث فى أوربا ؛ ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالباً فى وادى النيل الأدنى قبل أى مكان آخر . ولا يمكن الكشف عن أدوار هذا التطور ، لأنها اختفت تحت رواسب النيل ، إلا ما بقى منها عند أطراف الوادى ، وفوق الهضاب المشرفة على مجرى النيل

وأهم أثر لتلك الحقبة الحضارية ، كشف عنه يونكر إلى الشمال الغربى من القاهرة ، على بعد بضعة كيلومترات ، فيما يعرف اليوم باسم مرمدة بنى سلامة ؛ وكشف عنه أمين العمري عند رأس وادى خوف إلى الشمال من حلوان ، عند موضع مصب النيل فى البحر الأبيض المتوسط ، قبل أن تتكون الدلتا ؛ وكشف عنه آخرون فى ديرتاسا بالصعيد ، ووادى الشيخ قرب مغاغة ، وفى إقليم الفيوم والواحات الخارجة والبحرية .

مرمودة بنى سلامة توضح مسكن المصرى الأول وطريقة بنائه . وكيف حرص على تنظيم منزله على جانبي طريق مستقيم يخترق الحلة . والآلات المشطاة التى وجدت بالفيوم بديع صنعها ، تحرص متاحف العالم المختصة على اقتناء نماذج منها . ولا يعرف على وجه اليقين أية حضارة سبقت غيرها فى البقاع التى أشرنا إليها . وقد تكون حضارة العمري بوادى خوف أقدم من حضارة مرمدة بنى سلامة والفيوم . وإنما الغالب أن الوجه البحرى سابق فى حضارته على الوجه القبلى ، لأن حضارة

ديرثاسا و وادى الشيخ تعتبر خاتمة لمرحلة الحقبة النيوليتيكية وتقدم لحضارة العصر الإنيوليتيكي ، أى حضارة ما قبل الأسرات .

وكلما اقتربنا عبر آلاف السنين من عهد الأسرات تجلت آيات التطور . فالنحاس يظهر بعد نهاية العصر الحجري الحديث ، والقرى والمدن تنشأ على جانبي الوادى . ويبدأ اتصال مصر ببحيراتها . وأهم من كل هذا ظهور الحادث الجلل فى تاريخ البشر : وهو توصل الإنسان إلى رسم رموز يعبر بها عما يحول بخاطره ، أو ينطق به لسانه . وما يعنى به فى تلك الخطوات الحضارية الأولى ، هو أن يسجل ويرصد ويحصى ظواهر ذات خطر فى حياته الزراعية . وإذا حدثك المؤرخون عن أول تقويم عرفه العالم ، والغالب أن يكون التقويم المصرى ، فلا تحسبن أنه جاء نتيجة حساب فلسفى ورياضة عقلية – والمصرى لم تكن له عناية بالبحث العلمى البحت ، ولا بالتأملات الفلسفية لذاتها – إنما وضع التقويم بناء على ملاحظات للأفلاك والفصول وعلاقتها بالدورة الزراعية ، وصلة هذه بمواقيت الفيضان ، وهى على درجة عظيمة من الانتظام . وتلك ملاحظات لا بد أن تكون استمرت مئات السنين تسجل وترصد ، حتى اطمأن المصرى إلى إمكانه تحديد سنته بعدد من الأيام جمعها فى أشهر ، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وإذا السنة لا تنتظم مع حركة الفصول والأفلاك ، على حساب اثنى عشر شهراً ، وإلا جاءت سنة شبه قمرية ، يتقلقل فيها ميعاد البذر والرى والحصاد . لذلك كان المصرى فى تلك العصور السحيقة يضيف خمسة أيام – أيام النسيء – إلى سنته ذات الستين والثلاثمائة يوم . ولم يتعدل هذا التقويم ، ويصحح خطأ ربع اليوم ، إلا فى زمان يوليوس قيصر ، فيما يعرف بالتقويم اليولياني .

وظاهرة تختص بها حضارة مصر ، فيما قبل التاريخ وبعده ، وهى أن عصر النحاس يستمر طوال عهد الأسرات ، ويتأخر استعمال الحديد فى مصر ، ولا يستقر إلا حوالى العهد اليونانى . كما أن الآلات الحجرية تظل شائعة الاستعمال فى العصر التاريخى ، بينما يتحول عصر الحجر فى أوروبا إلى عصر النحاس ثم إلى عصر الحديد ، فى الحقب السابقة على التاريخ . ولعل هذا هو ما حدا بكورت لانجه إلى حسابان الحضارة الفرعونية منضوية كلها تحت العصر الحجري الحديث « النيوليتيكي » .

وحضارة ما قبل الأسرات تظهر لنا جلية في العمرى وفي جرزة ، وفي حلوان ووادى دجلة والمعادى وهليوبوليس ، وفي نقادة والسمانية والبدارى . ولقد نشأت أجمل الصناعات الحجرية بالبدارى في الآنية المصنوعة من البازالت ، وتتقدم هذه الصناعة في العمرة ؛ وتصنع الأواني من المرمر والبازالت في مرحلة جرزة .

ونظام العشائر واختيار كل عشيرة لشارة طوطمية ، أو شعار خاص ، يتقدم في نهاية عصر جرزة : ثم تندمج الإمارات المحلية — أى الكور — في مملكتى الشمال والجنوب : وعاصمة الشمال فى « بي » أو « بوطو » ، وبواقي أطلالها موجودة عند تل الفراعين ، إلى الشمال الشرقى من دسوق . وعاصمة الجنوب فى « نخن » — عند الكوم الأحمر — وهى التى عرفت فيما بعد باسم « هيرانكوبوليس » ، أى مدينة الصقر ، وكان الصقر معبودها . وعلى مقربة منها قامت مدينة « نخب » — عند الكاب الحالية — وكانت من أهم المواقع فى عصر ما قبل الأسرات .

أما موقع المعادى — واكتشافه يرجع الفضل فيه إلى مصطفى عامر ومنجى — فقد قاسى الكثير من الاشتباكات بين أهل الشمال والجنوب ، مما كان سبباً راجحاً فى أن يتخلى عنه سكانه .

ولكن بعد أن تم اتحاد الوجهين البحرى والقبلى ، اتجهت سياسة الوحدة إلى قرب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى قامت فيه وحوله عواصم مصر الكبرى : منف وبابلون والفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة .

وكان البداريون على صلة بالأقاليم المجاورة ، عن طريق الوادى الممتد من وادى النيل إلى شواطئ البحر الأحمر حيث معدن النحاس والأحجار الكريمة والأصداف . فقد اكتشفت بوايدى الحمامات — على هذا الطريق — آثار ترجع إلى مرحلتى البدارى والعمرة . أما الذهب فكان يجلب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سينا ، والقار من البحر الميت . والأبسديان واللازورد والفضة والسبذاج ، من غربى آسيا ومن الأرخبيل اليونانى .

وهناك دلائل على اتصال مصر بسورية فى تلك الأوانى من الفخار ذات المقابض المموجة — وهى خاصة بجرزة — وقد وجدت فى سورية ، وكان المظنون أنها وردت على مصر من سورية تحمل الزيت ، ولكن الكشف عنها ، فى مرحلة

المعادى السابقة على جرزة . قطع بأنها صناعة مصرية نشأت نشأة محلية .
أما ديانة هؤلاء الألى فقد استدل عليها المؤرخون من مصدر متأخر ، وهو
النصوص المنقوشة داخل هرم أوناس وما يجاوره من أهرامات الأسرة الخامسة ،
وتعرف بمتون الأهرام . فالثابت من لغتها . ومن طرائق التفكير فيها ، أنها ترتد إلى
زمان سابق على الأسرات ؛ فهي إذن تسجل العقائد القديمة والأساطير الإلهية لأولئك
الذين أسسوا حضارة البدارى ومرمدة بنى سلامة وجرزة والعمرى والمعادى . ويستخلص
منها أن المصريين ، فى عصر ما قبل الأسرات . عبدوا أوزيريس فى الدلتا . وعبدوا
هوروس - الصقر - فى الدلتا وفى الكوم الأحمر أى « نخن » بالصعيد .

على أن آثار جرزة . أو ما يعرف بحضارة نقادة الثانية . وقد كشفت لنا عن
قبور أهل العصر السابق على الأسرات مباشرة . تؤيد حرص المصريين منذ ذلك
الزمان الواغل فى القدم على امتداد الحياة الدنيا فى حياة الآخرة . فالمتوفى مسجى
على جانبه الأيسر فى الغالب . وفى وضع أشبه بوضع الجنين فى بطن أمه ، مغطى
بخصير أو نطع . ويغلب أن يكون اتجاه رأسه نحو الجنوب ؛ وفى يديه ، وهى
مقربة من وجهه . توجد لوحة من الشيسيت على شكل سمكة أو طائر . وعثر فى
تلك المقابر البدائية على قطع من العاج ، على شكل أمشاط وعلاقات وأسلحة وعقود
من حبات مكورة . وتمائم على هيئة ثور أو طائر أو حشرة . والأسلحة مصنوعة
إما من الظران أو من النحاس . كما وجدت الأواني وعليها رسوم تمثل سفناً تحمل
شعارات تدكرنا بشعارات « كور » الدلتا فى العصر التاريخى .

والمعنى الذى يمكن إدراكه من هذه الرسوم . هو أن التكوين السياسى لمصر ،
فيما قبل الأسرات . قام على أساس المراكز أو المديرىات الصغيرة التى يسميها
اليونان « نوميس » أى الكور . فالشعارات التى تمثل كل كورة ظلت قائمة خلال
التاريخ المصرى زمناً طويلاً . ولقد فسر العلماء تعدد آلهة المصريين . على أساس
أن شمل آلهة الكور قد التأم فى محاذاة التوحيد السياسى . ولم يتم ذلك فى بعض
الأحيان دون مشاحنات حادة . كما حدث ذلك بين عباد هوروس وعباد سيت .
ويبدو أن انتصار هوروس على سيت كان ماحقاً . فقد توطدت عبادة هوروس
فى كل الوجهين : شمالاً فى « بوطو » . وجنوباً فى « نخن » - هيرانكوبوليس -
عند الكوم الأحمر . وانتهى اضطهاد سيت وزحزحته إلى اعتباره إله الصحراء والمحل

والشر . ولم يكن كذلك عندما كان المعبود الأكبر في كورته .

ولعل ما انتهى إليه مؤرخو ما قبل التاريخ هو الأقرب إلى الصواب حين يزعمون أن حضارة مصر ، فيما قبل الأسرات ، قد تكونت ذاتياً في الدلتا ، واستعارت الكثير من مرمدة بنى سلامة . ثم انتقلت إلى الصعيد . وحملت معها إلهها الأكبر هوروس . ويستدلون على ذلك من نقوش حجر باليرمو . وعليه سجل مؤرخو الأسرة الخامسة قائمة الملوك . لا من أول مينا رأس الأسرة الأولى . بل من قبله . وقد وجدوا في قائمة الملوك . قبل مينا . ملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأحمر - أى بتاج الدلتا - وملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأبيض - تاج الصعيد - كما وجدوا بعضهم يحمل الـ « بشت » . وهو التاج المزدوج . رمزاً إلى توحيد الإقليمين . وفهموا من ذلك أن وحدة الإقليمين تمت قبل بدء التاريخ تحت زعامة الدلتا . ثم انفصم الاتحاد . ليعود في أول العصر التاريخي تحت زعامة ملوك الصعيد . وهذا الانحداد الثاني مسجل على اللوحة المشهورة باسم لوحة الملك « نعر - مر » - مينا ؟ - وهذه اللوحة تكمل صورة انتقال حضارة جرزة إلى حضارة الأسرة الأولى ، ومظهر هذا الانتقال نقوش على رءوس دبابيس القتال . وعلى اللوحات الأردوازية . ففي رأس دبوس منها ، نرى صورة ملك غير معروف الاسم . وإنما سماه المؤرخون الملك « العقرب » . لا بسماً تاج الوجه القبلي . ومحتفلاً بذكرى انتصاره على الوجه البحري .

فهل يمكن قبول الاستنتاج الأخير كحقيقة واقعة . وهى أن حضارة جرزة تمثل آخر مرحلة حضارية لعهد ما قبل الأسرات . وأن فجر الحضارة التاريخية انبثق من هناك ؟

إن القول الفصل في هذا تحققة حضارة المعادى . وهى التى أثبتت أن حضارة جرزة جاءت من الدلتا . وبذلك ينتهى عهد المعجزات في تاريخ الحضارات . ويكون الأثريون والمؤرخون قد وفقوا إلى تتبع الحضارة المصرية من بواكيرها في آخر العصر الجيولوجي الرابعى . خلال العصور الحجرية القديمة والحديثة . والعصر « الإنيوليتيكي » . حتى عصر الأسرات الأولى .

ويصعب على كاتب هذه السطور أن يقاوم إحساس الاعتزاز والفخر بأن بعض الفضل في وصل هذه الحلقات يعود إلى مصرى صميم . هو مصطفى عامر . أول من سجل اسماً مصرياً في قائمة المشتغلين بحضارات ما قبل التاريخ .

أنوبيس يرقص

الست المندورة ما يزال يذكرها عجائز الروضة والمنيل ومصر العتيقة وفم الخليج ، لأنها كانت تقيم حتى العشرينات عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة . شاحنة على أشجار أم الشعور [البانان] التي ما زالت تقف كالآثار القديمة على ضفة النيل عند كوبرى الملك الصالح . ولم تكن مثلهن « أم شعور » . بل كانت جميزة معمرة . وربما كانت شجرة لبخ . فقد رأيها طفلاً غريباً . وكانت هلاهيل المرضى وأضراسهم وخصلات من شعورهم معلقة بفروعها . أو بمسامير دقت في جذعها . وهى التى كانت تلفت نظرى أكثر من أوراقها . وسأسأل خولى قصر المناسيرلى عنها إذا ما التقيت به .

المندورة شجرة كان الناس يتبركون بها . ويقصدونها فى الحاجات . فهى من بواقي خرافات العهود البائدة . مثل رتبة الباشوية . وسيدى المتولى ساكن باب زويلة . والست المزيرة وبغلة العشر . ولو اندفعنا فى طريق الأنثروبولوجيين لما ترددنا فى القول بأنها من بقايا عبادة أوزيريس الذى استقر داخل شجرة فى ببلوس . نبتت حوله وفرعت وأورقت على ساحل فينيقيا القديمة عند جبيل . وقد علمت من سكان طرف الروضة الجنوبي . بعد غياي الطويل عن مصر . أن شجرة المندورة قطعت ، ويؤكد بعض من حضر قطعها أنه سمع أنيناً ينبعث من داخلها والمنشار يحز فى جذعها ، وأن سائلا نزع منها ، قد يكون عصارتها . ولو أن محدثي يعتقد أنه من شئ آخر . ويزعم من شاهدوا المولد الكبير بالأقصر بأن حمل سفينة على عربة . وفوقها أعلام

أبى الحجاج الأقصرى فى الاحتفال بمولده . يشبه أن يكون من بقايا طقوس آمون رع ، والسير بسفينته المقدسة فى أعياده الكبرى . ويظن آخرون بأن عادة تاقين الأموات . فيها ما يوحى بنصوص كتاب الموتى وتقاليد الدفن فى مصر القديمة ، إلى آخر ما نقرأ عنه فى كتاب مس بلا كمان الممتع . وفى رسالة تقدم بها أحد مواطنينا - الدكتور غلاب - إلى السوربون .

وكان أهلنا يخذروننا من المرة السوداء فى الليل ، إذ يغلب أن يكون بعض

« إخواننا » تقمصها ، كما كانوا ، إذا رأوا واحدة من هوام الليل تحوم حولنا في ليالي الجمعة ، يلقون في روعنا أنها روح ميت من أهلنا . وقد ارتفعت من أعماق ذكرياتي هذه الخرافات عندما رأيت صورة « با » ، في شكل طائر أو حشرة ، تقف فوق تابوت ميت من القدماء ، أو تطير في بئر السرداب ، وعندما عرفت أن الهرة « بسطيظ » كانت إلهة بوباسطيس .

واليوم وأنا أتمشى على شاطئ البحر ، في نزهتي الطويلة مع طلوع الشمس ، تذكرت فجأة أنني رأيت في طفولتي الإله « أنوبيس » يرقص . ولم أكن في ذلك الزمن البعيد أعرف أنه « أنوبيس » ، ولا كان الملاعب الإسكندراني الذي يحرك دميته فرقص يعني بذلك تقديم صورة لأنوبيس . ولكنني لم أكن أفهم لماذا اختار الرجل حيواناً مخطئاً يشبه الكلب الكبير ، قيل لي إنه « ديبة بو » ، ومعنى هذا في لغتنا الحديثة أنه جلد ابن آوى حشى بالتبن والقش . وأوقف الرجل « ديبته » في إطار يشبه مشايات الأطفال ، وألبسها ملابس الغوازي بشرائط القصب ، وركب في وسطها لولباً يحركه بذراع خشبي أو بذراعين ، فيتخلع خصر دميته ويتكسر على إيقاع غنائه وهو يقول « يا بيلي با . . . يا رقاصة » . فإذا كانت « بيلي با » راقصة ، فلماذا اختار لها الرجل جلد ثعلب محشو؟ أما كان الأفضل أن يصنع عروساً ولو من قماش؟

أسائل الآن نفسي : أيعني الرجل عرض صورة من صور المساهر التي يلبسها الإفرنج في أعياد المرافع قبل الصرم الكبير ؟ أو أنه يقصد جماعات السائحين ليتفرجوا على « أنوبيس » يرقص ؟ ولكن ذكرى هذا الملاعب وأنوبيسه تكاد تمحي تماماً ، ولن أستطيع اليوم أن أعرف شيئاً عن تلك الدمية العجيبة أكثر مما ذكرت . ومن غير المعقول أن يكون الملاعب عارفاً بأمر « التماثيل المتكلمة » ، وبرأس أنوبيس في متحف اللوفر التي كان الكهنة يحركون فكها الأسفل بشد خيط مخفي في قاع حلقها ، ردّاً على « استخارات » الطالبين .

ولم يبق إلا أن أضحك في نفسي وأنا أردد : لقد رأيت أنوبيس ، حامل الميزان في قاعة العدالة بمحكمة أوزيريس ، يرقص رقصة البطن في حوارى القاهرة ! وابن آوى لم يكن سوى واحد من عديد الحيوانات التي اتخذها المصريون

أرباباً . فقد عبد أجدادنا الهر والأسد والضل والسقنقور والتمساح وسمك اللقش [اللاتس] والباشق والعقاب وأبا منجل والعجل والبقر والكبش والجعل ؛ واستطاع فهم العجيب أن يوائم بين هذه الحيوانات وبين الجسم الإنسانى . فقد ترى آلهتهم فى شكل إنسان كامل ، أو حيوان كامل ، أو برأس إنسان وجسم حيوان ، أو برأس حيوان وجسم إنسان . ويحار الأثريون فى تفسير هذه العبادات الطوطمية التى استمرت حتى نهاية الأسرات ، بل وأصبحت المظهر البارز لديانة المصريين أيام البطالسة والحكم الرومانى والبيزنطى . وكانت موضوع سخرية يوفينال فى قصيدته المشهورة ، التى يقص فيها قصة مشاحنة قامت بين أهل دندرة وأهل كوم امبو ، ذكرتنى بما كان يحدث فى الهند البريطانية بين المسلمين والهندوس ، كالما عن للمسامين أن يذبحوا بقرة ، وهى أقدس الحيوانات عند الهندوس . والفننة التى تندر بها يوفينال نشبت حول تمساح أكله سكان إحدى المدينتين ، مع أنه معبود المدينة الأخرى . تعددت آلهة المصريين ، وتشعبت تفسيرات الأثريين والمؤرخين ، وراح هؤلاء وأولئك يضربون فى كل واد . ولك أن تفهم من كلامهم ما فهموا هم ، أو ما تريد أن تفهم أنت . ما أهمية ذلك ؟ فالمصرى عبد ، كما تعبد الشعوب فى بداوتها ، مظاهر الطبيعة حوله : الشمس والسماء والأرض والماء والزرع .

ولكنه قدس أيضاً آلهة محلية تختلف فى كل كورة عن غيرها ؛ وقد تكون هذه مجرد رموز وشعارات للقومية المحلية . فالمصرى لا يحب وطنه الكبير وحده ، بل يحرص على وطنه الصغير ، إقليمه فعاصمة إقليمه ، ثم قريته . والآلهة العظام كانت هى أيضاً شعارات سياسية وأجداداً للملوك وأنصاراً ، ومصدر رزق واسع للكهان ، يحكمون باسمها على الملك والوزراء والموظفين والشعب ، بعد ما انتقاد الملك لهم ، وكان ذلك إبان الدولة الحديثة .

لا قيمة تذكر لتلك الآلهة إلا فيما أقيم لها من معابد وهياكل ، ورسم لها من صور ، ونحت لها من تماثيل . ولقد كشفت لنا ثورة أمينوفيس الرابع « أخن - آتون » عن الأعياب السياسية التى تستر وراء الآلهة العظام . وكان أخناتون ثائراً غريباً ، يمكن أن نعتبره أبا الثوار فى التاريخ ، ندر أن نعرف له فى التاريخ مثيلاً . فالثورة تقوم ضد الحاكم وضد الحكم ، يقوم بها واحد من الشعب ، أو من العظماء

يقود الشعب . أما ثورة أخناتون ، فكانت ثورة ملك على كهنته وشعبه ، وخروج ملك عن طاعة آلهته العظام . هنرى الثامن لم ينتقض على ربه ، بل ثار على شاغل الكرسي الرسولى فى روما ، وربما لأسباب عائلية ، ومسائل زواج وطلاق . والإمبراطور يوليانوس ارتد عن المسيحية التى اعتنقها أسلافه ، وعاد إلى الوثنية . والحقيقة أن يوليانوس لم يرتد ، بل أعدته تربيته الهلينية لينشأ وثنيًا . أما أخناتون فقد خرج على عبادة آمون الكبير ، ذلك الإله الغول ، الذى حاول ابتلاع آلهة المصريين كلهم ، فجاء الشاب أمينوفيس يتحداه ، كما تحدى داود غالوت ، ويعود إلى عبادة الشمس فى مظهرها الواحد الخالق ، وفى صورتها المادية « آتون » ، أى قرص الشمس . ولو كان أخناتون من الرجال العمليين لصدقت أن ثورته سياسية ، ولكن طبيعة الشاب توحى بحركة روحية انبعثت من خلجات نفسه ، وربما من الجو الذى تربى فيه — وقد يشبه فى هذا الإمبراطور يوليانوس المارق — ومن أثر الدم الأسوى يجرى فى عروقه . ولقد احتدى الملك الشاعر إلى أقدم آلهة المصريين دون منازع ، فأفرد له عبادة قلبية ، ثم عبادة رسمية حين هجر طيبة إلى الشمال ، لينشئ عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارة حالا .

وإذا كادت تلك الثورة أن تكلف مصر إمبراطوريتها ، فقد أهدت التاريخ المصرى فناً ثورياً أصيلاً يتوخى الصدق ، وأدباً رومانتيكياً تحس فيه بنفحات الإخلاص والأمانة تهب على الناس ، وإن كان فى كل من الفن والأدب عرق من المرض الملازم لكل رومانتيكية ، وهو المرض الذى تطالع آثاره على سماء أخناتون وتكوين جسمه : ذلك الوجه المستطيل ، والشفة السفلى الغليظة المرتخية ، والخصر النحيل والبطن الثقيل . ولو لم يكن أخناتون صاحب ثورة هائلة ، ولولم يجدد فى الحياة المصرية ، لاستحق أن ينعت ، من صوره ، بنوع من انحلال الشخصية ، يعرف فى اللغات الحديثة بالـ fin de siècle .

ولم يكن آتون خلقاً ذاتياً خرج من لا شيء ex nihilo ، أو من رأس أمينوفيس الرابع . بل كان إلهاً شمسياً ، أو صورة من صور الشمس الإلهة ، فإن كلمة آتون نكرة تعنى « قرص الشمس » . ويبدو أن محاولات فاشلة جرت أيام أمينوفيس الثالث لتخليص رع من شركة آمون — رع ، وأفردت للشمس عبادة

خاصة ، حتى قبل أن يشرك أمينوفيس الثالث ابنه أخناتون في الحكم حوالى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . ونستطيع أن نعرّ على سوابق لتلك المحاولات ، ولكن الفضل الأكبر لوضعها موضع التنفيذ الجدى ، يعود إلى الملك الثائر أخناتون . فهو لم يكتف بالصفات الأصلية للشمس التى عرفتها مدرسة « إيون » - هليوبوليس - وإنما انتهى الرجل إلى مقاومة كل ما يتصل بطقوس الديانة المصرية المعروفة فى زمانه . ونكاد نجزم بأن عبادة الشمس فى مظهرها الجديد كانت أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد . فالمعبد الكبير بعاصمة أخناتون لم يكن يحتوى على تمثال يعبد ، وإنما على صورة لقرص الشمس رمز الحياة . وكان للديانة الجديدة مظهر شخصى عجيب . فهى ديانة يبشر بها رجلها الأوحى ، الملك أخناتون ، ويرسم لها طقوسها ؛ ولم تكن كالوثنيات القديمة مجهولة المؤلف . فالملك فيها هو صاحب الديانة ، وهو كاهن الإله ، وقد قارب فى ذلك مركز الملك فى الدولة القديمة ، عندما كان هور وس نفسه . ثم ابن رع كاهنه الأكبر . وقبل أن تتحول مهنة الكهانة إلى التخصص الذى عرفته بعد نهاية الدولة القديمة ، والذى ستعرفه بعد ردة توت - عنخ- آمون ، وينتهى أمرها إلى سيطرة الكاهن الأكبر على الدولة ، ثم تولى الكاهن هريهور الملك ، فى بدء الأسرة الأولى بعد العشرين .

وإذا كان المؤرخون يتشككون فى أن يكون أخناتون هو مؤلف الاغن الجميل والصلاة الرائعة الموجهة إلى آتون ، فهذا من حقهم ما لم يثبت ذلك بالدليل والبيئة . ولكنى كلما تأملت صور ذلك الشاب المريض وأعضاء أسرته ، كنت أقرب إلى التصديق بأنه لم يكن رسول ديانته ولا كاهنها الأول فحسب ، بل كان شاعرها المفلت ، ومؤلف ألحانها . وإذا كانت الفنون المصرية قد تخلّصت من ربة التقليد فى عصر من عصورها ، فبفضل ذلك الملك الشاعر الفنان ، الذى أضفى شخصيته على عاصمته وفن عاصمته . فلم يعد التعبير الفنى فى زمانه مجرد الاحتفاظ بالقواعد والأصول ، بل انطلق شخصياً بلحمه ودمه ، فردياً فى كل مظهره .

والملك ، رسول الرب ، يتلقى عنه الوحي دون وسيط من جن وإنس : « أنت فى قلبى ، لا يفهمك غيرى ، لا يدركك غير ولدك أنا » . فذلك الملك ، ضعيف البنية غير السليم عقلياً كما يبدو من صوره وتمثيله ، أصبح شعلة من الشعور بذلك

الإله الحديد أو المتجدد ، ولنقل إنه تحول شعاعة من تلك الأشعة التي يرسلها آتون إليه ، في صورة أذرع ممدودة ، وأيد منبسطة .

لم يعد الإله يصور لعبيده في صورة منحولة من حيوان أو إنسان ، إنما هو قرص الشمس . وأشعة الشمس تبسط أيديها المتعددة نحو الأرض . نفي بالخير . وتتقبل العبادة والقرايين . وتختص رسولها على الأرض بعلامة الأزل : عنخ .

ولم يعد الإله يقبع في ظلام قدس الأقداس ، داخل ناووسه . مثل آمون « الخفي — المتخفي » . بل هو إله يعبد في وضوح النهار . لا سقف يغطيه . ولا جدران تحبسه ، يبدو للعيان وسط باحة المعبد الكبير في تل العمارنة . ثم هو إله واحد ، لا شريك له ، ولا زوج ولا ولد . خالق نفسه كل يوم ، والخليقة كلها تشارك ربها في أفراحه الخلاقة .

إنما أعجب ما في هذه الديانة ، هو حرص صاحبها على إلهة من الباشيون القديم ، لم تكن إلهة عظيمة إلا بمعناها الخلق . لقد احتفظ أختاتون بإلهة الحق والعدالة والصبوب : معات ، بنت رع . والمحبوبة من رع . وهى إلهة صاحبت المصريين على طول تاريخهم ، تهديهم إلى فعل الخير . وأداء الواجب . وإقامة شرعة العدالة .

وبعد أن نبذ الملك أمينوفيس اسمه — ومعناه « آمون الراضى » — وتسمى باسم جديد هو « عبد قرص الشمس » . أخن — آتون . وتغيرت أسماء أهل بيته وكبار رجال دولته ، واستتب الأمر لمدينته الجديدة في تل العمارنة « آخت — آتون » ، أى أفق الشمس — وهجرت المعابد القديمة في طيبة ، وطورد كهنتها وسدنتها ، وأوصدت أبوابها بعد أن محيت أسماء آمون وحطمت أصنامهم ، أقامت المرجعية رأسها مرة أخرى . لأسباب سياسية . وتحت ضغط المصالح التي أضربت ، ولم تترك كلها صوالح الكهنة ، بل لحق الضرر بالمصالح العليا للدولة . لأن الملك — النبي . والملك — الشاعر ، لم يكن يعنى بشئون الإمبراطورية الكبرى التي أسسها كبير الأسرة الثامنة عشرة . وأرشيف الدولة ، الذى عثر عليه كاملا في تل العمارنة . شاهد على إهماله حتى الإجابة على رسائل مندوبيه السامين في الإيالات الآسيوية . ولقد شعر الآسيويون بالحبال أرخيت لهم ، فشرعوا في الانتفاض على الحكم المصرى .

فلم يكن من بد أن ينهار نظام أخناتون كله ، ديانة وحضارة وعاصمة : بعد موته مباشرة . وقد تولى العرش بعده أزواج بناته ، ومنهم ذلك الشاب اليافع المترف الضعيف ، ألعوبة البلاط والكهنة ، الذى غير اسمه إلى توت - عنخ - آمون . وكان الكهنة بحاجة إلى قوة تسند الملك ، وقوة عسكرية قبل كل شئ ، فتدخلوا وآزروا رجل السياسة والحرب ، « هور محب » ، لارتقاء العرش . وأذن هذا بقرب انتهاء أعظم أسرات مصر القديمة ، وبدء آخر الأسرات الكبرى فى التاريخ الفرعونى ، وهى الأسرة التاسعة عشرة ، يتزعمها ويؤثل مجدها سبى الأول وكبار الرعامسة . وخلف أولئك كان الكهنة يعملون ويؤيدون . وستظل الكلمة العليا لهم حتى سقوط الحكم الفرعونى تحت أقدام الغزاة الأجانب .

إنما الإله الذى سيطر على عقول المصريين ، ونفذ إلى قلوبهم لأطول زمن ممكن ، الإله الشعبى الذى حكم على عالم الأحياء والأموات . وأقام ميزان العدالة فوق الأرض وتحت الأرض ، الإله الذى عرفته الشعوب التى اتصلت بمصر ، وانتهت بالتغلب على مصر . الإغريق والرومان . الإله الذى أفرد له بلوتارك دراسة ممتعة فى القرن الأول للميلاد ، كان أوزيريس .

أوزيريس كان إله الخير ، فى مواجهة أخيه « سيت » إله الشر ، كان إله الوادى الخصيب ، ضد إله المحل والصحراء . أوزيريس وزوجته - أخته إيزيس نظما شئون البلاد كلها . هى تكفلت بأمور البيت والأسرة ، وعينت بعلوم الطب والسحر ، وهو المنظم لطقوس العبادة ، الواضع أسس السلوك والأخلاق . ولئن ظل السابقون عليه أربابا فى علاهم ، فقد كان أوزيريس أول إله ينزل إلى الأرض ، ويتحمل عذاب البشر ، ويمجى عليه الموت ، ثم ينشر حيًّا ، ويرفع إلى السماء ليلحق بالآلهة فى عالم الخلود . وحق له ، بعد تجربة الحياة والموت ، أن يتولى الحكم فى العالم الآخر حتى آخر عهد الوثنية المصرية ، أى حتى القرن الخامس الميلادى . وأهمية أوزيريس وأسرته الصغيرة تبدو لنا فى ضوء التاريخ الوثنى ، وما جاء بعده ، لأن الثالوث المصرى القديم : أوزيريس - إيزيس - هوروس ، كان له أكبر الأثر فى تحول المصريين إلى الثالوث المسيحى .

وإن حب العالم القديم لإيزيس ، الزوجة العاقلة الأمينة ، وانتشار عبادتها فى

أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وتحول عبادة أوزيريس ، وأبيس المؤله ، إلى عبادة مصرية يونانية في عهد البطالسة ، تركزت حول الإله سيرابيس (- أوزير - أبيس) ، لظاهرة جديدة بالاعتبار ، لما كان لها من أثر في تطور الديانات القديمة ، وتدخل في العبادة الرومانية مهد الطريق لتسرب المسيحية وانتشارها في العالم القديم . قيل إن أوزيريس كان ابن إله الأرض « جب » ، وإله السماء « نوط » ، وإن حياته وموته ونشوره ، رمز أبدى للطبيعة المتجددة : موات الأرض وعودتها إلى الحياة . أوزيريس إله زراعى ، ينحضر عوده وينمو ويورق ويثمر ، ثم يجنى ويحصد ، وتذر أشلائه في الأرض ، لتعود الحياة إلى الأرض نبتاً جديداً .

وأوزيريس إله الماء أيضاً ، تلك القوة الخلاقة . والماء في مصر هو « حابي » رمز النيل الذى يفيض ويغيض ، يرمز ثديه الواحد إلى الفيضان والخير ، ونصف صدره المفلطح إلى الجفاف والتحاريق . ولا يبعد أن يكون « حابي » هذا مجرد رمز مصور للنيل ، وأن يكون معبود المصريين الثانى ، بعد الشمس ، هو أوزيريس ، الإله - الماء . فالآلهات الدينية تتجه إلى أوزيريس بقولها : « النيل ينبع من عرق أبياديك . . . أنت النيل ، والآلهة والناس إنما يحيون بفضل جريانك » .

وفى أخريات التاريخ الفرعونى ، كان الغرق يكتبون فى الشهداء . أتعرف أن هذه الفكرة ما تزال حية بين أفراد الشعب المصرى إلى اليوم ؟

والأسطورة تجعل من أوزيريس أول ملك لمصر الموحدة ، أيام كان يتولى الأرباب عرش مصر . وصراعه مع أخيه « سيت » . صورة من جهاد مصر فى سبيل الوحدة . وكانت بوزيريس عاصمة أوزيريس فى الدلتا . وربما كان أوزيريس حقاً أول ملك من البشر رفعه المصريون إلى مرتبة الآلهة . فالملوك من أول التاريخ المصرى ، وقبل أن يكونوا أبناء رع ، كانوا كلهم هوروسات ، وكان العمود « جد » يقف منتصباً فى جميع الأعياد الثلاثينية الملكية ، كشعار لقيام أوزيريس من بين الموتى . وكان أوزيريس يمثل حاملاً كافة الشعارات الملكية : التاج المزدوج - البشت - والصولجان والسوط ذى اللسانين .

وأوزيريس كان إله العالم الآخر ، لأن الطقوس التى أجريت على أشلائه جمعتهما إيزيس من شرق الأرض وغربها ، هى التى أعادته بقوة السحر إلى الحياة

الأبدية . فالتناس يحرسون أن تجرى على بقاياهم الزائلة طقوس مماثلة ، حتى ينعموا بالحياة المقيمة في مملكة أوزيريس .

أوزيريس إذن هو إله الزرع والضرع والنيل والخلود ، بل هو أكثر من هذا : إنه إله الأسرة الفاضلة مجتمعة ، إنه الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن أخته وزوجته إيزيس ، ومن ابنه هوروس ، هو وهم مثال العائلة المماسكة المناضلة . أى أن أوزيريس اجتمعت فيه صفات الأنوذية ، مادية وروحية . إله نافع في الحياة وفي الممات . إله خلق أيضاً : فقصة صراعه مع أخيه ، رب الحيل « والمقالب » سيت ، وإخلاص إيزيس لذكراه ، وتجوالها في العالم القديم تجمع بقاياها ، ثم إعادته إلى الحياة ، كل هذه القصة الإنسانية العظيمة كانت عناصر نجاحه على طول التاريخ المصرى العتيق ، بل وخارج مصر في عبادة إيزيس وسيرابيس .

انتهت الديانة المصرية إلى أوزيريس ، وقد بدئت من قديم بالشمس في مدينة « إيون » . والشمس منذ الأسر الأولى كان خالق كل شيء ، وخالق نفسه ، عندما خرج من ماء الحياة ، نون ، باسم آتوم . خلق نفسه ، وسمى هاراختي ، وسمى هوروس ، وغير ذلك من الأسماء . وهو « آتون » قرص الشمس ، وهو الجعل يدحرج كرة الخلق الدائم ، وهو الصقر يحلق في السماء . بيد أن اسمه الأكبر ، الذى اشتهر وذاع في طول البلاد وعرضها ، الاسم الذى انتسبت إليه الملوك ، منذ اعترف له ملوك الأسرة الرابعة والخامسة بالسبق ، كان « رع » .

ولكن أى شيء كان قبل « رع » هذا ، وكيف تصور أجدادنا أصل الخليفة ؟ قيل كان العالم ماء وظلاماً ، أو كان فيضاناً وطوفاناً ، وكما أن النيل ، إذا عاد إلى مجراه وانحسر عن الأراضي العالية ، ترك وراءه هضاباً مغطاة بالطين ، هى مصدر الحياة ، فإن طوفان العالم بدأ يغيض ، وظهرت على سطحه أعلى الأرض كالجزر . وفوق جزيرة منها وقف مخلوق نفسه ، « آتوم » . وحيداً ، وشرع في الخليفة ، فخرج الآلهة والمخلوقات من نطفته . استمتناها بنفسه في رواية ، أو أنه أخذ يتلفظ باسم كل عضو من أعضاء جسده ، وإذا الكلمات تتجسد آلهة وبشراً وكل المخلوقات .

ولكن كهنة منف ، وقد أصبحت عاصمة الوجهين ، أرادوا لإلههم الأكبر

« فتاح » أن يحتل الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق آتوم نفسه . وقد تحابلوا على ذلك بقولهم إن « آتوم بأصغريه ، قلبه ولسانه ، وفتاح هو هذا القلب واللسان » . والقلب ، في لغة المصريين ، يعنى العقل . فإذا كان آتوم بغير العقل واللسان ؟ إذن ففتاح — الفتاح — هو خالق آتوم ، وخالق الآلهة ، وخالق الكل ؛ تدبر بعقله ، ثم نطق بلسانه ، فكانت الخليقة : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » ، كما جاء في مطلع الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وفي نص مصرى قديم يقول كهنة منف :

« إنه الفؤاد يختلج بالفكر ، واللسان ينطق بما يحتاج به الفؤاد . وهكذا خالق الآلهة جميعاً . . . والحق أن الكون الشامل خرج من صميم القلب عندما نطق اللسان بكل ما في الكون . ونزل معه قسطاس العدل يشيب الحسن ويعاقب المسيء . . وهكذا خلق العمل والحرف والصناعات ، كما نظمت حركة الأذرع ، وحركات السيقان ، وكل ما تنبض به حياة الإنسان ، انصباعاً لما اختلج به القلب ، وتحرك به اللسان ؛ فتاح مبدع الكون ومسوى الآلهة » .

* * *

وكان لمصر الوسطى ، بمنطقة الأشمونين ، إله اسمه « توت » ، اندمجت فيه آلهة كور عدة : آلهة على شكل حيات وصداف وقردة وآباء منجل . وعزوا إليه كل ما ينشئه العقل وتنطق به الحكمة ، كالكتابة والحساب والعلوم والسحر . وكان يمثل ، في الغالب ، الطائر « إيبس » أبو منجل ، أو إنسان له رأس ذلك الطائر . ويظهر أن توت هو الذى تقمص بشراً فيما بعد ، وعرف في عالم السحر باسم هروس ترمييجسطس . أى مثلث الحكمة .

ومحاولات مصر الوسطى ، وكهنتها ، لم تكن لتستطيع أن ترتقى بإلهها توت الحكيم إلى أكثر من درجة رئيس ديوان أوزيريس في العالم الآخر ، لأنه لم يكن من السهل التغلب على سيد أبيدوس العظيم .

وخرج من بلاط توت إله قمى إمعة ، لم يكن يتصور أحد أن يرتفع في البانثيون المصرى إلى أعلى عليين . ولكن أراد له طالع أن تختاره قرية حقيرة ، اسمها طيبة . ربّاً لها ؛ ثم علا شأنها حين انتقل إليها الحكم منذ مطالع الدولة الوسطى . حتى عهد الإمبراطورية الحديثة . وكان اسم هذا الإله « آمون » ،

ومعناه الخفى أو المختفى . مستودع الأسرار . خرج آمون الخفى من بلاط توت الحكيم ،
ليعيش مجهلاً أول الأمر فى زاوية من زوايا طيبة ، حتى أخذ بيده الملك آمون - إم -
حعت ، وترجمة اسمه « آمون أولا » ، ورفعته إلى المرتبة العليا فى عاصمة الأسرة الثانية
عشرة . التى أسسها ذلك البناء العظيم .

وثبتت أقدام آمون منذ ذلك الحين إلماً للحملوك وأتباعهم من الطبقات الحاكمة .
ينتسب إليه ملوك الدولتين الوسطى والحديثة ، فكان الفرعون ابن آمون روحياً وجثمانياً ،
كما تمثلته نقوش معبد الأقصر ، أباً فعلياً لأمينوفيس الثالث ، وكما تصوره أسرار
ولادة حتشبسوت من صلبه ، عاشقاً لأمها أحموزى الحساء .

لم يكن من الصعب على كهنة آمون أن يستولوا على الإله الشمسى القديم ،
ويربطوه قسراً بعجلة إلهم الحديث ، فيصبح إله طيبة الكبير ، بل رب العالم
القديم ، هو آمون - رع . وهو الإله الذى يعم الإسكندر شطر معبده بواحة
سيوة ، على اعتبار أنه معبد زفس . أو جوبتر - آمون ، يسأله عن سر مولده ،
فإذا آمون يشير فى لغة كهنته إلى صلات وثيقة كانت بينه وبين أم الإسكندر ،
أوليمباس زوجة فيليب . فى بلاد مقدونيا . وقد يفسر هذا الادعاء الصورة المشهورة
للإسكندر وقد نبت له قرنا الكيش آمون . ولو أن الأول بالقرنين كان ، دون شك ،
الملك فيليب المقدونى .

وقصارى القول إن الإله الرسمى الكبير الذى تحكم فى أقدار الملوك منذ الأسرة
الثانية عشرة . كان آمون - رع . والإله الشعبى الذى استولى على أفئدة المصريين
منذ أقدم العصور . كان أوزيريس . أو الثالوث الأوزيريسى : أوزيريس -
إيزيس - هوروس .

وكانت أطول الآلة حياة هى إيزيس ؛ فحينما أصدر الإمبراطور المسيحى
ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥ م) مرسومه يحظر إجراء الطقوس الوثنية فى أية جهة من
جهات الإمبراطورية . توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علناً ، وانهاى بطريك
الإسكندرية تاوفيلوس على معبد سرايبس الأعظم بالإسكندرية يهدمه . وينكس
الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما استطاع من المعابد المصرية فى طول البلاد وعرضها .
وتفرق الكهنة المصريون فى الأرض ، وقد هجروا ما بقى من معابدهم تنعى من بناها ،

إلا في جزيرة فيليه بأسوان ؛ وفي هذا يقول ماسبيرو :

« عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظاهرة الاضطهاد نفسه الذي ذاقته المسيحية على أيدي الوثنية ، إلا معبد إيزيس بجزيرة فيليه ، الذي تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . ومرد ذلك إلى تمسك الإثيوبيين بهذه الإلهة ، وتمسك جميع الشعوب القاطنة بأعلى النيل ، المتخلفة عن مملكة مروي . فعندما استولى البليميون [أسلاف البجاويين والبنشارين والعبادة ومن إليهم] على النوبة ، في منتصف القرن الثالث الميلادي ، خضعوا لسحر إيزيس فعبدها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها في جزيرة فيليه ، على الرغم من مرسوم ثيودوسيوس القاضي بإقفال المعابد . ولم يكن مسيحيو فيليه ، بتشجيع من مطارنة أسوان ، ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد إيزيس ، لولا خوفهم من بطش البليميين . لذلك بقي تمثال إيزيس مرفوع الرأس في مواجهة المسيح الظافر . وعندما قضى النوبيون على البليميين في حكم بوسستيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥ م) تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، أخيراً ، من أن ينكس صنم الإلهة ، ويدك مذبحها ، ثم يحول معبدها إلى كنيسة .

« ونستطيع أن نتخيل في هذا القرن الأخير للوثنية المصرية [القرن السادس] ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعايتهم إلى النصرانية ، ولم يبق حافظاً للديانة العتيقة سوى بعض بواق الأسر الكهنوتية العريقة . يمكن تصور هؤلاء الكهنة قابعين في حرم معبدهم ، خلف أبواب موصدة ، يتوقعون في كل آونة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة . ولكنهم عرفوا بعض فترات من الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسول لملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببر الجزيرة في احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرايين . وكان الكهنة حينئذ يرفلون في أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تماثيل الإلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعها ، ويقفون في جوسق نكتانبيوس الملك ، في انتظار حجاجهم البليميين . ويتقدم أولئك في موكب حافل وخشوع عظيم . كان منظرًا يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت إيزيس حقاً سيدة العالم » .

الفلاح القصيح

يتعلل العلماء، تفسيراً لمزال الأدب المصرى ، بأن أجدادنا كانوا أكثر عناية بالنصوص الدينية؛ وهنا أيضاً تنحرف نظرهم العامة تحت تأثير حضارة لم يبق من وجهها الدنيوى إلا القليل ، بالنسبة لما احتفظت به المعابد والقبور . ولكن الاطلاع على القليل من الأدب المصرى الدنيوى ، وهو الذى احتواه كتاب إرمان ، يقنعنا بضياح أكثر ذلك الأدب ضياحاً ربما كان نهائياً .

وهناك نظرية أدبية مقبولة فى بعض الدوائر تقول بأن أدب المواعظ والحكم والشعر الوجدانى ، فى أسفار التوراة – والتوراة هى تاريخ بنى إسرائيل ، أخبارهم وآدابهم وفلسفتهم – متأثر بالأدب المصرى ، ويظهر ذلك بشكل محسوس فى شعر المزامير ومراثى إرميا ، وسفر أيوب ، ونشيد الإنشاد .

ولا أصدق أن يبلغ الكاتب – الاسكريب – مكانته الاجتماعية فى مصر لمجرد أنه كان باشكاتب ديوان الفرعون ، أو ناظر شفاللك أمراء الكور . بل كان فناً كزملائه الرسام والجفار والنحات ، وكان مفكراً اجتماعياً ، وحافظاً لثراث الآباء والأجداد ، من علم ومعرفة .

ومن آثار الدولة الحديثة صفحة يصور فيها مؤلفها مشاق حياة الزارع والصانع وغيرهما ويشيد بمقام الكاتب :

« لا تكن مزارعاً ، وجانب صنعة الجندية ، واحذر مهنة الكاهن ، فليس فى كل هذه المهن ما يعدل صناعة الإنشاء » .

وجاء فى كتاب المدعو « أخطوى » إلى ابنه « پيى » : « لا شىء يفوق الكتب ، وليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لولدتك ، وأن أنبه فيك الإحساس بجمالها » .

وفى بردية من مجموعة تشستر بيتى المشهورة ، تعاليم للشباب عن مقام أساتذة الماضى ، وما يجب أن تحفظه لهم الأجيال الطالعة :

« أما عن أولئك الكتاب الأعلام ، فإن اسمهم منقوش على صفحات الأزل ،

مع أنهم ذهبوا مع الذاهين ، وعفت ذكرى معاصريهم . إنهم لم يشيدوا أهرامات ، ولا أقاموا لوحات لذكراهم . ولم يخلفوا عقبا يتغنى بأسمائهم . إنما هي كتبهم ، وما أودعوها من حكمة أورثوها لنا . تتحدث عنهم بمقدار ما لهذه الكتب من معنى وقيمة . وتخلد ذكراهم إلى أبد الأبدين . . . والكتاب أبقي من قصر مشيد . أو معبد جنائزى فى أرض آمنى ، أو شاهد من الصوان فى معبد .

« فهل نجد بين ظهرانينا كاتباً مثل هارديديف ؟ أو عبقرية كالمحوتب ؟ من نضع الآن فى صف بنووفرى وأخطوى ؟ أو نقارنه بفتاح - حوتب أو بقائيروس ؟ أو بفتاح - أم - جيوفى . وحاجب - إراسونب ؟ » .

وكلمة أخطوى لابنه يپى : « ليتنى كنت قادراً أن أحب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك » . لا نبليغ عمق معناها إلا أن نطالع فى نصائح الوزير فتاح - حوتب هذا الكلام الذى كتبه فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد : « ضاعف جناية أمك . تحملها كما حملتك . ولاقت فيك المشقة والنصب . حملتك أشراً فى بطنها ، ثم ولدتك . فلم ينته عذابها . بل أرضعتك ثلاث سنين ، وكفلتك وأدخلتك المدرسة . لتتعلم الكتابة . وانتظرتك كل يوم بباب المدرسة . تحمل إليك الطعام والشراب . فعندما تشب عن الطوق . وتتخذ لنفسك زوجاً ، ثم تصبح رب أسرة بدورك ، اذكر أمك التى حملتك وكفلتك ! وكل ما أتمناه لك ، أن لا تنحى عليك أمك باللائمة . وأن لا تدعو عليك دعوة يستجيب لها سبحانه وتعالى » .

ومن الثابت أن كانت للمصريين مكتبات تحتوى على الكثير من المراجع ، وتحملها إلهة نرى صورتها على جدران معبد سهورا ، من ملوك الأسرة الخامسة ، هى « سيشات » . ربة التاريخ . التى تسجل حوليات الدواة ، شريكة توت فى حماية فن الكتابة والعلوم الرياضية ، سيدة « بيت الحياة » أى معاهد العلم ، وهى التى تنقش الاسم الرسمى للملك فى هليوبوليس . على أوراق شجرة المنهى .

ويسأل الملك زوسر . رأس الأسرة الثالثة . مستشاره إمحوتب الحكيم ، عن منابع النيل . وعن الإله الموكل بها . فلا يجيبه أعلم علماء العصر القديم قبل أن يراجع مكتبته .

والملك نفر - حوتب ، من الأسرة الثالثة عشرة ، يعنى ما أصاب الفن في زمانه ، ويقول : « ألا كم أحب أن أرى الكتب القديمة التى تتحدث عن الإله آتوم » ، فيشير عليه رجال حاشيته بأن يدخل إلى بيت الكتب ليطلع الكلام المقدس : « وفتح جلالته لفافات البردى ، وحوله رجال بلاطه . . . ثم قال : نحن الملك ، نعلن إرادتنا فى أن يصور أوزيريس مع التاسوع كما نراه فى هذه الكتب » .

أما أن المصرى قصاص بالفطرة ، فأمر هذا قد لا يحتاج إلى دليل ، وقد عرفنا ، أبناء الخضر منا وأبناء الريف ، مكانة القصص فى حياة الأسرة والمجتمع ، وقدرة أهلنا على الحكاية المرتبة المشوقة . وأنا واحد من الناس أعتقد بأن كتاب « ألف ليلة وليلة » أدب مصرى فى الكثير من قصصه ، وقد عنيت يوماً بالقصص البحرى فى العربية ، وبقصة السندباد بخاصة ، فوجدت لغة هذه القصص ، وعقلية المتحدثين فيها ، وسماتها ، مصرية بلدية . أما مصادرها فقد تحدثت عنها طويلا فى كتابى « حديث السندباد القديم » ، وأرجعت ما يكاد يكون كل ما فيها من وقائع إلى كتب الرحلات والعجائب والكوزموغرافيا العربية .

أين إذن القصص المصرية فى العصور القديمة ؟ فيما عدا قصة الرحالة ، أو النوى الذى توغل فى البحر الأحمر وانكسرت سفينته ، وألقى به الموج إلى جزيرة فى جنوبى البحر ، رأى فيها الزوبعة البحرية المسماة « نافورة الماء » ، والتى تعرف عند العرب بالتنين ، لاعتقادهم أنها حيوان بحرى ضخيم ؛ التقى فيها بطل القصة المصرية القديمة بهذا التنين يجاذبه أطراف الحديث . وفيما عدا قصة « سنهوى » ، وقصة « أونامون » ، وقصة « خوفو والسحرة » ، وقصة الأخوين ؟ أين أصول القصص التى سمعها هيرودوتس ، وسردها علينا فى صور مشوهة ، غير مقبولة عقلا ، فى كتابه عن مصر ؟

ولقد اخترت لك من الأدب المصرى كله ، وهو قليل ، صفحة واحدة من روح كتابى هذا . فإن كان كتابى - كما أردت له - صفحات مختارة من ملحمة الشعب المصرى ، فقد حرصت على أن يتضمن قصة « شكايه الفلاح » ، كما يسميها أدولف إرمان ، أو قصة « القروى الفصيح » ، كما يسميها بروتيد ، لأنها

تمثل عندى قصة فلاحي مصر على مدى الأجيال والآباد .
ولنأما أحب قبل ذلك أن أشير إلى حادثة بسيطة جداً وردت في قصة « خوفو
والسحرة » ، أترك للقارئ أن يستشف منها ما يراه ، وأرجو أن يوافق رأيه ،
ما رأيته فيها :

« ومثل ديدى الساحر بحضرة الملك خوفو ، فقال جلالته : يا ديدى ، كيف
لم أروجهك من قبل ؟ . أجاب ديدى : إنما نتوجه إلى من يدعونا ، وقد دعانى الملك
فلبّيت . قال جلالته : أصحيح ما يقولون من أنك قدير على أن تلتصق رأساً فصل
عن الجسد ؟ . أجاب ديدى : أى نعم ، يا مولاي الملك ، في مقدورى ذلك .
قال جلالته : على بسجين ننفذ فيه العقوبة تَوّاً . فاستدرك ديدى وهو يقول :
حاشا يا مولاي ! أنا لا أجرب سحرى فى الإنسان . أليس الأخلق بنا أن نجرب
مثل هذا العمل فى العجماءات ؟ وأحضروا له إوزة يجرى عليها سحره » .

* * *

فلنقص عليك الآن قصة الفلاح الشاكي الفصيح . حدثت وقائعها إبان الدولة
الوسطى ، عندما كانت عاصمة البلاد فى هرقلوبوليس ، فيما بين لشت ودهشور
بمصر الوسطى ، وفى عهد ملك اسمه نب - كاو - رع ، يظن أنه حكم قرب نهاية
الألف الثالثة قبل الميلاد . ويبدو أن بطل القصة كان من أهل وادى النطرون ،
يتوجه إلى العاصمة ومعه حميره محملة بالنطرون ، يبادل به غلالا .

« كان يا ما كان ، رجل اسمه خنوم - آنوب ، وهو قروى من وادى الملح ،
له زوجة اسمها مريا..... واتجه القروى جنوباً إلى هرقلوبوليس ،
واتفق له أن التى برجل واقف على قارعة الطريق اسمه توتى - نخت بن أزيرو ،
من رجال رينسى بن ميرو ، رئيس ديوان الملك » .

ما إن رأى توتى حمير القروى حتى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها . فجاء إلى
مستدق فى طريق القروى « لا يزيد عن عرض مئزر » ، يحده من يمينه غيط شعير ،
ومن يساره مجرى ماء . ففرش عليه ثوباً من قماش ، سد به الطريق ، فيما بين غيط
الشعير وشاطئ الرعة ، جراً للشكل . ورأى القروى الطريق مسدوداً ، مع أنه ،
كما يقول ، « طريق ملك للجميع » ، أى طريق عام ، فجانبه حرصاً على القماش

المفروش . ودفع بحميره إلى ناحية الحقل ، ليمر من طرفه ، فقبض أحدها قضة شعير ، فكانت الفرصة التي يغتنمها توتى - ناخت . صاحب الحقل ، قال : « سأخذ حمرك هذا ، لأنه برعى شعيرى ! »

« قال القروى : إننى أسير فى طريقى ، وأنت الذى اعترضته ، فحملتنى على الانحراف إلى طرف حقلك ، فهل تأخذ حمارى لأنه قبض قضة شعير من شعيرك ؟ اسمع أما أجول لك : إننى أعرف صاحب هذه الأبعادية ، إنه رينسى ابن ميرو ، رئيس ديوان الملك ، وهو الذى يطارد كل نص فى البلاد ، فهل أسرق فى أملاكه ؟ »

« توتى : أنا الذى أتكلم . فما الداعى لذكر السيد رينسى ؟ »
« وشوَّح توتى بهراوته ، تم انهال بها على الفلاح ضرباً ، وساق حميره كلها إلى دار العزبة . وأخذ الفلاح يصيح مستغيثاً . فقال له توتى :

« لا ترفع صوتك هكذا يا ولد ، وإلا شيعتك إلى عالم رب الصمت [أى أوزيريس ، وكأنه يقول له : اخرس يا وله ، لاحسن أطلع روحك !] . »
« الفلاح : تضربنى . وتستولى على مالى ، ثم تريدنى أن أسكت ؟ يا إله الصمت ، أستجير بك أن تعيد إلى مالى ! »

لبث القروى عشرة أيام بباب توتى ، يستعطفه فلا يلتقى منه إلا عنتاً وإعراضاً ، فيذهب المسكين إلى العاصمة ، يرفع شكواه إلى السيد رينسى . وهذا يحيله على موظفيه ، فلا يلاقى منهم سوى إهمال أمره . والميل إلى الغرض ، تحيزاً لزميلهم ، ناظر الضيعة . ويعودون إلى الرئيس ليقولوا له : « إنما القروى مدين لابن أزيرى ، فلم يصنع هذا أكثر من استرداد حقه عنده . وعلى أية حال . هل يعاقب توتى - ناخت على قليل من النظرون . وشوية ملح ؟ فليرد عليه قليل ملح ونظرونه إذا ما لزم الأمر . » ويتغافلون قصداً عن الحمير التى استولى عليها . وهى مصدر رزق القروى .

يقول برستيد : « يستمع القروى إلى هذا الحكم الجائر ، بينما يجلس رئيس ديوان الملك سارحاً صامتاً . إنها لصورة تجمع فى بساطتها قروناً وأجيالا من التاريخ الاجتماعى للشرق : فى ناحية : شرذمة من الدعاة المداهنين . رجال رينسى . ويمثلون

فئة الموظفين ، وفي مواجهتهم الفلاح المغبون ، يمثل صيحة أجيال المحرومين يطالبون بالعدالة الاجتماعية .

ولم يثن الفلاح حكم الموظفين . ولا سطوة المحسوية . عن أن يعيد بث شكواه إلى رئيسى فى بلاغة وفصاحة . لا يجد بعدها رئيس الديوان مندوحة عن الذهاب إلى وى النعم . نب - كاو - رع . ليقول له : « لقد وقعت يا مولاي بقروى ذرب اللسان . فياض البيان . وقد استولى واحد من رجالى على أموال له » . فيأمر الملك بأن يستمع رئيس ديوانه إلى الشاكى . دون أن يظهر استجابة إلى شكواه : حتى يفرغ ما فى جعبته . على أن تدون أقواله فى محضر . وبأن يرسل الرئيس إلى أهله وأطفاله رزقاً . وأن يوصى حاكم الإقليم بهم خيراً .

وهنا تنهى تلك المقدمة التى أراد بها كاتبها أن تكون إطاراً لتسعة أحاديث . يضمها حكمه على العهد ، ونقده للرجال المسئولين ، وهى صفحات كانت تدرس للأولاد كمحفوظات . وتلى عليهم كإملاء . وينقشونها فى ألواحهم تحسناً لحطهم : « جعلت يا سيدى أباً لليتامى ، وعائلاً للأيتامى ، وأخاً للمحرومين . اسمك على رأس شرعة العدل . ونفسك عالية تكبح جماح الظالم ، وتقيم ميزان الحق . أنصت إلى شكواى . واستجب إلى دعائى . ليعود الحق إلى نصابه . أغثنى وارفع عني ما ألم بي من جور .

« يا سيدى الرئيس . أنت الصالح المؤمن . البار بأرزاق الناس . كأنك النيل تخضر به الحقول . ويحيا به موات الأرض . فى حماك يأمن الناس غائلة المعتدين . ولا يمنع السائل عن بابك . لا تستخف بأمرى . ففى رقبتك شكاية الضعفاء . أزل بالمسئء عقابك ، حتى لا يختل ميزان العدالة فى يدك ، فهبط كفة ذنوبك يوم الحساب . « واجبك أن تصغى إلى الشاكى ، وتفصل بين المحتكمين إليك . وظيفتك حمايتى من المعتدى ، لا أن تقف إلى جانبه . أقم من نفسك للفقير سداً يحميه من الفيضان . ولا تكن كالسيل الذى يجرفه .

« يا سيدى الرئيس ، أزح عنا الجور . وامنحنا عدالتك . هبنا من لدنك الخير ، تقطع دابر الشر . كن طعاماً للجوعان ، ورياً للظمآن ، ولباساً للعريان ، ودفاً لمن عضه القرّ بنابه .

« لقد علمك أهلك ، وأحسنوا تربيتك ، لا لتسرق ، ولا لتساعد السارق ، لا لتميل مع المعتدى ، فتكون على رأس المعتدين . حذار أن تصبح البستاني الضال ، فتروى أرضك بالظلم ، وينبت زرعك البهتان ، ويروج الشر في سوقك . »
 « أنت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وهوذا يتدفق من فى أثنين وشكوى . »

« أنت مغيب الملهوف ، وموقف النائم ، وملهج لسان الصامت . ليس من شيمك أن تحكم مغاليلك قلبك ، وأن تضع أصابعك فى أذنك حتى لا تسمع إلى من يتهم رجالك الذين أقمتهم لإنصاف الناس ، فكانوا عوناً على من لا خلاق لهم . »
 « أنصفنى بحق العدالة ، وربّة الحق ، يا حامل الطرس والقلم ، كأنك توت الحكيم . فالحق بالحق أولى ، و « معات » إلهة الحق والعدل قائمة إلى يوم الدين ، تؤازر المنصف ، ومن عمل صالحاً ، وهو يوارى التراب مسجى فى ناووسه ولحدده ، وتخلد اسمه لأنه رفع شرعة العدالة ، وأصاخ إلى كلماتها إليه : « لا تنبس شفتاك بغير كلمة الحق ، ولا تقدم يدك إلا الصالحات ، فالحق عظيم ، قوى ، سرمدى ، وثوابه معك حيث تكون . »

« أما الخديعة فلا تورث إلا الندامة ، وريحها الحبيث يدفع بسفينة صاحبها إلى حيث لا مرفأ . ومن نكث عهد العدالة ، فقد الصاحب والولد ، وكانت سوداً أيامه . »

« إيه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فلا تسمع ؟ لم يبق لى إلا أن أستجير منك بأنوبيس فى العالم الآخر . »

* * *

ومع أن نهاية هذه البردية الجميلة ، التى يحتفظ بها متحف برلين ، مشوهة غير واضحة الكتابة ، فإننا نتصور أن الوزير رينسي ، وقد سجل شكوى الفلاح ، حمل المحضر إلى ولى النعم . فوجد فيه « ما تطيب له نفسه ، ويفرح به قلبه . »
 ويتبين ، مما تمكن قراءته ، أن الملك أمر بفحص حالة الفلاح الفصيح ؛ ثم ترد بضع كلمات غير واضحة ، نرجو أن تكون سجلت قرار الملك بإعادة الحق إلى نصابه ، والأخذ من الظالم للمظلوم .

وقفه الحائر

اللهم قد بلغت الذرى ، وتسمنت قنوات المجد ، وكان طريق الطويل فى الليل
المدهم وعراً عسيراً ، يدمى القلب والقدم . بدأت فى جحيم التاريخ المصرى ، ظلامه
وحميمه ، جوعه وزقومه ، جوره ومظالمه ، زبانيته الغرباء يعتدون على وطنى ، وأهل
وطنى يعتدى بعضهم على بعض .

أقف أملاً رثى من هواء الأعالى المخلخل ، وأرجع البصر حائراً . . . متردداً . . وأنا
من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف عام ، هى التى جعلت اسم بلادى على
كل لسان ، منذ قدماء الإغريق إلى اليوم . الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم
المتمدن ، قديمه وجديده ، هى التى نزلت بى إلى الخضيض عندما اشتبه العالم فى
أنتى غير جدير بأجدادى الأولين ، بل تشكك فى شرعية مولدى ، عندما عرفنى
أقل الناس علماً بمجدى الغابر ، وأشدهم إنكاراً لأرومتى .

لست مستحقاً رفعاً ولا خفضاً ، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب ،
وصدق الناس أخيراً أن المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه . لا تحكم لى أو على ، لأن
ماضى البعيد كان مجداً مؤثلاً ، وماضى القريب كان ذلة وهواناً . أنظرنى حتى
تبين حاضرى ، وستعرف أن حرفاً واحداً لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى ، والمسيحى
والإسلامى . فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه ، تالده وطريقه ، كراكيبه
وتحفه الغالية ، عظيمه وحقيقه .

فى قلبى الفسيح مكان لكل أسلافى ، عاقلهم وأحمقهم ، غنيهم وفقيرهم .
« بهو الأجداد » فى بيتى لا يعنى بأسماء يتردد صداها فى رحاب التاريخ وقاعاته ،
بقدر ما يعنى بالجهوليين المغمورين منهم ، ذلك الجبار المصرى الذى رى وراءه
ستين قرناً من الزمان ، مكلل الجبين بكل ذلك المجد ، مثقل الكاهل بكل ذلك
العذاب والقهر .

أقف فوق قمة الجبل الشامخ الأشم ، لأملأ رثى من هذا الهواء المخلخل ،
يعتربنى دوار ، وينعقد لسانى ويتعطل بيانى ، فما هو هذا التاريخ المصرى الذى

طال السرى بحثاً عنه ، وطلع الفجر علينا ، فإذا به مائل أمامى من أوله ؟

* * *

عندما سأل هيرودوتس الكهنة المصريين عن عدد الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد مينا ، أجابوه بأنهم ثلاثون وثلاثمائة ، وادعى أنهم فتحوا له بهواً عظيماً ، اصطفقت فيه تماثيل أولئك الملوك الثلاثمائة والثلاثين .

ويقول ديودورس الصقلى بأن المصريين يعتبرونه مقياساً على حكمهم ، وسلامة شرائعهم ، أن يتولى الحكم فيهم قافلة من الملوك تتوالى على مدى سبعمائة وأربعة آلاف عام ، وكان جلهم من أهل البلاد .

وكان سولون يردد قول الكهنة المصريين له : أنتم يا علماء اليونان أبناء يومكم فيما تعرفون ، ويضيف أحمد كمال فى ترجمته المسجعة : ليس فيكم كهول فى الفضل ولا شيوخ ، ولا من له فى المعارف قدم ثابت ولا رسوخ .

* * *

التوغل فى العتاقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى . ومن المشكوك فيه جداً أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية .

ويتراوح التقدير الحديث لتاريخ مصر بين ما يعرف بالتقدير الطويل . وهو ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وبين التقدير القصير وهو مئتان وثلاثة آلاف عام . وهذا يتناول تاريخ الأسرات وحدها ، أما ما قبل الأسرات فتاريخ يمتد إلى آلاف مؤلفة لا نعرف لها عدداً ولا حصراً .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : هل توصل العلماء إلى الكشف عن تاريخ مصر كله ؟ والإجابة عن هذا نفي بات ، فما أبعدنا اليوم عن معرفة هذا التاريخ كاملاً . ولا يظن أن نبلغ منه يوماً مبلغ ما اجتمع للأوربيين عن تاريخهم اليونانى والرومانى .

وأما الآن كتاب أحمد كمال ، المؤلف منذ نحو ثمانين عاماً ، وكتاب جاستون ماسبيرو من أواخر القرن الماضى ، وكتاب أحمد فخرى الصادر عام ١٩٥٦ ، ثم الطبعة الأخيرة من كتاب دريوتون وفاندييه ، المنشورة سنة ١٩٥٢ ، وتحتوى على تصويبات ومناقشات تحاول وضع الأمور فى نصابها ، حتى تاريخ تأليف الكتاب ، أو إعادة طبعه .

لا أتصور أن أدعى بأن هذه الأعوام لم تضيف شيئاً ، بل أضافت الكثير مما يشهد للأثرين والمؤرخين من كل الشعوب بالثأيرة ، والكدر العظم . ولكن الصفة المميزة للتاريخ المصرى القديم ، سواء طالعه فى كتابى ماسبرو وأحمد كمال أو فى طبقات كتاب برستيد ، أو فى أحدث الكتب ، هى إشعارك بأنك تطالع مجلداً قديماً أكلت القرصة صفحاته ، واخترقت الكثير من كلماته ، بالإضافة إلى ما تشعث وتفرك من أوراقه ، فضاعت فيها فصول بأكلها .

ثم أين الأدب المصرى فى أربعة آلاف عام ؟ أهذا هو كله ، بعصوره الثلاثة ، يجمعه كتاب متوسط الحجم وضعه أدولف إرمان ؟ حقاً إن الأدب بكيفية لا يكفه ، ولكن ما بقى لنا من الأدب الفرعونى لا يشتمل على صفحات تراعى من جمالها كما يروعك هوميروس ، أو قصائد الرنجداد . إنما هو أدب فيه فن ، وشعر صادق الرنين ، مصرى إلى نخاعه ، كما أحس به وأنا أطلعه فى ترجمات باهتة ، دون أن أستطيع تفسير هذه المصرية القح لشخص أجنى .

وما هى تلك الآثار الباقية بالنسبة لما ضاع ودال واختفى ؟ أربعمائة أو خمسمائة قبر اكتشفت فى وادى طيبة وسفوح تلالها ، هى كل رصيد ألقى عام على الأقل من تاريخ الأسرات ؟

بل ما هى تلك المعابد المهتمة ، والأصنام المشوهة ، التى أخرجها العلماء من وسط القمامة والرمال والتراب ، والعشش . وما هى تلك الأهرامات والمصاطب ، والقبور المحفورة فى بطن تلال بنى حسن والبرشة وأسيوط ، وما عددها بالنسبة لما كان موجوداً فى أخريات التاريخ القديم ؟ هل يمكن أن نتصور مصر القديمة كاملة بمبانيها وأهلها ، وحكوماتها المحلية والمركزية ، ونظمها القضائية والإدارية ، وإكليرومها وجيشها وبوليسها ومهندسيها وأطبائها ؟

وما أضحك له كثيراً سعة خيال زوار الكرنك ، أعظم الآثار القديمة فى العالم أجمع دون شك . ولست أنوى الانتفاص مما يبعثه فى النفس من أثر عميق جداً ، ساحق ، يكاد يصرع كل حساس بالفن ، مدرك لمعنى التاريخ . ولكن أين هو معبد الكرنك ؟ وأين الصروح العشرة التى يحدونك عنها ، ويثبتون موضعها فى رسوماتهم القطاعية ؟ إننى لم أعرف للمعبد المصرى رأساً من ذنب ، إلا قليلاً بعد زيارة معبد الأقصر ، وكثيراً جداً بعد رؤية معبد سبتى بأبيدوس ، أمثلة لجمال

العمارة بمعناه الكامل ، وعندما تشاهد معابد دندرة ، وإسنا ، وإدفو ، ترى أبنية أقيمت في عهود متأخرة ، تحمل في كيانها جرثومة التدهور الفني ، ولكنها احتفظت على الأقل بوضعها وشكلها ، فلا تطالب مخيلتك بأكثر من تصور الألوان ، وإضافة بعض السجف هنا وهناك ، ورفع الأعلام ، واستحضار حياة ذلك العالم القديم الذى احتفظ بالكثير من تقاليده ، وطقوسه ، ومثله الفنية والفكرية ، حتى انهارت تحت معاول الهدم ، وسفت عليه رمال الحداث ، وعوادي الزمان .

يجب أن ندرك ذلك وغيره لفهم صعوبة الإحاطة بالتاريخ المصرى ، وربما استحالتها ؛ ولا أظن أننا واصلون إلى كتابة هذا التاريخ القديم بطريقة متصلة متناسقة . ومن أحسن الكتب حقاً ، فى هذا الصدد ، كتاب جيمس هنرى بروتيد ، لأن الرجل ، مع استناده الطيب إلى النصوص التى نشرها فى أربعة مجلدات كبيرة ، وإلى غيرها ، لا يفتأ يحدثك حديث الحكاية ، عن ذلك التاريخ ، ويسحرك بأسلوب عفا الآن أمره ، هو أسلوب أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ذلك الأسلوب الأزهر الأنيق . ولكي تعرف ما يضطر إليه ذلك المؤرخ العلامة من التخيل والفروض فى كتابه ، أضرب لك مثلاً اخترته عفواً ، مما كنت أطلعه ليلة أمس ، فى أول الفصل الثامن ، عن « تدهور الشمال ، وارتفاع نجم طيبة » : « وتحول الكفاح الداخلى ، الذى أطاح بالدولة القديمة ، إلى نوبة من الصراع ، كانت فيها يد الدمار هى العليا . أما متى ، وعلى أيدي من نزل ذلك الخراب ، فليس فى مقدورنا حتى الآن أن نعرفه . بيد أن المدافن الفخمة ، التى أنشأها أعظم ملوك الدولة القديمة ، خرت تحت معاول الهدم ، حتى لم يبق للكثير منها أثر يدل عليها . والمعابد لم تنهب فحسب ، بل إن ذخائرها الفنية ، كتماثيل الملوك من الصوان ، وحجر الديوريت ، كانت تدك دكا ، وتتطاير شظاياها شذر مذر ، وتلقى فى بئر ببوابة طريق الأهرام . . . »

أو

« وكان النصر حليف أمينمحت فى تلك المشاحنات ، ولكنه واجه موقفاً ممعناً فى الصعوبة . ففى كل مكان وقف النبلاء المحليون ، حكام الكور الذين شاهدنا ارتقاءهم فى الدولة القديمة ، موقف أمراء مستقلين بإقطاعاتهم ، وكأنهم ملوكها .

وكانوا يتأملون قائمة أجدادهم القدامى ، وقد انتهوا إلى جيل آبائهم ، أولئك الذين قضى سلطانهم على الدولة القديمة . فيعملون على ترميم مدافن مؤسسى أسراتهم » .

* * *

وفى أول الفصل التاسع : « وكان طبيعياً أن يسكن ملوك الأسرة الحادية عشرة في طيبة حيث عاش مؤسسو الأسرة أيام الحرب الطويلة للتغلب على أهل الشمال . ولكن أمينمحت لم يكن في إمكانه السير على هذا التقليد . ويسهل تصور الأسباب التى حدثت به إلى تقدير ضرورة انتقاله شمالاً حتى يحتفظ بمقامه بين حكام الشمال ، ممن لم ينفكوا عن الميل إلى البيت المالك فى هرقلوبوليس . هذا إلى أن جميع ملوك مصر — فيما عدا الأسرة الحادية عشرة ، التى أزاحها أمينمحت — منذ انتهاء دولة طيبة [طينيس] ، أى منذ ألف عام استقروا هناك . فاختار موضعاً قريباً من النهر ، لبضع أميال إلى الجنوب من منف . وهو موضع لم نوفق بعد إلى تحديده ، والغالب أنه كان قريباً من الموقع المعروف الآن باسم لشت ، حيث اكتشفت أنقاض هرم يحمل اسم أمينمحت . . . وكانت الأمة مؤلفة من مجموعة دويلات ، أو إمارات صغيرة يدين رؤساؤها بالإخلاص للفرعون ، ولكنهم لا يعتبرون موظفين عنده ، أو خداماً له . كان بعضهم من « اللوردات » الكبار ، أى حكام الكور ، والبعض الآخر كانوا مجرد « كونتات » يحكمون على أبعادية ، يتوسطها مركز العزبة الحصين . كانت دولة إقطاعية ، لا تختلف كثيراً عما عرفته أوربا فى عصورها الوسطى ، تلك هى الدولة التى ساس أمينمحت أمورها . . . »

* * *

ستجد الكثير من هذا فى كتاب برستيد ، وغيره ، وسأنقل إليك فى فصل تال صفحة طويلة من كتاب « موريه » عن « النيل والحضارة المصرية » ، تعرف منها وسيلة مؤرخى مصر القديمة فى إنشاء تاريخ يقرأ . فالمؤرخ إما أن يلزم حدود النصوص ، فلا يخرج عن مجرد آلة تسجيل وترجم ، وإما أن يعمل بعقله وقرينته وأسلوبه ، فيستنتج ويعلل ويحلل . ولو لم يفعل ذلك لظل تاريخ مصر « أرشيفاً » ميتاً . وأصدق ما طالعت فى هذا الصدد قول ولسون فى مقدمة كتابه عن الحضارة المصرية الذى نشره فى طبعته الأولى تحت عنوان « عبء مصر » ، قال :

« والكتاب التاريخى بمعناه يحاول الاحتفاظ بأكبر قسط من الطريقة العلمية ،

والتزام الموضوعية ، ويكون الكتاب مرجعاً للملاحظات التي سجلت وروجعت ، في أحقاب التاريخ المختلفة . وهذه الملاحظات يجب أن تعرض بحيث يمكن التحقق منها ، وتحليلها واختبارها بواسطة الآخرين . أما تفسير المشاهدات والوقائع ، أى محاولات المؤرخ أن يضفى عليها رواء التسلسل ، ويجعل لها قيمة ، فيجب أن يحدد ويوضح ، حتى لا يأخذ القارئ به إذا أراد أن يستنتج بنفسه من واقع الحقائق المعروضة . والطريقة المثالية لعرض التاريخ المصرى هى فى تقديم مكتبة تحتوى على الكتب التى تعالج مصر القديمة ، وإلى جانبها المصادر ، والمجلدات والدراسات المختصة ، التى تؤدى إلى تاريخ الحضارة . أى أن تعرض للقارئ : مجلدات تشتمل على ترجمات لجميع أنواع النصوص والمتون المصرية ، يضاف إليها الخديد أولاً بأول ، وأن ترفق هذه الترجمات بتعليق كاف يقنع القارئ بقيمتها كترجمة ؛ ومجلدات تصف وتحلل البقايا المادية للحضارة المصرية ، ومن ضمنها الأعمال الفنية ، مع صور واضحة لها ، ومع تحديد تواريخها ، حتى تمكن للقارئ من الحكم عليها كمستندات ؛ ومجلدات تتناول الدراسات الخاصة بالديانة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنظام الاجتماعى ، والصناعات ، والعلوم ، والفن والأدب إلخ ، والتطورات التى مرت بها كل هذه . ثم تلخيص كل تلك المواد فى تاريخ للحضارة لا يخرج عن حدود الاعتدال ، يتيح فيه للمواد الأصيلة أن تتحدث بقدر الإمكان عن نفسها . وهذا هو الأساس الذى يمكن للمؤرخ من أن يتقدم بتعليقاته التى تستهدف ، أو تزعم ، تفسير قصة التاريخ ، وإبراز قيمتها .

ويعترف ويلسون ، وهو يقدم لكتاب من أحسن وأعمق ما كتب دراسة للحضارة المصرية ، بأنه وضع فيه « العربى قبل الحصان . فالدراسة الحالية فى أغلبها هى عربى التعليقات ، والحكم الشخصى للمؤلف ، التى كان يجب أن تسبقها خيول من المصادر الأصيلة ، وتاريخ فى حدود الاعتدال » .

ثم يقول بأنه وضع العربى قبل الحصان لأن « أغلب خيولنا . . . لا وجود لها أو أنها بلغت من الكبر عتياً » ، مشيراً بهذا إلى نقص كبير فى النصوص ، وحاجة ملحة إلى إعادة النظر فى ترجمة ما سبق أن ترجم منها .

ويتساءل ويلسون عما هى « الحقيقة » فى التاريخ المصرى القديم ، وعما هو

السجل التاريخي ؟ يعنى بذلك أن من الخطأ الاعتماد على ما كان المصريون يقولونه عن أنفسهم ، تبريراً لأعمالهم . عندما يقفون أمام الديان ، أو يرسموا لأنفسهم صورة تاريخية معينة . وقد ثبت مثلاً أن حكاية رمسيس الثانى التى تملح بها الشعراء . ورسمها الرسامون . وسجلها المؤرخون : حكاية وقوفه بعربة الحرب وحده . يصد جحافل الحيثا . ليس لها ظل من الحقيقة ! ولم تكن بحاجة إلى إثبات علمي لازيف فيها . فقد كنت . وأنا غلام يعلمونه التاريخ . لا أرى فيها إلا ما يشبه وصف بشر بن عوانة للقائه مع الأسد . فى قصيدته المشهورة ، وإلا ما يذكرنى بأشعار عنتره العبسى يصور نفسه لحبيته وهو فى نقيع المعامع ، والسيوف تلمع « كبارق نغرها المتبسم » . لم أكن أصدق البتة أن بشر بن عوانة كان « هزبراً أغلباً لاقى هزبراً » . ولم آخذ العبسى مأخذ الجدل لحظة واحدة . وما كان أقسانى تشنياً فى المتنبي عندما عرفت أنه كان أى شىء إلا ذلك الفارس المقدم . والأسد الضرغام ، الذى صور به نفسه فى شعره الجزل الرائع !

إننى أحيل القارئ على مقدمة الدكتور ويلسون . فهى من أصدق وأعمق ما طالعت تعليقاً على كتب تاريخ مصر القديمة . والرجل معترف بأن كتابه واقع فى المخطو الذى يتحدث عنه .

لقد حاولت مثلاً أن أفهم ولو قليلاً من الديانة المصرية خلال تفسيرات وتخريجات ، ولف ودوران ، فأحسست إحساساً مؤلماً بأن أصحاب هذه التعليقات غير واثقين مما يكتبون . وأن حقائق الديانة ليست واضحة لهم . وإلا لما صعب عليهم أن يوضحوها لنا . ولست أظن بحال أن تلك الديانة كانت على شىء من التعقيد الذى نعرفه فى الديانة الهندوكية — وهى وثنية متعددة الأرباب كالديانة المصرية — ولكنهم أهل التخصص . مؤرخو مصر القديمة ، هم الذين صوروا الديانة المصرية على شكل ذنب الضب . أو أعقد .

وليس من عملى فى هذا المجال . ولا فى غيره ، أن أوضح معالم التاريخ المصرى ، أو أصف الحضارة المصرية ، إنما هى انفعالات يجرى بها القلم هنا وهناك ، ورحلات فكرية فى رحاب ذلك التاريخ .

لا أعرف للتاريخ المصرى غير حقيقتين لا مرد لهما : الحقيقة الأولى هى النصوص المنقوشة على الجدران ، والمكتوبة فى البرديات . أو فوق الشقفات والشظايا ،

مترجمة ترجمة أقرب إلى الصحة. وفي التاريخ المصرى نصوص ذات أهمية كبرى ، كنصوص برديات هاريس عن عصر روميس الثالث ، وكتون أهرام أوناس وأسرته ، ونصوص كتاب الموتى ، وبرديات إدوين سميث الطبية ، وكل ما يدخل فى عداد الأدب من آثار. ولكن هذه النصوص وأمثالها ، إن ألقت ضوءاً على بعض حقائق الحضارة المصرية والتاريخ ، فهى لا تمثل إلا قسماً يسيراً من الحياة المصرية ، وهو القسط الممتاز الذى يخرج فى الغالب عن حدود الاعتياد .

فهل صورة مصر الموتى هى صورة مصر الأحياء ؟ وهل كانت فكرة الموت مستحوزة على المصرى ذلك الاستحواذ الذى يبدو فيما بقى لنا من آثاره ؟ هل من المحتوم أن أصدق كلام ديودورس وهو يقول : « أولئك الناس كانوا ينظرون إلى الحياة كأنها فترة قصيرة لا أهمية لها ، بينما هم يعنون عناية كبرى بحسن الأحداث التى تتخلف عن فضائل الإنسان بعد موته . لذلك هم يعتبرون بيوت الأحياء نزلاً يقضى فيها المرء بعض الوقت . ثم يمضى ليقم إقامة دائمة فيما كانوا يسمونه « بيوت الأزل » . فلم يعن الملوك ببناء قصورهم ، إنما بذلوا كل مرتخص وغال لإعداد مدافنهم » .

وماذا نقول نحن المسلمين غير ذلك ؟ وهل يقول إخواننا المسيحيون شيئاً آخر ؟ ألسنا نحيا فى هذه الدنيا بكل معانى الحياة وكأننا نعيش أبداً ؟ وما أقل ما نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً . ولكن إذا جاء بعدنا من يطالع أمثال هذه الأحاديث القدسية ، وروائع ما يؤثر عنا من كلام ، وما تأمر به الديانات وما تنهى عنه ، هل يستطيع — إذا لم يكن عرف حقيقتنا — أن يتصورنا إلا قوماً . . . نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟ !

يصف العلامة أميلينو الجنس المصرى بأنه من أعظم الأجناس بشراً وحباً للحياة ، ويدعى بأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم — أى حتى أوائل القرن الحالى — أطفال كبار ، يحبون البهجة ، ويقبانون على المسرات ، أهل اجتماع وألفة ، ينزعون إلى كل مباحج الحياة الدنيا ومتاعها . وما علينا إلا أن نلقى نظرة — ولو عابرة — على الرسوم والتماثيل التى تزين المقابر منذ أقدم العصور لتأكد من صدق ما يقول . والمصرى — على حد قول أميلينو — لا يكتفى بحقائق

الحياة وحدها ، مهما كانت مفرحة مبهجة ، فهو ما فنى هائماً فى خياله بحثاً عن الخوارق ، وجرياً وراء المغالاة . . . وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم القديمة وبين دينهم الجديد ، ولم ينبذوا أساطيرهم العتيقة ، بل كسوها لباساً مسيحياً ، فتحولت آلهتهم القديمة وجنتهم ، إلى ملائكة وقديسين ، وإلى أبالسة وشياطين .

لقد حسب كبار عدد مقابر طيبة ، فكانت فى حدود الأربعمائة ؛ وقدرها بالنسبة للقرون التى دفن أصحابها فى خلالها ، وعلى أساس خمسة وعشرين عاماً للجيل الواحد فى الزمن القديم ، فإذا لكل جيل عشرة قبور لا غير . أى أن حسبه أوصلته إلى أربعين ميتاً فى كل مائة عام ! ثم قال بأن محاولة استخراج الطقوس الجنائزية من هذه القبور تشبه أن يحاول الناس ، بعد بضعة آلاف السنين من اليوم ، التوصل إلى طقوس الفرنسيين والإنجليز فى الجنائزات . . . من مدافن البانتيون ودير وستمنستر .

ما أصدق قول ماسيرو لسائليه ، عما إذا كان تاريخ مصر القديمة تم ظهوره للعيان : « إننا لم نفعل حتى الآن شيئاً أكثر من خدش أحدثائه فى ذلك التاريخ ! » ماسيرو الذى فارقنا منذ أربعين عاماً وبعض الأعوام ، وكان من أعرق رجال عصره ، وأوسعهم علماً بتاريخ مصر والشرق القديم !

ثم هل فهمنا النصوص المصرية ، التى تفرش على أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، على وجهها الصحيح ؟ أما نلاحظ تطور اللغة على مر القرون ؟ ونحن نعرف ما يصيب لغاتنا الحية من تحول فى مئات السنين ، حتى مع بقاء ألفاظها دون تغيير : تأمل على سبيل المثال كلمة « نكتة » عند الجبرقى منذ أقل من قرن ونصف ومعناها « واقعة » أو « كائنة » أو « اختراع » ؛ وقارن ذلك بمعناها المتداول اليوم : تحولت من « واقعة مهولة » إلى « قافية » ، كما انتقلت كلمة « قافية » ، هى أيضاً ، من مكانها فى النظم ، لتعنى شيئاً آخر ، مع احتفاظها بمعناها الأصلى . وكلمة « كائنة » . وهى أيضاً « الواقعة المهولة » ، كانت إلى عهد قريب تستعمل فيما لا يخرج عن معناها الأصلى ، فى قولك : « دا كائنة » أى « مصيبة » أو

« داهية » . وتأمل كلمة « داهية » في معناها المزدوج من الدهاء ، ومن دهنه داهية !

فلنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لنتعجب من كلمة مصرية ما زال كل معناها عند جهازة اللسان البرباني هو : « فعل يعنى حركة أو عملاً عنيماً » ! ؟ فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة من الكلمات ، إذا به يضيف في ذيل شرحه ؟ « أو ما أشبه ذلك ! » ، كأن تقول : عجلة ، دائرة ، خاتم ، طوق ، حجر رجي ... أو ما أشبه » ! !

وتذكرني « ما أشبه » هذه بنجامة الشروح والمباحث والهوامش في كتب العرب ، وهي تختم بقولهم « والله أعلم » .

كلا ، إن مصر لم تكشف بعد عن كل مخبواتها ، وما برحت نصوص كثيرة تنتظر أن تترجم أو أن تعاد ترجمتها . ومتاحف العالم ما فتئت ملأى بالبرديات والشققات والشظايا والألواح والشواهد من الحجر ، لم تفحص بعد ولم تترجم . هل تصدق أن البرديات العظيمة المعروفة باسم برديات إدوين سميث ، منذ سنة ١٨٦٢ ، وهي البرديات التي كشفت عن عبقرية - وأقول عبقرية ! - مصر في الطب ، لم يترجم نصها وينشر ترجمته إلا عام ١٩٣٠ ، على يد جيمس هنري برستيد ، ثم ألقى عليه محمد كامل حسين ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، ضوءاً باهراً من عامه وألمعيته الجراحية ؟

وكيف نأمل أن نتوصل إلى صورة أقرب إلى الكمال للتاريخ المصري ، والعواصم المصرية الكبرى في الدلتا - فيما عدا تانيس ! - لا عين ولا أثر . أين بوطو ، وبوباسطيس . وعاصمة رمسيس الثاني في شرق الدلتا ، وسبينيتوس (سمند) ، وزويس (سخا) ، بل أين منف ، واين (عين شمس) ؟

والحقيقة الثانية في التاريخ المصري ، والأخيرة ، وهذه لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هي الفن : فن العمارة ، والرسم ، والتصوير ، والحفر بالبارز - المنخفض [بارلف] ، والنحت المستدير . الفن هو العنصر الحي الخالد في تاريخ مصر ، يعيش بين ظهرانينا ، يتحدث إلينا بلغة العقل والشعور . قد نفهم لغته ، لا نفهمها ، ولكننا في هذا كن يفهم لغة الموسيقى أولاً يفهمها ، ويتفاوت

تقدير الناس للفنون وتختلف آراؤهم . ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الفن المائل لعيوننا . حقيقة خرجت من تحت يد الفنان المصرى ، كأنه انتهى منها تَوًّا . ولست أعنى أن الصور احتفظت بألوانها وخطوطها كما تركها أصحابها ، إنما أشير هنا إلى صفة تختص بها الفنون التشكيلية عامة ، وهى أنك تشاهد العمل الفنى — إذا قدر له البقاء — بعد ساعة أو بعد ألف عام ، فكأنك تراه وقد انتهى منه الفنان على التو ، وانزوى عنك ليسمح لك بمشاهدته ، دون أن يسمع تعليقك عليه .

وضحت معالم طريقى ، وثبت لرشدى ، بعد ذلك الدوار الذى أصابنى ، وقد بلغت الذرى ، وارتقيت فى رحلتى عبر التاريخ إلى القمم العليا . فلا تحدث قليلا عما حققته لنا النصوص من تاريخ عام ، قاعاً للصورة وإطاراً لها ، أقدم فيه الفن المصرى .

ثلاثة آلاف عام

سأحدثك عن تاريخ مصر القديمة في صفحات قليلة ، وهي كل ما أحب أن أتذكره من تاريخ بلادى في العهد القديم . وقد لا يكفيك هذا القليل ، وإنما الذى يجب أن نتفق على إدراكه والإحساس به . هو الحضارة المصرية ، وأهم ما بقى لنا منها ، وهو الفن .

وإلى النيل الأدنى ، وقد درجت فيه حياة ما قبل الأسرات ، يحكمه نظام مركزى يقتضيه رخاء البلاد ، واشتراك سكان ضفتى النيل فى حراسة فيضانه ، والاستعداد لتحاريقه . ما إن يوحد مينا شطريه البحرى والقبلى ، حتى تنتهى العصبية الإقليمية ، ومشاحنات أمراء الكور ، وكانت فى الغالب اشتباكات مصدرها أنافة الأمراء ، مما لم يكن يرضى عنه الشعب . وهو يحس فى قرارة إلهامه بأن حياته ، المرهونة بالشمس والهواء والأرض والنيل . لا تتحمل التفرق والتناحر . وعندى أن سلطان الملك على الجميع ، والأساطير التى تتحدث عن الأصل الإلهى للفرعون ، وعن عهود كان ملوك مصر هم الآلهة ، تؤدى معنى واحدا : ذلك أن الشعب هو الذى أله الملك ، ووطد سلطانه .

والخرافة التى أطلقها هيرودوتس ، وتصور المصريين عبيداً للفرعون ، قضى عليها المؤرخون المحدثون . فأهرام الملوك ، ومصاطب العظماء ، كما نعرفها ، وما تدل عليه من براعة فى التصميم ، ودقة فى التنفيذ ، وما تحتويه من فن رفيع ، لا يمكن تصور تحقيقها على شعب من الأذلاء . لأن جو الاستعباد الخائق يقضى على الملكات ، ويعرقل تفتح العبقريات . وإمخوتب العظيم ، الذى ألهه المصريون فى الدولة الحديثة — وهو من رجال الدولة القديمة — لم يكن ملكاً ولا أميراً ، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى ، ارتفع بنبوغه . وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ . وغير إمخوتب العظيم . أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة ، وفتحوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع — حوتب والأميرة نفرت ، ورسما إوزميدوم ، لا أتصور تيقظهم الفنى ، وحريرتهم فى التعبير ، فى جو عبودية

وكبت . تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة تى وفتاح - حوتب ومير يروكا ، وتجول فى حرم الهرم المدرج ، وقف بأعمدة البهو القديم ، تحس بحب الحياة ، حياة شعب مطمئن هانى ، لا شعب يعيش كما صوره هيرودوتس فى زمان رأى الشعب ذليلاً مستعبداً تحت أقصى حكم عاناه فى تاريخه القديم ، لم يعرف الشعب له شبيهاً إلا تحت الحكم العثمانى : وهو سيطرة الفرس .

هذه الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة ، هى قمة الحضارة المصرية الأصيلة الخالصة ، النابعة من روح الشعب المصرى ، دون ضغط أجنبي ، أو تأثر بالغرباء . ولا تحسب الأهرامات غروراً ودعاية ، بل طالع فيها ما طالع ذلك الرومانتيكى المرهف الحس شاتوبريان حين قال :

« لم يشيد المصرى الأهرام لشعوره بالفناء ، بل لإيمانه بالبقاء . هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم أو بعض يوم ، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية ، إنها أبواب الخلود ، أقيمت على حدود الأزل » .

لا تصدق من يتحدثون عن الصلف والغرور والدعاية فى الدولة القديمة ، فلم يعمل ملك أو أمير ، ولم يشيد مهندس ولم يرسم فنان ، أيعرضوا بضاعة ، ولكنهم استجابوا إلى نوازعهم النفسية نحو حياة باقية ، لا تقطعها لحظة الموت .

تحس أمام آثار الدولة القديمة برخاء البلاد ورغد عيشها ، وإقبالها على الحياة بنفس رضية . تأمل أبا الهول ذات صباح عند شروق الشمس ، وطالع على سباه صورة صادقة للحياة المصرية فى الدولة القديمة : سماحة الوجه ، وابتسامة الحيوكوندا ، رأس إنسان بكل معانى الإنسانية ، على جسم حيوان رابض ، رمز للهدوء والاطمئنان ، لا تحفز فيه لعدوان ، ولا توقع لعدو طارئ . تلك هى مصر الدولة القديمة ، آمنة داخل حدودها الطبيعية . فليست مواقع حربية تلك التى تجرى فى شبه جزيرة سيناء ، إنها حملات بوليسية تأديبية ، لتمنع عبث العابثين هناك ، ولتؤمن الطريق إلى المناجم . وحينما نام الأمير تحوتمس ، من أمراء الأسرة الثامنة عشرة ، بين ذراعى أبى الهول رأى فى منامه ما تراه أنت فى صحوك إذا طالعت وجه هارماخييس ، يستقبل شمس الصباح : آتوم - رع - هاراختي .

ويفاجئك المؤرخون بقولهم إنهم لا يفهمون تماماً ما حدث بعد الأسرة السادسة .

ومن حقهم أن يحسبوا البلاد تفرقت شيعا وأحزاباً ؛ فكل هذا جائز ، والغالب أن يكون قد حدث كما يظنون . ولا تنس أنها مئات السنين ، لا عشراتها ، انقضت بين بناء الأهرام والأسرة الثانية عشرة . والملك پيى الثانى ، آخر ملوك الدولة القديمة ، حكم نحو مائة عام حكماً صالحاً ؛ ولكن استطالة ملكه انتهت إلى نهاية محتومة ، من نزوع أمراء الكور إلى الاستقلال ، كما يحدث فى الأسرة الواحدة ، حينما يطول عمر كبيرها ، ويمتدّ عهد خدمه معه . ومضى انقضى عقد مصر ، انهار كيانها السياسى والاقتصادى والفنى ، ويمكنك أن تتوقع حدوث أى شئ للبلاد . فى أوقاتها المضطربة ، يكفى أن يتأخر الفيضان ويترأخى ، حتى تنزل بالناس المجاعة ، وتشوئهم فى إثرها الأوبئة . كل ذلك نعرفه عن يقين فى مصر العصور الوسطى ، والتاريخ لا شك يكرر نفسه فى المكان الواحد والظروف الواحدة ، بل هو يحاكي نفسه فى أمكنة متباعدة ، إذا كانت ظروفها متشابهة .

وإذا كانت القوة المركزية ستعود إلى الدلتا فى أكثر من حقبة من أحقاب التاريخ المصرى القديم ، فإنه يمكن القول من الآن بأن عهد منف العظمى قد انتهى ، وبدأ الصعيد يرفع رأسه ، أولاً على أيدي أمراء مصر الوسطى ، وسيكونون سلماً لهيمنة أمراء الصعيد الأعلى فى الطيبائيدة . وسيبدأ فى الدولة الوسطى عصر التوسع والفتوح نحو الجنوب فى بلاد النوبة . ولكن هذه الدولة الوسطى ستكون عهد حضارة أقرب إلى عصر الدولة القديمة منه إلى الدولة الحديثة ، عهد تنظيم الري والزراعة ، وإقامة المنشآت العظيمة ذات الأهداف العمرانية ؛ وستعود الملكية إلى سلطان ليس كالقديم فى إطلاقه ، ولكنه شبيه له فى إحكامه وبسطه وعدالته .

ثم يحنى تاريخ مصر فى غياهب عثمانية ، عندما ينزل بأرضها كالجراد شعب جائع بربرى ، جاء من الشرق ، من آسيا ، يظن آناً أنه فخذ من أفخاذ إسرائيل ، وآناً آخر أنه ينتمى إلى جنس هندو — أوربى ، وينتهى بعض المحدثين إلى أنهم كنعانيون . وسواء أكان هذا البلاء إسرائيلياً أو قحطانياً أو هندو — أوربياً ، فقد حل معه الخراب والدمار ، ونزلت مصر إلى حضيفض لن نعرفه فى تاريخها الحديث إلا تحت حكم باشوات آل عثمان . إلا أن الصعيد المصرى يظل كما هو — وكما سيظل دائماً — مهد الخلاص وأوى الأحرار . فليهيمن المكسوس فى الدلتا ما شاء لهم

جوعهم وعريهم وتبربرهم ، وليقيموا معسكرهم الكبير في أواريس في شرق الدلتا .
أما أمراء الوجه القبلي ، فلم تخب حميتهم ، ولا بردت نخوتهم ، وما فتثوا يعملون
حتى نظفوا البلاد من أولئك الهمج الدخلاء .

ويبدأ عهد الأسرة المحيطة : الثامنة عشرة في حساب الأسرات ، عهد أحمس
وتحوتمس وحتشيسوت وأمينوفيس وأخناتون . تلك هي الإمبراطورية المصرية التي
رفع عمادها ابن من أبناء الصعيد ، يروق لبعض المؤرخين أن يشبهوه بنابليون .
وللبعض الآخر أن يقرنوه بيوليوس قيصر : هو تحوتمس الثالث . فإذا كانت الدولة
القديمة هي عهد الأمن والرخاء والاطمئنان . فقد كان الأمن خداعاً . ولم تعد
الحدود المصرية أرصاداً سحرية تمنع الأعداء ، وأصبح لزماً على ملوك الصعيد ،
وهم يطاردون الهكسوس إلى ما وراء الحدود . أن يتعقبوهم شمالاً حتى جبال طوروس ،
وأن يسيطروا سلطانهم جنوباً حتى فوق الشلال الرابع ، وغرباً إلى بلاد برقة . فالدولة
الحديثة ، اضطرتها ظروف الغزو الهكسوسي ، وقيام القوى الخارجية . إلى أن تدخل
في مغامرات هائلة ، مغامرات في الحرب والسلام على السواء ، وفي العقائد والأدب
والفن ، وستدفع مصر غالباً ثمن هذه المغامرات ، وهي أتاوة الشعوب التي تنزع إلى
التوسع والسيطرة البعيدة . أياً كانت أسباب هذا التوسع . لن تعود مصر ، بعد طرد
الهكسوس ، إلى أمنها وطمأنيتها ، فقد عرفت قيمة الاعتماد على الحدود الطبيعية ،
عندما تقوم وراء تلك الحدود دول تطمع في خيراتهما . وسيكون طريق الشرق هذا هو
سبيل الغزو على مدى التاريخ المصري حتى العصور الحديثة ، وإن يجيء الغزو من
الغرب إلا أيام المعز لدين الله الفاطمي ، وإلا في محاولات الأتراك والألمان الفاشلة ،
في الحربين العالميتين الأخيرتين .

حق لمصر أن تتمثل بالحكمة القائلة : إذا أردت السلام ، فعن طريق الحرب .
وستحارب إبان الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . وستضطر إلى
إنشاء جيوش مدربة ، تمارس فنون القتال الحديثة ، فلم يعد يكفي تجنيد المواطنين
لشدة أو لعملية تأديب البدو ، يعودون بعدها إلى زراعتهم وصناعاتهم . وإذا
ما أنشئ جيش عامل محترف ، فهو يبدأ بالمصريين ، ثم يضم إلى صفوفه كل من تقع
عليه اليد من أعم العالم القديم المحاربة ، من أمثال الليبيين والنوبيين والإثيوبيين واليونان .

وظاهرة من ظواهر الحرب في كل الأزمان . أن يعتمد مثيروها على آلتهم ، يسألونهم العون اعتماداً على عدالة قضايهم في تلك الحروب . وملوك الصعيد بررة بآلتهم ، وبكبير هؤلاء الآلة . آمون . ولن يعزو الملوك انتصاراتهم إلى أسلحتهم وأذرعهم وحدها ، بل إلى مؤازرة آمون هذا . فهم يغدقون عليه الخيرات ، ويقدمون له الأسرى والغنائم . وبذلك طغى سلطان آمون وكهنته ، في الدولة الحديثة ، على كل سلطان . ؛ وجاءت ثورة أخناتون . وإخفاقها بعد موته ، سنداً جديداً لآمون . وسبباً لتضعف سطوته وبطشه ، ومن ورائه كهنته . ولن يجدى مصر نفعاً فتوحات رمسيس ومغامراته . ما دام كهنة آمون من ناحية ، والأجناد الأجنبية من ناحية أخرى . يشعرون بسلطانهم . أى أن مصادر تضعضع الإمبراطورية الحديثة كانت داخلية وخارجية : داخلية بسبب هذا الصراع بين كهنة طيبة وبين الملكية ، وخارجية في تلك الدول الأجنبية التي عرفت أن مصر يمكن أن تغزى كما غزاها وحكمها الهكسوس ، وتخضع للقوة كما خضعت لأجناد أوريس .

وإذا خشعت الشعوب المغلوبة بعض الوقت ، واستكانت للحكم الفرعوني ، فآلها أن تنتفض على السيادة المصرية ؛ وما عليها إلا أن تتربص بالدولة المستعمرة تتلمس تبلبل أحوالها . وضعف حكامها . لتثور عليهم ، وتنتزع منهم استقلالها . سيحكم مصر كهنة آمون ، وستحكمها أسر ليلية وإثيوبية ، ولن يرتقى هؤلاء وأولئك عرش مصر كغزاة جاءوا من الغرب أو من الجنوب ، بل كرؤساء جند بالخييش المصرى ، أو كحكام محليين من قبل فرعون . كل هذه الأسماء . من أمثال شيشونق وطهارقة . أسماء ليبين وإثيوبيين ، اقتحموا مرتقى العرش بسواعدهم من بين قواد الإمبراطورية المصرية ، كما سيفعل الممالك فيما يجرى من الزمان . وقد ترنو مصر إلى المجد في العهد الصاوى ، فتتخذ مثلها في الفن والإدارة من الدولة القديمة ، وستوهج جذوة الحضارة زماناً غير طويل . ولن يصون استقلال مصر إلا تخاذل الدول الحديثة حولها . أما حينما تقوم من بينها دول قوية ، كالآشوريين والفرس . فما أسرع أن تهاجم مصر وتحتلها . وكان الفرس ، بعد الهكسوس ، وقبل الأتراك العثمانيين ، من أسوأ من عرفتهم مصر ظلماً مفسدين . وسيجيء الإسكندر ليخلص مصر من حكم الفرس ، وتنتهى بذلك سلسلة الأسرات المصرية الثلاثين .

والأسرة الفارسية التي يعدها بعض المؤرخين القدماء الأسرة الأولى بعد الثلاثين ،
وتدخل مصر في حومة الحضارة الهلينية .

٢ ١ ٥

أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرب حساب سنوات الاستقلال المصري ،
بالنسبة لسنوات الاستعباد . وفي هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد
استقلالها وإن قامت على حكمها أسرة أجنبية ، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين
والفاطميين والأيوبيين والمماليك . إنما مصر تفقد استقلالها عندما تنزل إلى مرتبة
الولاية والإيالة والإقليم . ويحكمها ملوك أو إمبراطرة أو خلفاء أو سلاطين ،
يعيشون في عواصم خارج مصر . ومع أن المكسوس حكموا في أواريس قرب صا
الحجر . إلا أنني سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال . كما أستقط
حكم الفرس .

فلنبداً من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد . حسب التوقيت القصير . حين يتوحد
الوجهان البحري والقبلي ، ويلبس أول ملوك الأسرة الأولى التاج الأحمر والتاج
الأبيض . مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج « بشت » . وعندما ينتهي حكم
البطالسة . وتضم مصر إلى أملاك أغسطس قيصر الخاصة . عام ٣٠ قبل الميلاد .
يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام . كانت فيها دولة مستقلة . دون نظر
إلى نوع الأسرات الحاكمة .

ومنذ الحكم الروماني حتى بدء الدولة الطولونية . مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام
كانت فيه ولاية لروما . ثم لبيزنطة . فالعرب بالمدينة ودمشق وبغداد .
ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثماني . عاشت مصر دولة مستقلة نحو
٦٠٠ سنة .

وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد على استقلالاً عن الدولة العثمانية . أو تبعية لها -
ولقد حرصت على أن أدقق في سنوات الاستقلال . حتى أصل إلى نهايتها الصغرى .
في سلسلة الاحتمالات . فلا يتطرق شك إلى ما أنا بسبيله . ولهذا واعيت أن مصر
إيالة تركية . تابعة اسمياً لتركيا . حتى زالت عنها تلك السيادة العثمانية عام ١٩١٤ .
بإعلان الحماية البريطانية - فإنك واصلت معي إلى أن مصر . في تاريخها الذي يقدر

بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة . منها حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمها أسر مصرية ، ونحو ألف سنة حكمها أسر أجنبية .

أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رهوس الشباب ؟ أمة ألفية ، أطول الأمم تاريخاً . تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تنتقل بين الحضارات : من حضارة مصرية صميحة ، إلى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية إسلامية .

وذلك بدلا من الادعاء — الذى مجته أسماعنا منذ الحداثة — بأن مصر فقدت استقلالها نهائياً فى القرن الرابع قبل الميلاد . عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيبوس الملك . وما زلت أذكر ، حتى هذه اللحظة . الألم الذى كان يحز فى قلبى : وأنا غلام بالمدرسة الابتدائية . أردت أسماء أمازيس وبساماتيك ونكتانيبوس : فقد انطبعت تلك الأسماء فى نفسى انطباعاً عجيباً ، لأن أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة : أولهم انهزم أمام جيش قمبيز ، والثالث ختم عهد الأسرة الثلاثين ، وهرب إلى إثيوبيا أمام الزحف الفارسى الأخير .

وعندما انتقلت إلى المدارس الثانوية . كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ! وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سميرتهم ولمع شعرهم ، سادرين فى الزعم والتفاخر بأنهم من عائلات تركية أقول هذا ليعلم شباب اليوم أن جبلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلا !

الصفحات الأخيرة

فكرة هذا الكتاب هي أن الحضارة المصرية ، أغنى مجموع الحضارات التي تداولت مصر في مدى خمسة آلاف عام ، تلقت ضربتها القاضية في الغزو العثماني ، وأن النهضة المصرية يجب أن تقوم روحياً على استيعاء التاريخ المصرى كله ، دون تفضيل عهد على عهد ؛ فكما أن أهل الغرب يخططون إذ يختصون حضارة القراعنة بتمجيدهم ، ويعتبرون غيرها دخيلاً على مصر . فإن فريقاً من مواطنينا لا يعطف عطفاً خاصاً على حضارة مصر القديمة .

ولعل للمتخصصين بالتاريخ المصرى القديم العذر في حرصهم على الحقبة الكبرى ذات المقام الرفيع في التاريخ العام ، لقدمها ، وطولها ، وأثرها المباشر وغير المباشر في حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ولأنها أصيلة نبتت من صميم التربة المصرية ، وعلى أبهى أبناء هذه التربة وبناتها وحدهم . ثم أخذت الاتصالات الخارجية في الاتساع والازدياد بعد غزو المكسوس ، وصحوة مصر فجأة لتدرك أنها ليست كثانة آتوم وفتاح وآمون ، تحميها الصحارى والبحار والجنادل ، وأن عليها ، كى تعيش في عصرها الحديث ، أن تدفع غائلة هؤلاء الغزاة الآسيويين الذين أذاقوها علقم الاستعباد مائة وخمسين عاماً ، وأن توسع رقعتها بالفتوحات إلى ما وراء حدودها الطبيعية .

وبرغم هذه الصلات الأجنبية ، وتبادل السلع والخبرات ، فإن الحضارة المصرية ظلت محتفظة بخصائصها حتى آخر عهد الأسرات ، بل وبعد غزو الإسكندر ، وقيام البطالسة ، وبعد أن دخلت مصر في حوزة الرومان . ولم تنته هذه الحضارة إلا بنهاية العقائد القديمة ، وتحول السكان من الوثنية إلى ديانة الناصرى .

فكل ما يجيء عقب الحقبة الفرعونية ، لا يعتبره إخصائيو تلك الحقبة ، ولا غيرهم ، فناً ولا حضارة مصرية أصيلة . العهد اللاجيدى كان إغريقياً ؛ والعصر القبطى تأثر مكرهاً بما يجرى في بيزنطة وأنطاكية وسورية ، والعصر الإسلامى انقباد للحضارة الإسلامية ، فكان طولونياً وإخشيدياً وفاطمياً وأيوياً ومملوكياً وعثمانياً .

لذلك أردت أن أثبت هنا أقوال بعض مؤرخي مصر القديمة في نهايات كتبهم . وأبدأ بجيمس هنرى برستيد ، لأن للرجل فضلاً كبيراً علىّ ، فقد كان أول من أشعرنى أذننى حقاً من أحفاد ذلك الشعب العريق ، وصحح الأفكار الخاطئة الطائشة التي خرجت بها من مدارس وزارة المعارف المصرية ، يسوقها المستشار البريطاني دنلوب . كانت محاضرة ألقاها برستيد في مكان بجى المنيرة ، أظنه كلية من كليات الجامعة حالا ، وألقاها في وقت هز مشاعر العالم نحو مصر الكشف عن مقبرة توت عنخ - آمون . وقد نسيت اليوم ما قاله الأستاذ الأميريكى الكبير ، ولا أذكر إلا طشاشاً شكل المحاضر ، وأظنه كان رجلاً طويل القامة منتصبها ، يلبس نظارات تقربه كثيراً من هيئة القسس الأنجليكان . ولكنى أذكر ، كأنه بالأمس ، أننى خرجت من المحاضرة شخصاً جديداً ؛ ويظهر أن الرجل - الذى عاش « مجاوراً » للتاريخ المصرى القديم ، وقد وجد نفسه أمام مجموعة من شباب المصريين ، في وقت كانت ثورة ١٩١٩ أعلنت للعالم أجمع أن قد صدقت نية مصر في أن تنهض - لمخ في عيوننا بريق الأمل في مستقبل هذه الأمة ، التي كانت عظيمة جداً ، ورأى في لون بشرتنا ، وعلى سيماننا ، ما ذكره بصور المعابد والمصاطب وتمائيل القدماء ، فراح يبعث روح التاريخ المصرى في نفوسنا ، ويوقظ فينا معنى المجد المؤثل ، الجاثم فيما بين صحراء الأهرام ووادي حلفا .

ولا أغلو إذا قلت إن كتابى اليوم - وأنا أولفه فيما بين السنوات ١٩٥٤ - ١٩٥٩ - هو ثمرة محاضرة جيمس هنرى برستيد عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ . يقول الأميريكى الكبير ، في نهاية كتابه « تاريخ مصر » ، الذى نشرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٥ .

« وبسقوط بساماتيك الثالث ، دخلت مصر في عالم جديد ، كانت قد قامت بعمل كبير في سبيل تقدمه وتطوره ، ولم يعد لها فيه دور إيجابى ؛ لقد انتهى عملها الجليل . ولما كانت لا تستطيع أن تختفى من الميدان ، مثلما فعلت نينوى وبابل ، فقد واصلت حياتها المصطنعة بعض الوقت ، تحت حكم الفرس فالبطالسة ، وهى تتدهور إلى الوهدة ، حتى أمست أهراء غلال روما ، ومزاراً لأثرياء الرومان واليونان ، يفدون عليها ليتفرجوا على عجائبها ، كما يفعل السواح في أيامنا .

« أما شعبها الذى لا يحب الحرب ، الشعب الذى يواصل إعدادها لتكون متزهماً للعالم ، فلا يبدو عليه أنه يفيق من غفوته ، وقد صدقت فيه نبوءة حزقيال ، وهو القائل : ” لن يقوم بعد ملك من أرض مصر “ . »

* * *

وأنا أدعو الله أن تصدق نبوءة حزقيال هذا فى الحاضر والمستقبل ، كما صدقت فى الماضى ، فقد شبت مصر خلفاء وسلاطين وملوكاً وأمراء ، وشربتهم حتى كيعانها . ونرجو أن تكون حرفة الملوك فى مصر آلت نهائياً إلى البوار ، وأن يواصل أبناء البلاد حكمها ، والتطور بها ، إلى أحدث ما تنادى به مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية .

وألتمس العذر لجيمس هنرى برستيد ؛ فقد ختم كتابه سنة ١٩٠٥ . ومصر تهوى إلى قرارة يأسها ، إذ تتخلى عنها فرنسا ، نصيرتها ضد بريطانيا فى ذلك الوقت . وتجري اتفاقها الاستعماري مع بريطانيا على اقتسام مناطق النفوذ فى أفريقيا ! فلن أنسى برستيد . الذى رأيت وسمعت ، فى أوائل العشرينات ، محباً لمصر ، معجباً بحضارتها القديمة ، والذى ترك لنا آثاره شاهدة على بعض ما صنعه لتنبه أذهان العالم إلى روحانية تلك الحضارة . وأكد أوقن أن الرجل مات قویر العين . مطمئناً إلى مستقبل أحفاد بناء الأهرام والبراني !

وأذكر له بالخير فقرة وردت فى الفصل الختامى لكتابه الذى نشر عام ١٩٣٣ . بعنوان « فجر الضمير » ؛ قال . وهو فوق جبل الزيتون بفلسطين ، ينقل ناظره بين وادى الأردن والبحر الميت ، وخلفهما جبال مؤاب ، ومدينة بيت المقدس : « وكان منظرًا طبيعيًا ، يحقق عملياً وقائع الانتقال المعجب من عالم تعمل فيه قوى الطبيعة وحدها . إلى عالم تشرق فيه القيم الإنسانية . فذلك حدث فعلا فوق أرض الشرق الأدنى القديم . »

« وإذا كنا نجلس مطلين على قرية النبي إرميا ، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى . واخترقنا بخیالنا جبال اليهودية الجرداء ، إلى أرض وادى النيل . منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية — تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى — فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكاً

لمعنى الشخصية والأخلاق وصلح الإحساس ، وذلك قبل أن يولد النبي إرميا
بألفى عام ! »

* * *

أما الأب دريوتون والسيد فاندييه ، فيختمان كتابهما عن مصر ، في السلسلة
التاريخية المممة « كليو » ، بقولهما :
« ويظهر أن مصر كانت قد استنفدت قدرتها على المقاومة . لأن قبولها عن
رضى ، واستقبالها لسيدھا الجديد ، الإسكندر ، فيه البرهان على تدهورها .
ختم تاريخها لم يعد بالمستطاع أن يعالج وحده ، لأن مصر انصوت . منذ ذلك
التاريخ ، في مجموعة العالم الشرق الذى سيخضع شيئاً فشيئاً للمؤثرات الإفريقية .
نعم إن الأفكار المصرية العتيقة ستعيش فترة تطول إلى مئات السنين . ولكن في
صين ممسوخة ، ينقل عنها الأغراب ويفسرونها . فيبدو على لسانهم كأن دور مصر
لم ينته بعد ؛ والحقيقة أن ما بقى منها لن يكون إلا خيالا وظلالا تنشرها البلاد العريقة
فوق صفحة العالم » .

* * *

ويختم جاستون چكويه كتابه : « تاريخ الحضارة المصرية » . متحدثاً عن
ظهور الكتابة الديموطيقية . والاقتصار عليها دون الهيروغليفية ، إبان الحكم الفارسي ،
في تسجيل العقود . ونسخ المخطوطات المختلفة . أى فيما لا يدخل في عداد الأثر
القائم ؛ ويقول بأن هذا الانتقال من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، يمثل في رأيه
خاتمة مصر المستقلة :

« فحين ينزل بمصر ملوك أغراب . ليحتلوا نهائياً مكان الأسر الفرعونية فوق
عرش مصر . نستطيع أن نقطع بنهاية الحضارة المصرية . ومع أنها سوف تعيش
بضعة قرون أخرى . بل وستقدم في بعض النواحي . كالعمارة مثلاً . أعمالاً مصرية
أصيلة . فإن حياتها لن تزدهر . بل سوف تتدهور سريعاً .

« فالحضارة التى أشرقت على العالم القديم آلاف السنين . ووهبت عن طيب
خاطر كل ما فيها من خير . سوف تغمرها حضارات جديدة . والدم الجديد الذى
ينقل إليها . سوف يكون غزيراً إلى حد يوردها مورد قضائها . بدل أن يحدد شبابها .

ومنذ الآن ، لن تكون مصر أكثر من إيالة من إيالات العالم الهليني . وولاية من ولايات دنيا الرومان ، سواء من الناحية السياسية ، أو من وجهة نظر الحضارة » .

~ ~ ~

وإذا لم تكن الصفحات التالية خاتمة لكتاب جوتييه ، في مجموعة « مجمل تاريخ مصر » ، الذى نشر بالقاهرة في ثلاثينات هذا القرن . فإنها ، في صدد كلامنا هذا ، ومعنى مختاراتنا ، تعتبر حكمه الأخير على نهاية الحضارة المصرية . قال في مقدمة الفصل العاشر وهو خاتمة فصوله :

« بقى لنا أن نلقى نظرة خاطفة على مختلف أشكال الحضارة المصرية في السبعة أو الثمانية قرون ، التى انقضت فيما بين سقوط دولة الرعامسة ، وظهور الإسكندر . وهى الحقبة التى نطلق عليها اسم « العصر المتأخر » .

« فإذا دققنا النظر في الملكية . يفجأنا أن لم تعد سدة قومية . وإذا جانب بعض المؤرخين الصواب في حكمهم على ملوك الأسرة التاسعة عشرة بأنهم لم يكونوا خلصاء الأرومة المصرية . بحسبان اختلاطهم ببعض العناصر السامية ، فإن مما لا شك فيه أن الدم الأجنبي اختلط بدم الملوك . منذ تبوأ العرش أسرة الملوك — الكهنة . ولقد رأينا . منذ الأسرة الأولى بعد العشرين . أن الليبيين يتسربون إلى الحياة المصرية . وأن كبير كهنة آمون يحمل اسماً ليبياً . وهو مصحرتا : وهذا التسرب لم يتعد الفئة العسكرية . وعندما يتولى الملك زعيم من كبار زعماء « المشاوشة » ، وهو شيشونق ، في بوباسطس . تصبح الأسرة الثانية والعشرون ليبية لحماً ودماً . ثم يعقبهم الملوك الملقبون بالإثيوبيين . وكانوا في الحقيقة من أصل بوباسطى ، أى لىبي . يحملون أسماء ليبية ، ولكنهم اقترنوا بأميرات إثيوبيات . بحكم إقامتهم في بلاد النوبة ، وكانت ملكات الأسرة الخامسة والعشرين نوبيات خالصاً . وسوداوات في بعض الأحيان . وكان ملوك الأسرات الصاوية — الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين — من أصل لىبي أيضاً . وآية ذلك أسماءهم . من أمثال اسم بساماتيك . احتفظوا بأرومتهم اللبية خالصة . لأنهم لم يقترنوا بأميرات من النوبة . ويبدو أخيراً أن فراغة منديس وسمنود . وهم ملوك الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين . لم ينحدروا من صلب مصرى غير مهجن .

« واستمر هذا الدم الأجنبي ، وهو لبي في أغلبه . ينساب في عروق أبناء البلاد . وهو قبل أن يجرى في أوعية الفراعنة ، كان قد جدد قوى الطبقة العسكرية المعروفة بالمشاوشة . وهى الطبقة التى تحمل أكبر عبء في الحكم بعد الملك . ولقد رأينا المرتزقة الليبيين يؤلفون ، على مدى أجيال عدة . العنصر الأكثر نشاطاً وحيوية في الجيش المصرى القديم ، الذى دب فيه الوهن . ولم يتقهقروا أثرهم إلا رويداً أمام سيل المرتزقة من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى اختفى تماماً بعد الغزو الفارسى .

« والحق أن هذا التسرب لم ينفذ إلا قليلاً جداً في دم الشعب المصرى ، سواء في ذلك صناع المدن أو الفلاحون . إنما الطبقات الحاكمة هى التى تلقت العصارة الأجنبية . الليبية في غالبيتها . واليونانية والأناضولية والسامية في بعضها . فاستطاعت ، بدمها المتجدد . أن تحفظ على مصر حياتها المستقلة لبضع مئات أخرى من الأعوام .

« والطبقات العليا هى التى كانت في ميسر الحاجة إلى تجديد قواها . أما الطبقات الوسطى . والدنيا بخاصة . فلم يعثورها الانحلال الذى دب في الأرستقراطية المصرية . وظلت تلك الطبقات العاملة محتفظة بدمها المصرى الخالص . وبخاصة في الريف ، لم تهجن أرومتها الناشطة . ولم يتبدل عنصرها المسوم بالاعتدال وذلك على الرغم من حالة الحرب المستمرة . والثورات الداخلية . التى كانت تعيش خلالها حياتها المتواضعة القميئة . »

* * *

ويختم ولسون كتابه عن « الحضارة المصرية » . أو ما سماه في الطبعة الأولى « عبء مصر » . بهذه الكلمات :

« وإن انهيار أسلوب الحياة المصرية العميقة في أيامها الأخيرة كان مأساة . ولكن من حق مصر علينا أن نقول بأن هذا الأسلوب عاش نحو ألفى عام ، وصمد كل ذلك الزمن . لأن مصر حبها الطبيعة مزاجها العزلة . مما حقق لها التطور الداخلى ، والإبقاء على وسائلها في هذا التطور . فكان المصرى مستطيعاً أن ينهج نهجه في الحياة في ظل الطمأنينة الجغرافية والروحية . وهو نهج له من المرونة ما يفسح المجال للتطور التاريخي . وآية هذه المرونة كانت سلسلة من الموازنات والتوافقات . سمحت

للقوى المتعارضة أن تعمل دون أن يفنى بعضها بعضاً . . . فرونة الأسلوب المصرى ،
والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام ، على أساس التوازن بين القوى المتطاحنة ،
تظهرنا على عبقرية شعب عظيم .

« ولا يصح أن نزعّم بأنهم كانوا أعظم الشعوب ، ما دامت سماحتهم قد حالت
بينهم وبين بحث المشاكل والوصول إلى حلول لها تطبق تطبيقاً عملياً كاملاً . فالرونة ،
التي حققت لهم الهناء كل تلك الأحقاب ، كانت رخاوة في تكوينهم ، تقابلها
حدة العبرانيين التي لا تلين ، أو الصفاء المتأصل في قرارة النفس اليونانية . هذا إلى
أن المصريين لم يستمسكوا بصفاتهم العالية . ففقدوا في النهاية تسامحهم العملي الموفق ،
وأمسوا صلاب العود في تمسكهم بظواهر الأمور . ولكن حكمنا عليهم يجب أن
يتناولهم في أحسن أحوالهم ، وقد عاشوا أحقاباً طويلة من التاريخ البشرى وهم على
خير حال ، يحققون حضارة رفيعة من النواحي المادية والفكرية والروحية .

« ولقد جاءت كلمات النبي إشعيا ، في مأساة الأيام الأخيرة للتاريخ الفرعونى ،
دليلاً على أصالة الحكمة القديمة ، ورفعة الشأن ؛ قال إشعيا : « إن رؤساء تانيس
أغبياء ، حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية » ؛ وذلك مقابل القول القديم :
« أنا ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء » .

• • •

وختام كتاب موريه « النيل والحضارة المصرية » ، صورة من العقل الفرنسى ،
وحرصه على التجميع في وحدة فكرية ، مع براعة في التلخيص . ولهذا نقدم فصله
الختامى بأجمعه ، لأنه سيعيننا على فهم الحضارة المصرية القديمة ، بإحلالها رجل من
خير من درسها وفهمها ، وعاش لها ودافع عنها :

« ماضى المصريين هو أطول الأحقاب التي يسجلها تاريخ البشرية . وإذا كان
تاريخ ما بين النهرين يوازن في قلمه التاريخ المصرى ، فإن حقيقته السابقة على
التاريخ ، ما زالت تستعصى على الباحث . إنما مصر وحدها هي التي تعرض لمن
يدرسها تاريخياً يمتد من العصر الحجري القديم حتى العهد المسيحى . فإذا لم ندخل
في حسابنا سوى الحقبة التي تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة آلاف سنة
من حضارة خلقت آثارها المدونة . ولكن من يستطيع حساب آلاف السنين التي

عاشها المصري في الانتقال من عصر الحجر المشطى . حتى بلغ عصر التنظيم الاجتماعى والسياسى . إبان حكم المملكة الطينية ؟

« فلنلخص ، في إجمال ، الحقبة التى عالجها هذا المجلد ، والمجلد الذى سبقه ، مع بيان أوجه النقص في معارفنا :

١ - عهد أول . ينقلنا من أبعد الأصول حتى الآثار التاريخية الأولى ؛ وهنا يعد الحساب كله تقريباً . فنقول مثلاً : الحقبة السابقة على الألف الخامسة ، حين كان الإنسان يستعمل أدوات من الطران . ولكننا نجهل كل شئ عن تقدمه في العصر الحجري الوسيط . لا ندرى كيف حقق أولئك الناس ما ظهر من جديدهم في عصر ما قبل الأسرات : الحجر المصقول . والفخار ، واستخدام المعادن (النحاس والذهب) . وصناعة النسيج . واستئلاف الحيوان والزراعة . إنما نعرف أن المصريين في ذلك العهد كانوا مبدعين . دون منازع . في فنون الحجر والمعادن . وأنهم يعيشون في مجتمع مؤلف من عشائر . تقودها الطواطم والأرصاد السحرية .

٢ - وباستقرار العشائر . يبدأ عهد ثان . تظهر فيه الكور . وآلهتها المحلية ؛ وزعمائها وارثو الطواطم . ولكن أنى جاء فيما بعد المحاربون المؤسسون للمملكتين المركزيتين في الصعيد والوجه البحري ، عباد هوروس . وآلهتهم العالميون . وملوكهم . وكتاباتهم المصورة . وفنهم ذو الأسلوب الواضح ؟

تقول أساطير العهد التالى بأن هذا النظام نشأ في الدلتا . وأن آلهة الطبيعة . هوروس وسيت وأوزيريس . لقنوه للناس . إلا أن مناخ الدلتا - بعكس مناخ الصعيد ، حيث الآثار غير قليلة - محي بقايا ذلك العهد ؛ ومن ثمة لا نملك أثراً مباشراً من تلك المنطقة . حيث نشأت الأفكار والمذاهب التى ازدهرت في العصور التالية . وإن « متون الأهرام » هى التى مكنت لنا من محاولة رسم صورة عامة لتلك المذاهب ، وذلك عن طريق الاستدلال بها عما حققته الأزمان السالفة . وما زال أمامنا مجال واسع للبحث في هذا الموضوع . وقد أعلن القارئ . في حينه ، بأن تلك الحقبة كانت حقبة الإعداد . وأنها كانت طويلة ، وذات أهمية عظيمة . وفيها بدأ العمل بالتقويم [عام ٤٢٤١ قبل الميلاد] . وأنها تنهى بتولى الملك مينا [حوالى عام ٣٣١٥ .

٣ - والآثار العديدة التي تخلفت عن الأسرة الطينيسية ، وما تلاها حتى نهاية الدولة القديمة (٣٣١٥ - ٢٣٦٠ ق . م .) ، تصور لنا طبيعة المجتمع المصرى وتقاليده ونظمه ؛ وتتوحد مصر تحت سلطان ملكية مركزة مطلقة مستبدة ، ذات حق إلهى ، وتصبح الأهلية الاجتماعية مقصورة على شخص الملك حياً وميتاً ، فصر ملك خاص للأسرة المالكة . وتنهى دولة بناء الأهرام بنهاية الأسرة السادسة . وإلى عهد قريب ، كان المؤرخ يتخبط فى ظلام المجهول حيال انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٣٦٠ ، دون أن يجد لاختفائها تفسيراً . فقد عفت الآثار الملكية ، وتراجعت مصر إلى أسلوب حوشى فى الفن ، وعمت فيها الحروب الأهلية ، وحلت بها الضيقة الاجتماعية ؛ ولكن كيف ، ولماذا ؟ لقد كشفت الحفائر الحديثة عن مراسيم أصدرها آخر ملوك منف ، جعلتنا نتابع تهجم الكهنة والموظفين والشعب على سلطة الملك ، يهدمون حصن الملكية شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهى إلى الخراب التام .

وحاولنا ، من واقع نصوص منشورة منذ أمد بعيد - لم يتضح معناها التاريخى حتى الآن - أن نغزو الأمر إلى ثورة شعبية تحت حكم الأسرات الهرقليوبوليتية ، فيما بين عام ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ، حدثت إبانها وقائع دموية وحوادث غريبة ، أوضحنا أثرها ، وهو حصول الشعب على حقوقه الدينية والسياسية ؛ وما زالت بعض نقاط تنتظر التفسير ، ولكن الثابت ، على ما يبدو ، هو أن استبداد الملوك قد زال بزوال دولة منف القديمة .

٤ - ويظهر مجتمع مصرى جديد ، بظهور الدولة الطيبية (٢١٦٠ - ١١٠٠) ، وسوف تحتفظ هذه الدولة بكل سماتها الأساسية حتى زوال الاستقلال القومى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وذلك خلال تطورات وأحداث سياسية . ولا غرو أن تظهر لنا فجوات وفراغات فى دنيا الآثار ، خلال هذه الحقبة الطويلة التى دامت خمسة عشر قرناً . فجوة فيما بين الدولة الرسطى والدولة الحديثة الطيبية ، إبان الاحتلال الهكسوسى ، وفجوة انهيار الإمبراطورية المصرية فى آسيا انهاراً سريعاً بعد مرفنتاح ، وفجوة انحلال الرعامسة ، وفجوة تشتت شئون الحكم وانفراط عقده ، إبان دولة بوباسطة ؛ وبعدها يحىء عهد الإحياء الإثيوبى والصاوى . كل تلك فترات دقيقة ، وحقبات غير معروفة تماماً ، نقر فيها بنقص معلوماتنا نقصاً بالغاً . ولكن الاضطرابات

التي وقعت في مصر كانت من نتائج قارعات السياسة الخارجية وأحداثها ، أى أنها تناولت الأسرات الملكية ، لا المجتمع المصرى ، الذى ظل حياً برغم الغزوات ، يتابع حضارته المتناسقة ، ويتطور داخل إطار مبادئه الثابتة .

وتحولت فكرة السيطرة الملكية المطلقة إلى ناحية إنسانية ، بفعل إصلاحات ملوك مشرعين ، حكموا بعد الملوك المستبدين . كان ساطان الملك في الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، نفذها الفراعنة في دقة وصرامة ، ورضى بها المحكومون دون تردد ولكن هذه العقيدة تتحول تحت حكم الأسرة الثانية عشرة إلى مبدأ ومذهب في الحكم ، أى إلى تعاليم تحاول أن تكون إنسانية ، تقوم على حكم العقل . ويصبح دار الملك مثابة القانون ؛ ولم يكن مجرد قانون تعاقدى ، يطبق في العلاقات السياسية والتجارية (فإن بابل شرعت في هذا تشريعاً أكثر أصالة من التشريع المصرى) ، وإنما هو قانون اجتماعى ، ينشئ العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الإلهية في العالم الآخر . فلا يحسب الملك أنه مضعف من سلطانه إذا أشرك الشعب في إدارة أملاكه . وبذلك يتطور نظام الحكم إلى شئ قريب من نظام اشتراكى في الدولة . نعم إن الفرعون يظل مالِكاً للأرض وما عليها ، ولكن بشرط أن يكون للجميع هدف واحد ، هو « خير المجتمع » . فالملك يؤدي خدماته في الدولة ، كما أن الشعب ، خاصته وعامته ، رعيه ووضيعه ، يعمل من أجل المجموع ، في الأرض ، وفي الحرف ، وفي وظائف الدولة . بل إن القوى الإلهية ، والطبيعة ذاتها ، تدرج هي أيضاً وتحشد في عداد الآخرين .

ودليلنا على قولنا هذا نلمسه في برديات من أواخر الدولة الطيبية ، يحدد نصها قائلاً : « هذا بلاغ للناس ، جاهلهم وعالمهم ، بما خلق ففتح وأبدع ، وما سجل توت وأثبت ، من كل ما يوجد تحت قبة السماء ، أو على ظهر الأرض » ؛ أولاً العوالم : السماء وقرص الشمس والقمر والنجوم والعواصف والرعد والفجر والظلمات والنار والماء والفيضان والبحر والبحيرة والأرض والرمال والزرع ، ثم الأحياء : الرب والربة ، والروح « آخ » (الميت المؤله) ، والملك القائم ، والزوجة الملكية ، والملكة الأم ، وأولاد الملك ، والأمراء ، والوزير وأمير الصحبة . . . إلخ . ويتبع ذلك موظفو الدولة المركزيون ، وموظفو الأقاليم (الشؤون المالية والعدل والجيش

والمعابد) ، وتنتهى القائمة بالكتابة وأصحاب الحرف الفنية ، والطهارة والتجارين والحفارين وعمال المعادن وصانعي أحذية الملك . . . (والبردية ناقصة) .

وهكذا يبدو لنا المجتمع المصرى مجتمعاً مجتهداً للخدمة العامة ، يضم ما حوله من العناصر إلى المخاوفات : الكل مسجل مدوّن ، كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى معاهدة الصلح بين روميس الثانى وملك الخيتا . حيث يستشهد على توقيعها بالسماء والأرض والرياح والسحاب

* * *

« تلك إذن كانت الأدوار التى مرت بها نظم الحكم : مجتمع على الشيوخ أيام العشائر ؛ وحكم مطلق مؤسس على الحق الإلهى أيام الدولة القديمة ؛ واشتراكية ملوكية بعد الثورة .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها ، فإن النظام الذى ظل المصريون مخلصين له — وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم — أظهر بحيويته ، وطول بقائه ورخائه ، قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستنداً إلى محكومين جبلوا على النظام . فالحضارة المصرية . بأوضاعها المتعاقبة . توحى إلينا بصورة شعب متماسك متناسق فى أصله ومنبته وروحه . شعب . وإن قل عدده ، يبنى بالقوة فيما أبدعته عبقريته الخارقة المدبرة . وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وإيمانه بالبعث ، ومثله فى العدالة .

ومرد هذا النظام إلى ظروف المعيشة التى فرضتها عليه القوى المسيطرة على البلاد : النيل والشمس . وإلى أنه — من ناحية أخرى — وريث مباشر للمجتمعات البدائية . أى أنه فى حالته الراهنة ، كما كان فى عصور البداوة . يخضع الفرد للجماعة ، ويعيش على اتصال دائم بالأرواح واحترام بنوى للتقاليد .

والمجتمع المصرى . فى نظام الحكم . وفى طباعه وأخلاقه وعاداته . يظل حتى النهاية فى صف المجتمعات الخاضعة للمقدسات . وهو فى هذا متخلف عن المجتمع الإغريقى الرومانى . تأمل المعابد المصرية يربعاها أمبراطرة روما . ويتوج الكهنة فى داخلها ملوكهم الأجانب . ليدعموا ويطيخوا سلطانهم وحياتهم بممارسة الطقوس . ويدفع هؤلاء الكهنة عن الآلهة والناس غائلة الموت . وذلك بتلاوة التعاويذ وإجراء

الطقوس التي وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، من أجل الفراعنة القدماء . عباد هوروس . فلا غرو أن نقرأ ، في مؤلف مكتوب في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس . هذا القول :

« مصر ظل الإله على الأرض ، وهي قدس أقداس العالم ، وحاضرة الأديان » .
فالعقلية القديمة ، على الرغم من الجهود الموائمة . ظلت تتحكم في مصر المتطورة ، والمصري لا ينجح إلى الحرية ، ولا إلى تكوين الشخصية الفردية ، إلا في فترات نادرة من أزماته الاجتماعية . وإنما هو استعداد للكمال ، دفع به إلى التجديد في فنونه وصناعاته . أما التحرر ، الذي يضمن للفرد حقوقه في مواجهة مطالب المجتمع ، ويطلق المرء من عقال العقيدة الدينية ، والفنان من قيود الأساليب المرسومة ، والمؤن من حدود الطقوس الجاهدة . والمفكر من التقاليد ، ذلك التحرر لم يظهر في مصر بوجه عام ، بل إن فلاسفة اليونان ومشريعهم هم الذين سوف يحررون الفرد من ربة هذه القيود كلها .

وعندما يفتح ملوك العهد الصاوي أبواب البلاد للغرباء ، يجيء أول من يجيء الأغارقة الذين تربوا في بحبوحة الديمقراطية المعروفة بالمدن اليونانية ، أولئك المشككون ، أبناء دولة العقل ، الفنانون الذين أبدعوا أسلوباً إنسانياً ، يجيئون إلى مصر ، فتشير دهشتهم تلك الآثار الهائلة ذات الطراز الثابت ، وتلك الحيوانات تؤله ، والملوك – الآلهة يحكمون دولة عظمى دون منازع ، وتلك الإدارة المركزية تتغلغل في كل شيء ، والشعب المستكين لآلته ولملوكه وأمرائه ! ما أشبه بها دهشتنا ونحن نشاهد حفريات الحيوانات الضخمة ، المنقرضة منذ عهود سحيقة ! فلا هيرودوتس ، ولا الآخرون ، فهموا عقلية المصريين . ولكنهم ، مع هذا ، أدركوا أنهم حيال مشهد كله روعة ، فريد فذ في دنيا العالم المعروف إذ ذاك ، يستوجب منهم أن يفهموه ويمثلوه جيداً ، قبل أن يضيع في عباب التطور والتقدم . ظهرت لهم مصر وكأنها الكنز الحافظ لحضارة الإنسان منذ مهاتها وأصولها . فهي عندهم أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، تحيا حياتها وقد آذنت بالأفول ، وتحفظ بآثارها منذ عصور واغلة في القدم : تحت سمعهم وبصرهم ، عبرة وأمثلة للمجتمعات « الجديدة » . وهنا أقبل الأغارقة ، أهل الشك . في رجعية عقلية غريبة على العقل

البشرى . يسألون كهنة هليوبوليس . لعلهم يتعرفون على أقدم التقاليد وأعرقها .
 هنا يبدأ دور مصر ، معلمة الأجانب ، عندما يقبلون عليها أفواجا : يجيئها
 المشرعون والفلاسفة يستوحون تجاربها الاجتماعية . وفلسفتها فيما وراء الطبيعة ،
 ويؤمنها من يتلمسون عقيدة تطمئن إليها النفس . محاولين فهم أسرارها الروحية .
 ويدخلها الفاتحون يتلقون عليها مبدأ من مبادئ السلطان . ويأخذون عنها أساليب
 الإدارة . فأى مثل يفوق هذا المثل ، يضرب لمؤسسى الإمبراطوريات . وهم يرون
 سلطة الملك ممثلة فى وظيفة مرصودة للخير والنفع العام ، قائمة على وحى الآلهة ،
 يرضى عنها الناس . لذلك يخترق الإسكندر سباسب ليبيا ، يطلب إلى آمون
 واحة سيوة أن يضفى عليه أبوته ، ويخرج المقدونى للناس فى صورة آمون وابن آمون ،
 ويتأثر البطالسة خطاه ، ويتلقى عنه قياصرة روما هذه الأمثلة ، فيتحولون وشيكاً ، فى
 إمبراطوريتهم ، إلى أرباب يعبدون .

أما عن تلك الأداة المتكاملة فى الإدارة المصرية . وهى أس عمل المجموع من
 أجل الدولة . فقد عرف البطالسة قدرها وميزاتها العملية . فحاولوا مصر إلى مصنع
 كبير للإنتاج . واستغلوا ثروتها الزراعية وصناعتها استغلالاً تاماً لفائدة المقيمين
 على ضفاف بحر الروم كلهم . وعند ما تتحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية ،
 تسمى مصر لا مخزن غلال العالم اللاتينى فحسب ، وإنما الولاية النموذجية فى نظام
 الحكم الإمبراطورى ، يحتفظ بها قيصر ملكاً لشخصه .

ومع كل هذا ، فإن الرخاء والعمل المنظم والإدارة الحكيمة لا تكفى لإطالة
 عمر أمة ؛ لأن الشعوب بحاجة إلى عقيدة ومذهب . ولقد ابتدع الفراعنة مبدأ الحق
 الإلهى لسلطة الملك ، ومذهب التعاون الاجتماعى ، وسادته الكهنة آلافاً من السنين ،
 وآزرته قوى الشعب الروحية والمادية . ثم جاءت الأجناد المرتزقة والغرباء يستولون
 من المصرى على مثله الاجتماعية العليا ، ويسلبونه إيمانه بالسلطان ، وعقائده وعاداته
 وتقاليده وكتاباتاته . فالحق أن الفكرة الفرعونية للمجتمع كان قد انتهى زمانها ، وقضى
 عليها بالعفاء . وأمست مصر فى قول أحد نصوصها : « جسماً بلا روح ، ومعبدًا
 بلا إله » ، وانطوت أسرار كتابتها عندما طارد المسيحيون السلالة الباقية من كهانها ،
 وانزوى حتى اسم مصر وكلمها المقدس ..

فلنستمع إلى الميثية التي تقطع نياط القاب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة الإسكندرية . وعند هذا الحكيم أن زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها إلى اليوم ، يفيض بها الرذاع الذى يودع به أسكليبيوس (فى القرن الرابع الميلادى) حضارة كانت فى زمانها خيرة مجيدة ، وهى تسير دون رجعة فى طريقها المحتوم إلى الزوال :

« سيجىء زمان يظهر فيه كأن المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقوس الآلهة ، بروح العبادة البررة ، والصلاح المؤمنين . وما دام الصلاح والعبادة والإيمان لم تؤد إلى شيء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوت واليأس . سترتفع الآلهة عن أرض مصر ، وستهجرها إلى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات ، وتغدو يتيمة من آلهتها ، لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . وإن تحمل أركان الدين فحسب ، بل إن المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التى تجعل من إيمانهم وصلاتهم وعبادتهم أمراً محظوراً ، وهذا أقسى ما يرزوها به القدر . وحينذاك ستتحول تلك الأرض القدسية ، مئوى المعابد ومعشر الآلهة ، إلى أجداث وأرماس .

يا مصر ، أى مصر ! لن يبق من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة إيمانك ، لا يأخذها الخاف مأخذ الجد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى » .

* * *

فإذا كان هؤلاء الأقطاب من المؤرخين الأجانب يقفون بتاريخ مصر وحضارتها القديمة عند حدود تخصصهم ، ويعتبرون موت الحضارة الفرعونية نهاية لتاريخ مصر ، فإن تلاميذهم المصريين — وهى ظاهرة طبيعية ، ولكنها جديدة أن ينوه بها — كان من غير المعقول أن يقفوا منها هذا الموقف . لذلك أختتم هذا الفصل بما انتهى إليه مؤرخان مصريان ، أولهما أحمد بدوى . صاحب كتاب « فى موكب الشمس » . ولن ننقل آخر كلماته . لأن كتابه فى حكم غير المنتهى ، فقد وقف منه عند آخر الرعامسة ، وإنما نقتبس الكلمة التى اختتم بها ما سماه « نظرة عابرة » ، فى آخر مقدمته ، قال :

« وبعد ، فهذه صورة عاجلة من تاريخ مصر . ومن سيرة حظها العجيب ،
 تربنا كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل . كل
 عرض يفنى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى . فخالدا لا يموت » .

~ * ~

وثانيهما أحمد فخرى ، فى كتابه « مصر الفرعونية » . وهو يختمه بهذه الكلم:
 « لقد سكنت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى
 العازفين : ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبنائها وحجراتها . يهتف بمجد
 مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطرأ أو صفحة فى ذلك الكتاب
 الكبير الضخم ، الذى سطره المصريون بأنفسهم .

« إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .
 « لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونياها ، وزالت
 الدول وزال الغزاة ، وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين ؛
 وستظل للمصريين تقاليدهم المحيدة ، طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه . يفيض
 بالخير والبركات ، وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين » .

الحضارة المصرية

بالفصل السابق مختارات مما ختمت به بعض كتب التاريخ ، ونريد الآن أن نفهم لماذا يجمع المعجبون بمصر القديمة من المؤرخين الأجانب على القول بأن مصر انتهت بانتها الحضارة المصرية ، ويهملون أمر مصر كله بعد ذلك . ولا يمكن أن يتهموا بسوء القصد ، أو الخطأ في التعبير ، وجلهم يختمون كتبهم بما يشبه ما جاء في أحدها ولم أسجله في الفصل السابق . احتقاراً لشأن كتيب عن مصر القديمة ليس في العبر ولا في النفيير ، إذ يقول : « جاءت الساعة المرصودة في لوح القدر ، وأن لمصر أن تموت » . كذا !

لا أظن هذا مجرد إجماع على الخط من شأن أمة عاشت في عين الدهر ، بعد نهاية الأسرات ، نيفاً وألني عام ، وما تزال حية ، وفي عنقوان الشباب ، وكأنها خلقت خلقاً جديداً . وأذكر في شباني أول لجنة دولية جلست فيها مندوباً عن بلادي ، وكانت اللجنة تضم ممثلين لبلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان موضوع اجتماعها علمياً محضاً ، لا علاقة له بتاريخ حضارة قائمة أو بائدة ، وكنت أصغر الحاضرين سنّاً ، فجاءت في خطابي إشارة إلى مصر « الدولة الفتية » ، وإذا بأولئك الشيوخ الأعلام حولي يتبادلون النظرات ، ويعلق أكبرهم على كلامي قائلاً : كنا نظن قبل أن يتكلم المندوب المصري أن مصر أقدم البلاد وأعرقها ! فأجبت على التو بأنني لم أقل الأمة ، أو البلاد ، وإنما قات « الدولة الفتية » .

ولم يكن في تعليق المندوب الكبير ما يتعدى مداعبة شيخ لشاب ، وفي حدود الاحترام لبلادي القديمة والحديثة . هذا وأغلب العاملين في الدراسات المصرية القديمة من أصدقاء مصر . لذلك أحب أن أضع على لسانهم فيما يلي ما أحسبه منحي تفكيرهم :

إننا نرى الحضارة المصرية القديمة شيئاً رائعاً حقاً ، وما حدث على ضفاف النيل من انتقال الإنسان من البداوة إلى تلك الحضارة الرفيعة ، وقبل كل الشعوب ، ودون

مساعدة من الآخرين ، هو ما أردنا أن نقص عليك أحسن قصصه ، بعد أن قضينا حياتنا ، وأساتدتنا من قبلنا ، ننقب عن آثار مصر ، وننقل ونترجم . ونسجل ونقارن . فإذا انحدرت شمس تلك الحضارة نحو المغرب ، شعرنا بالحزن يملأ قلوبنا ، وأحسنا بأن أروع صفحة من صفحات التاريخ البشرى تطوى نهائياً

أى نعم ، ستعرف بلادك حضارات ، وإن تغرب شمس الفن والعرفان عن بلادك . فلنسنا نحن الذين ننكر حضارة الإسكندرية ، ولا ما أدته مصر للمسيحية الأولى ، ولا أن مصر قلب الحضارة الإسلامية الخفاق منذ أكثر من ألف عام . ولماذا نذهب بعيداً ، وإليك ما قاله أستاذنا أوجست مارييت :

« مصر لا تشرق بضع لحظات ثم تغيب في ليل طويل ، كما حدث في بلاد أخرى ، بل العكس هو الصحيح ، فإن يمن طالعتها العجيب أراد لها أن تواصل عملها سبعين قرناً . وأن تترك أثرها في ناحية من النواحي واضحاً جلياً ، فيما يكاد يشمل جميع حقبات هذا التاريخ الطويل . ففي العصر الفرعوني ظهرت مصر ، في غابر الزمان ومطالع الدهور ، جداً أعلى لجميع الأمم ، بملكها خوفو ينشئ بناء لا يتفوق عليه الفن الحديث ، وبملكها تحوتمس ، وأمنحوتب ، وروسيس ، يسحبون خلف عرباتهم الحربية أسرى من جميع الأجناس التي عرفها ذلك الزمان . وإبان الحكم اليوناني والروماني نرى مصر تتحكم في عالم الفكر ، كما تحكمت من ذي قبل بأسلحتها ، فهم فلاسفة الإسكندرية الذين تولوا الحركة الفكرية في غضون أزمة من أشد الأزمات الروحية ، وهي الحركة التي تمخضت عن العالم الحديث . وفي القرون الوسطى شاد الفن العربي بالقاهرة منشآته التي تعز على التقاليد ، ووقفت مصر سداً منيعاً أمام الصليبيين ، وأسرت عاهلهم لويس بالمتصورة . وفي أيامنا تجيء الحضارة الحديثة لتعيش على ضفاف النيل ، فتستأنف مصر سيرها بخطوات واسعة في ركب التقدم ، وإذا العالم أجمع ينتبه إليها » .

ونحن نؤمن على ما يقول مؤرخ من مؤرخي مصر الحديثة ، إدوار دريو :
« ليست مصر طريقاً ، ولا معبراً ، ولا هي ورقة كوتشينة ، في الألاعيب المعقدة بين الدول ، ولا يمكن أن تكون مصر مستعمرة للاستغلال ، أو لاستيطان الغرباء .

« مصر جذوة إنسانية ، من أقدم الجذوات اشتعالا . وأروعها وأظهرها للعيان ، في كل ما أوقد حول البحر الأبيض المتوسط من مشاعل الحضارة على مدى الأجيال .

« مصر صنعتها رواسب حضارات لا يعادلها في الثراء إلا طسى نهرها الإلهي ، وامتزجت في تربتها ملايين من الأجساد : أربعة آلاف عام من حكم الفراعنة : منف ، طيبة ، الكرنك والأقصر . ضفاف النيل أحداث ألفية ، طابقاً فوق طابق ، تنطوى على كنوز من الفكر والفلسفة .

« وألف عام من الحضارة العربية ، أضافت كنوزاً إلى العلوم والآداب ، إلى جانب تلك الآثار الفنية من جوامع ومساجد ، بوحى القرآن . تتحاو حول الجامع الأزهر » .

ولكن ما حققتهم في عصوركم التالية لعصر الأسرات ، حققه غيركم في أصقاع أخرى من العالم . ولم تعد لكم ميزة التفرد والتفوق ، وهي الميزة التي كانت لكم في فجر الإنسانية .

وهنا يضيف العلامة كورت لانجه :

« لتكني برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيرة من الشعوب — منها مصر وسومر والصين — استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة في الأزمان السحيقة . وأن تنهج لنفسها أسلوباً في الحياة يعد من أغنى وأصح ما حققه الجهد البشري في هذا السبيل ، وهو أسلوب لا تدين به لغير نفسها ، ورجاحة عقلاها ، وصدق شعورها . وتتسم به ذروة رفيعة من ذرى التمدن ، وبهذا تمهد للبشرية طريقها إلى الرقي . وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر في الحضارات التالية لحضارتها — وما أكثر من ينكرون عايتها هذا الأثر — ولكن الرأي مجمع : حتى عند هؤلاء الجاحدين ، على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل إلى اليوم » .

فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة ، وإذا لم تنفعلوا بتاريخكم الأول مثلما نفعل نحن الغرباء ، فلا تلو من إلا أنفسكم !

• • •

قال ولسون في كتاب « قبل الفلسفة » :

« الميلاد الربوي للشمس . والميلاد السنوي للنهر يشكّلان قسماً ، الطبيعة المصرية . كانت مصر غنية ولكن في غير إسراف ، ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمراً جنيّاً ، ليغتتمه زراع كسالى . الشمس والنيل يشتركان في إعادة الوادى إلى الحياة . ولكن بفضل جهاد الشعب المصرى ضد الموت ، فالشمس تدفئ ، ولكنها في حمارة القبيظ تلوح وتلفح . والنيل يحمل إلى مصر المياه والظمى والخصب ، ولكن فيضانه السنوى قلب . لا تنفع فيه نبوءة ، فالفيضان العالى يغرق الأرض والحرث والنسل . والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء . عالياً كان أم واطئاً ، فهو يجيئ دفعة واحدة . وينتهى عاجلاً . مما يلزم سكان الوادى بالعمل المضنى لحزن مياهه . وتنظيم الري نوبة بعد نوبة . والصحراء عدو متحفز . يقرض الأرض المزروعة . ويحبل الخصب محلاً . وهى إلى ذلك موطن الأفاعى والضواري والغيلان والسعال . وبطائح الدلتا وقد تحولت أجسام ومستنقعات . تتطلب الري الدائم حتى تعود حمولاً مزروعة . والبلاد تشرف على الفناء في ربع العام تلفحها الرضاء . وتلوحها الشمس . وتهدها التحاريق . حتى يعود الفيضان . فيعتدل الجو . وبارك الله أرض الكنانة . ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين . ولكن ذلك لم يكن ليعنى أهلها من الكفاف الدائم والحرمان . أو ليحميها من الأخطار . مما يجعل ظفرها المسمى أروع أثراً وأصدق . إذ لم يجيئ نعمة سابعة . وإنما حققه التعب والنصب .

« وثمة صفة أخرى لوادى النيل تنعكس في أخلاق أهلها : وحدة المناظر . واتزان عناصرها : الشاطئ الشرقى يوازن الضفة الغربية . وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا . وسواء أكان هذا التقابل فعالاً أم غير فعال . فإن المصرى كان شديد الإحساس بالاتزان والنظام والهندسة . يتجلى إحساسه ذاك في فنونه وآدابه . وتنسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع :

أصغ إلى أقوالى . أعزنى سمعك .
 إننى ألقى إليك بالكلم لتعرف أننى ابن رع .
 خلقت من صلبه . لأجلس هائئاً على عرشه .
 مكن لى فى الأرض . سيداً على الوادى ،

سديد رأيي ، يتحقق على الأيام تدبيرى ،
أنا حامى الحمى ، أنا المدافع عن مصرى »

• • •

لا شك أن وحدة الشعب المصرى أقدم وحدة تمت لامة ظهرت على وجه البسيطة ، وأقواها . سواها النيل وطميه ، وأحيها الشمس المشرقة . فالشعب المتحضر ، أى الشعب الذى يفلح الأرض ، اضطر إلى ترتيب معاشه حسب ارتفاع النيل وانخفاضه ، ونظم تقويمه على حركات الشمس والفصول ، وضم شمله ليستطيع أن يحقق أعظم النفع من طمى النيل وشمس مصر ، وليدفع عنه غوائل الفيضان ، أو خطر القحط والأوبئة إذا ما أصيب بفيضان منخفض . لذلك نفهم أن تتجمع العشائر المصرية الأولى حول وادى النيل فى مراكز أو مديريات عرفها الإغريق باسم « نومس » وهى الكورة ، ولكل كورة إلهها ، وربما مجموعة آلهها ، وقد تكون مجرد طواطم ، ولكن تجمع الكور فى أقاليم ، ثم فى إقليمين كبيرين ، قضى بتجميع تلك الآلهة ، وتغلب بعضها على بعض . بيد أن أساس ديانة المصريين كان عبادة الشمس والنهر ، وكما تعود الحياة إلى الأرض الموات بعودة الفيضان وبقوة الشمس ، فإن المصرى الأول بنى عقائده على فكرة النشور ، أى الحياة بعد الموت ، وبذلك يمكن القول بأن الإله الأكبر الذى اشتركت فى عبادته الأقاليم كان رع - الشمس ، وكان أوزيريس الذى بدأ معبوداً للوجه البحرى ، إله النشور ، والعالم الآخر .

والهندوكية أيضاً - وهى وثنية متعددة الآلهة ، ما تزال قائمة إلى اليوم - تقول بعودة الميت إلى الحياة ، لا فى العالم الآخر - فليس للهندوكى عالم آخر - بل فى هذه الدنيا ، وفى صورة متناسخة ، صعوداً فى سلم المخلوقات - إن كان المتوفى من الصلاح - وانحداراً إن كان طالحاً ، ولكنه فى الحالين معذب ، فالحياة عذاب . وينتهى عذاب هذا التناسخ بعد سلسلة من العود إلى الحياة فى صور متشكلة من إنسان أو حيوان ، عندما يبلغ الهندوكى مرتبة القداسة القصوى ، فينتهى بموته إلى التلاشى التام فى البراهمان .

فالهندوكى ، ~~سجين التناسخ~~ ، شقى حزين ، كل ما يأمله أن يتخلص من

هذه الحياة ويفنى . . . في الرفانا !

أما المصريون القدماء فقد دفعهم حب الحياة إلى الحرص على امتدادها بعد الموت . ألا يكون تفسير هذا أن المصرى السعيد يعيشه الرغد ، كان لا يطلب إلا أن تطيل الآلهة عمره في الدنيا ، وفي الآخرة ؟

* * *

يتقدم البشر من الفطرة إلى البداوة ، ومن البداوة إلى الحضارة ، أو قل إنهم ينتقلون من التوحش إلى التبرير . ومن التبرير إلى التحضر . والإنسان الأول صياد قناص ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يكون وحشاً ضارياً يضرب بمخالبه ، ويمزق بأنيابه وأظلافه كالأوبد . فهو حيوان ضعيف البنية بالنسبة لسكان الغاب والأحراج ، نالم الأسنان ، مفرطح الأظافر ، يدرج في زمرة أهل الحيلة والمكر من الحيوانات . هيأته الطبيعة ليأكل من خشاش الأرض ، وأوراق الشجر وفواكهها . . . ومن لحوم الحيوان والسماك . هدته حيلته إلى مخترعات هائلة في بساطتها : اكتشف طريقة لإشغال النار ، وصنع البومرانج والنشاب والقوس والسهم . واخترع الشص والجوية لصيد الماء ، وحذق « المقلب » يحفرها لأخيه الحيوان . . . والإنسان ، دون أن يقع هو فيها ، وقد يقع . ثم حول قطاع جذع شجرة يتدحرج ، إلى عجلة تدور ، واستألف الحيوان يفتنيه لغذائه ، ويروضه لمعونه . وعرف الزراعة ، مقلداً الطبيعة . وصنع الأواني ليخزن فيها الحبوب . وكان قد ترك سكنى الكهوف وأعلى الأشجار ليحفر في الأرض مأوى ، أو قبراً . وتعلم كيف يكسوه بأغصان الشجر ، ثم يجذوعها . وكيف يجدل سوق النبات حصيراً ، ثم عرف كيف ينشئ من جذوع الأشجار وأغصانها كوخاً مسقوفاً ، أى أنه انتقل من حياة الهائم يطارد ويطارد ، إلى نوع من الاستقرار انتهى إلى النجع والحلّة والقرية .

والمصرى مر بكل تلك الأدوار ، وقد عرفنا بعض آثاره فيها : درس العلماء « حضارة » عصوره الحجرية ، وظهر أنه اتجه قبل الأسرات بزمان طويل اتجاهات اجتمعت فيها خصائصه الإنسانية كيفها طبيعة بلاده . وفي آخر عهده الحجري الحديث ، قبيل الأسرات ، ابتكر رموزاً مصورة يسجل بها بعض كلامه . وعرفناه

يواصل صناعة الطران طويلا ، حتى في عهد الأسرات . وإذا كان استعمل النحاس مبكراً ، فلن يصل إلى الحديد إلا متأخراً ، وربما في العهد اليوناني ، أو قبل ذلك بقليل .

بلغ الإنسان المصري قبل عهد الأسرات « حضارة » فيها النحاس ، وفيها الكتابة ، ولها نوع من التفكير الديني بالخلق ، وبالحياة قبل الميلاد ، وبعد الموت . وفيها فن بدائي استودعه انفعالاته بشيء سماه « نقر » ، ربما عني به « الجمال » وربما « الخير » ، وربما كل شيء طيب .

والمصري ، في الأسرات الأولى ، حقق ما أخطأ العالم الأوربي في وصفه بالمعجزة ، كما سبق له أن وصف حضارة الإغريق بهذا الوصف . وليست هناك معجزات في تكوين الحضارات ، مصرية أو سومرية أو يونانية .

ولسنا مرتبطين في هذا الكتاب بخطة جمع المعارف وحشدها ، إنما نحن رحالة في رحاب التاريخ نشاهد آثار الحضارة المصرية حولنا ، ونقرأ عنها ، ونقلب صفحات الكتب التي تسجل صورها ، لتذكر ونتمتع فيما رأيناه منها بين الركام ، وفي هجير الحر ، تحت الأرض وفوقها ، نصف التراب والرمال . ونهش الذباب والهوام . . . والأدلاء . وينادى علينا من باب المقبرة ونحن في أسفل سافليها بأن الأنوار ستطفأ ، و « الأسطي عاوز يروح الأقصر » ، وإبور الكهرياء حايقف ! . فهي الكتب بصورها تجدد الانفعالات التي انطبعت في نفوسنا أمام الأصول . ثم نسجل ما وعته ذاكرتنا عندما نأوى إلى مخادعنا بعد يوم عناء للجسد . وغذاء للروح . وخطأ الرحالة أنه يريد أن يشاهد كل شيء ، فينتهي به الإجهاد إلى ثلم إحساسه ولقد عرفت ، كرحالة قديم ، كيف أختار ، وكيف أقنع بالقليل من الكثير ، لأحتفظ برواء الأثر الفني وجدته .

وما زلت أتصور متحفاً للآثار المصرية تكفي ساعة أو ساعتان لارتياحه ، تنخير له القطع الفضة من فن المثال والحفار والرسام ، ونسقه بطريقة فنية تحيط كل تحفه بما يبرز محاسنها ، ويؤكد خطوطها وأقوامها ، وانبعاجاتها وتكورها . ينتقل الإنسان في ذلك المتحف الصغير وكأنه يتريض في « نزهة الفن والروح » ناعماً بما يرى ، لا يستعجل الزمان خطاه ، ولا تشغله ماثات التحف بمئة ويسرة ،

تزوغ بينها عيناه ، وتتصلب رقبته ، فهو يتلفت كمن يخشى مباغته طارئ مهاجم ، يرفع الرأس ويخفضها ، ويميل بها ، يركع ويسجد ، يصبو النور إلى عينه هنا فلا يرى شيئاً ، ويضايقه الظلام حيث يجب أن يشاهد ويتأمل .

المتحف الذى أتصور ، بناء مستقل عن دار الآثار المصرية ذات التاريخ المجيد ، ردهاته محدودة ، ويا حبذا لو استوحى المهندس فى بنائه ذلك المعبد الصغير الجميل الذى أعاد بناءه هنرى شقريبه فى ساحة الكرنك حديثاً ، وهو من آثار سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة . كان يودع فيه تمثال الإله آمون الفحل ، وسفينته المقدسة .

ولست هنا متخيلاً أو حالماً ، فقد نشأت فكرتى هذه منذ ابتدع متحف اللوفر . قبيل الحرب الكبرى الثانية ، بدعة الزيارات الليلية ، وخصص لها قاعات صغيرة فى بدرون القصر . واختار لها قطعاً ممتازة من مجموعات الغنية التى انتهت هى الأخرى فى الطوابق العليا إلى ما يشبه « سوق الكانتو » المعروف عندنا قديماً باسم « الأنتكخانة المصرية » . هناك فى ذلك البدرون على ضفة السين الجنى أحسست ، وربما لأول مرة ، بروعة جمال الفن المصرى . وبذلك رحم اللوفر زواره من الإرهاق ، يمثل ما فرقه به زوار المتحف المصرى .

والفنان المصرى لم يكن « أرست » بالمعنى الذى نعرف . لم يصور ولم يحفر ولم ينحت تماثيله لتراها العين فى معرض ، أو ليقنيتها الأثرياء فى دورهم . إنه يعمل للأبدية ويشغل فى نطاق الطقوس الدينية ، فهو والمخط والكاهن الذى يتاوى التعاوىذ والبناء والمبيض . يعدون « للمرحوم » — باعتبار ما سيكون — مثواه فى الآخرة .

ونحت التماثيل نشأ فى أول أمره حلاً لمشكل بقاء الجثمان ، فإن المصرى لم يضمن مع التحنيط . الاحتفاظ به : وعفريت الميت ، أو قرينه « كا » فى الأصح ، بحاجة إلى جسد يتمثل فيه بشراً ، فإذا ما اختفت المومياء ، راحت على الميت حياته الأزلية . فتماثيل الأسرات الأولى بدأت غالباً كبديل للجثمان . أو احتياطى لها .

ومجموعة التماثيل التى انحدرت إلينا من تلك الأسرات لا تمثل الفن المصرى فى ذروته فحسب ، بل إنها تضعه إلى جانب آثار الفنون العالمية التى عرفها التاريخ فى أجمل عصوره ، بعد قرون من انهيار الحضارة المصرية .

فلنؤم المتحف المصرى لنشاهد بعض هذه التماثيل ، ولنتصور تحقيق فكرتنا فى متحف « المختارات » فنقتصر على قلة منها . إنك ستعرفها كلها واحداً واحداً ، وتكاد تقرئ « شيخ البلد » ، السيد كا - آبر ، السلام فى شيء من الألفة ، وتحديج الأميرة نوفرت بنظراتك وأنت تحسد زوجها رع - حوتب على حسن ذوقه فى اختيار رفيقة حياته ، جمالا ودعة . وللعثور على هذين التمثالين الجالسين قصة أحب لك أن تذكرها وأنت ترى الوجوه المزججة ، والعيون البراقة ، والألوان المشرقة ، يكاد بهم صاحبها بالتحدث إليك . فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كان العمال القائمون بالعمل فى حفائر المدعو دانيوس باشا يفتحون مصلى مقبرة مكتشفة حديثاً لأمر من أمراء الأسرة الرابعة ، بوادى ميدوم ، وإذا بهم يتراجعون مذعورين ، وهم يؤكدون للعلامة المشرف على الحفر أنهم رأوا عيون الأرصاد السحرية التى تحرس للكنز ، تلمع غضباً ، وتهدهم بالويل والثبور !

هذه أعمال النحات المصرى تصور الإنسان أميراً . أو كاتباً ، أو موظفاً عمومياً ، كلا على سجيته . ولكن فى تشخيصه للملوك استطاع أن يحقق أعجوبة بيسيكولوجية . فلنلق نظرة على أعظم قطعة فنية فى التاريخ المصرى كله ، ومن أجمل وأقوى ما حققه فن المثال فى العالم أجمع : تمثال الملك خضرع ، من حجر الديوريت الأسود مجزعاً ببياض . لن تما لك من الشعور بأن هذا الجالس أمامك إنسان رفيع المقام ، والألفة بينك وبينه ليست ميسرة ، تلك الألفة التى شعرت بها أمام الأميرة نوفرت . والخنرال رع - حوتب ، والسيد كا - آبر . لم يصنع المثال شيئاً خارقاً يعلن أنك بحضرة ملك عظيم ، لأنك إذ تنظر إلى التمثال من أمام ، لن ترى علامة ملكية واحدة . إذا لم تبين رأس الصل فوق جبينه . إنما هى النظرة الجانبية تقلمك إلى الإله هوروس فى صورة باشق يحمى رأس الملك بجناحيه . وستطالع على جانبي المقعد رمز مصر العليا والسفلى . فأنت إذن فى حضرة ابن هوروس - رع - هاراختى . صاحب الهرم الثانى ، أجمل الأهرامات فى عيني ، يزهو على جاره الأكبر بتاجه الهربى الكامل . لم يصوره المثال فى جلال الملك ، وقوة السلطان . جباراً عاتياً . ولكننا نواجهه ، من دون شك ، شخصية بارزة ، رافعة الرأس فى ثقة بنفسها ، واطمئنان إلى قوتها . ولست أدري من أين جاءنى فكرة قديمة فى شبانى -

عرفت تفسيرها فيما بعد - وهى أننى كلما رأيت وجه أبى الهول ملأت فراغاته ، وأكملت سيماه وتقاطيعه برأس خضرع هذا . كم أحب أن يوضع تمثاله الهائل فى مكان منفرد بمتحف المختارات فى صدر المكان ، يبلغه الزائر بعد أن يتم مشاهدة روائع الأسرات الخمس الأولى . ومن رأى أن الزائر الفنان ، إذا أحب أن يحتفظ فى نفسه برعدة الفن ، يجدر به أن يكتفى من يومه بزيارة مختارات فن الدولة القديمة ، وأن يعود إليها مثنى وثلاث ورباع ، لأنه سيكون حينئذ قد تشرب روح الفن المصرى فى أرقى وأخلص أعماله .

وليس فى نيتى ، بطبيعة حال هذا الكتاب ، أن أعدد الأعمال التى أقترحها لمتحف « المختارات » . فلن يعسر على حسنى الإرادة ، إذا ما استقر رأى على تنفيذ مقترحي ، أن يلهم من هم أقدر منى على ما يختارون ، وكيف ينسقون مواضع مختاراتهم .

• • •

هل ساءلت نفسك إن كان المصريون عرفوا كلمة « فن » ؟ وما علامتها الهيروغليفية ؟

يقول فقهاء اللغة البربائية إن الرمز الهيروغلى الذى يمثل « مثقاباً للصخر » معناه هذه الكلمات : فن ، صنعة ، حرفة ، فنان . صانع . فلم يكن لدى المصريين - ولا عند اليونان فى هذا الشأن - كلمات تميز الفنون عن الصناعات . والمثال الذى صنع تمثال « شيخ البلد » من خشب ، أم نحت تمثال « قى » من الحجر الجيرى ، لم يكن إلا صانعاً فى « شركات المقاولات المتحدة لبيوت الأبدية » ، أى أجيراً لنقابة الحانوتية . فتنى يتحول هذا الصانع إلى فنان ؟ لاشك أن عنايته أولاً وآخرها - وهذا شئ - يميز الصانع المصرى فى كل عصوره الفنية الزاهرة ، من عهد الأسرات وما قبلها ، حتى قضت على فنه حضارة القرن التاسع عشر الآلية ، والتفرنج الذى طمس على عيوننا ، وحى بقايا الذوق الفنى من نفوسنا - أقول إن عناية الصانع المصرى كانت فى إجادة عمله فحسب ، حتى يجيء تمثاله مطابقاً للأصل . لأن فى هذا ضماناً لنجاح التحول السحرى عندما تنفخ « كا » فى التمثال حياة صاحبه ، أى عندما يلبسه عفريت المرحوم . ولكن الفنان ، فى محاولته

المطابقة ، تتداخل في نفسه تلك العوامل المجهولة التي تقود يده إلى اللمسة الروحية اللامحة ، فيجىء التمثال صورة للواقع . وصورة لانفعالات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك . كما بحثت أنا طويلا . عن مركز هذا الصانع الفنان في المجتمع المصرى القديم ؟ لأننى حقاً غلوت في الدعابة عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفر بجواب . لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك في الصعيد شيئاً غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق . وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطنبول عنتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراهم مفشوشو الآثار وخفراؤها ، أو من واتهم الحظ والثراء فصعدوا النيل في ذهبية أو باخرة .

لو أننى في ذلك اليوم البعيد ذلت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت في أية فلاة أترك السيارة ، لتوصات إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثالها الأكبر « تحوتوموزى » . ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتوموزى الخاص ومرممه . وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبياناه . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه . ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصه وحده ، لأن بيت المثال توتوموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التي فازت منها متاحف برلين بالنصيب الأوفر . ومن هذا النصب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التي صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صنع قالب من حمأة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء في أوربا على ما يعرف بالـ « القناع الجنائزى » . وفي متحف القاهرة رأس لنفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامه من هذا الرأس المصبوب . حتى ذلك الرأس الجميل لزوجته أخناتون الموجود حالياً ببرلين . وقد زعمت ألمانيا قبل الحرب

أنها على استعداد لرده إلى أهله ، لولا أن المصور الفاشل ، مبيض الجدران ، المدعو أدولف هتلر . زعيم ألمانيا في ذلك الوقت وقع صريع هوى نفرتيقي !
هذا ما أردتك أن تعرفه : الفنان المصري القديم ، مع ما تقيد به من محاولة نقل الطبيعة ، ومن التزام قواعد وتقاليد مرسومة منذ عهد الأسرات الأولى ، استطاع .
على الرغم من تلك القيود . أن يفعل بوجيه الداخلي ، وهو يترجم عن الطبيعة .
ولعلك أن تعود إلى تمثال خضر لتحاول لهذه الأعجوبة الرائعة تفسيراً .

* * *

الحضارة المصرية . إن لم تكن أثرت تأثيراً مباشراً على الأمم التي اتصلت بها .
كما لا يزال ينكر ذلك عليها بعض المؤرخين . فإنها على الأقل عمات عمل الحضائر
في العالم القديم والحديث ، بما قدمت من أمثلة على ما يبلغه جهد الإنسان العقلي
والجسماني والاجتماعي . وهي حضارة يمكن أن تجد فيها العناصر التي تثير عجبك
وإعجابك . من أية زاوية نظرت إليها ، وأية ناحية طرقت دراستها ، بشرط أن تكون
مدركاً لحالة البشر في العهود الأولى لتلك الحضارة : في العلوم التطبيقية . لا سيما
الهندسة والطب . في المعاملات ، تنظمها التقاليد والتشريعات ، في نظم الحكم ،
في الري والزراعة وتربية الحيوان ، أو في تلك النواحي التي لا يكابر فيها مكابر ،
وهي هندسة البناء ، وفي فنون العمارة والحفر والنحت والتصوير والصناعات الزخرفية ،
وأخيراً ، وليس آخراً . في تلك المغامرات الروحية للإنسان بحثاً عن الخالق ، وتحديداً
لعلاقاته بما وراء الكون والطبيعة ، وما بعد الحياة الدنيا .

كما أن للطاعن في حضارة أجدادنا أن يكشف عن أوجه الضعف فيها . سواء
في نظراته إلى روحانياتها أو إلى حياتها المادية : توقف الفردية وجمودها عند حلول
لم تتغير مدى الثلاثين قرناً التي لبثتها تلك الحضارة . وقصور في مجال الفكر المطلق
والمغامرات الذهنية التي تميزت بها الحضارة اليونانية أو الهندية . والتغيرات التي حدثت
لم تتجاوز حدوداً مرسومة أملت العقائد الراسخة . ووضعها المبتكرات الأصلية التي
تفتقت عنها أذهان شعب الدولة القديمة .

والحضارة المصرية غريبة عنا — حتى نحن أحفادها الأصالي ! — إلى درجة
أن حكمنا عليها يصح أن يكون موضوعاً بحثاً . فنمتدحها أو نقدح فيها . تبعاً

لحكم العقل وحده ، دون العاطفة . فلا تعجب أن ترى الناس بيننا فريقين أو ثلاثة :
 الجيل القديم المحافظ ، وما تزال نظرتة إليها موسومة باحتقار « تلك الكفريات » ،
 والجيل الحديث يشمل القادح والمادح ، والمدح والقدح يتسمان بالمبالغة والمغالاة .
 والواقع أن الموضوعية تباعد بين الناس وبين إدراك معنى هذه الحضارة المصرية ،
 لأنها ليست موضوعية منزهة ؛ فنحن نتأثر دون شك بظروفنا الحاضرة وبتفكيرنا
 الحديث ، كما نتأثر بماتلا الحضارة المصرية من حضارات ما بين النهرين واليونان
 والرومان والإسلام والرئيسانس وما بعده . فلا تحسبن أنك واصل إلى قلب الحضارة
 المصرية بانتهاج موضوعية زائفة . إنما الموضوعية المثمرة أن تحاول الاندماج في الحياة
 المصرية القديمة ، وأن تحاول التفكير كما كان يفكر أسلافك في سنة ألفين أو سنة
 ثلاثة آلاف قبل الميلاد . وأن تعمل . في كل ناحية من نواحي الكشف عن هذه
 الحضارة . بنصيحة ناقد فني كبير تخصص في فن الرسم عند المصريين القدماء
 قال : يجب أن نبدأ بنسيان معارفنا الحديثة في فن الرسم . حتى نستطيع فهم الصور
 المصرية والحكم عليها .

» * *

قلت منذ لحظة إنك حين تلتقي بتمائيل الدولة القديمة بالمتحف المصرى . ستقبل
 عليها في شيء من الألفة . وستحس كأنك أمام أشخاص تعرفهم جيداً . وكنت
 أود أن أضيف : حتى لو أنك التقيت بأحد هذه التماثيل في بلاد الغرب . مثل لقائى
 بتمال « الكاتب المترع » بمتحف اللوفر .

لقد حدثت في حياتى الطويلة ببلاد الغرب ظاهرة ربما لم أنتبه لها في وقتها .
 ولعل أغلب من سافر مثلى شاباً ليقضى سنوات في الخارج . خبر إحساس الحنين إلى
 الوطن الذى يعرف في لغات الغرب بالنوستالجيا . وهو شعور يستولى عليك بحدة في
 الأشهر الأولى من إقامتك . ولكنه لا يفارقك طوال إقامتك بعيداً عن أرض
 « كيمي » .

ومع أننى سافرت إلى أوروبا كلفاً بحضارتها - وما زلت . مما حكيت بعضه
 في كتابى « سندباد إلى الغرب » - فإن انصرافى التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك
 الحضارة وأصولها . لم يحمنى من نوستالجيا أرض كيمي . وكان الحنين إلى الوطن

يعاودنى . فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيداً عن بلادى . ويرى بعض المواطنين علاجاً له فى أن يجتمعوا للاستماع إلى اسطوانات المطربات والمطربين المصريين . أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم .

وعرفت . إلى مثل هذه العقاقير ، علاجاً كنت أمارسه دون قصد أو وعى . إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى . كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة . وأذكر جيداً زيارتى « للكتاب المتربع » الذى يعتز به متحف اللوفر ، لأنه حقاً من أجمل أعمال الدولة القديمة . وإذا بالكتاب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذة لا تنجى إلى محدته . خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى « لغط » ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى، وأنى أسمع هذا اللغط الموسيقى ينزل على قلب النازح عن وطنه برداً وسلاماً . كما لا أنسى زيارتى الأولى للمتحف البريطانى . وكانت أول مرة أسمع فيها أن لنا تاريخاً وآثاراً سابقة على عهد الأسرات، حتى رأيت أميناً كهلاً من أمناء المتحف يشرح لمجموعة صغيرة من شباب البريطانيين حياة ما قبل الأسرات المصرية ، أمام قبر من قبور أهلها . لحظ الرجل ذلك الشاب الغريب الدخيل على محاضرتة . وكنت أعطى رأسى ببيريه من بلاد الباسكيين . فبدأ حديثه قائلاً : « نحن هنا ندرس حياة أعرق الشعوب حضارة . . . (ثم يحدجنى بنظرة المتبرم بى) . . . لسننا مجرد عابرى سبيل . . . نحن هنا نتفحص ونعود إلى كتبنا لنذاكر . . . (نظرات كأنها تقول : سامع يا بارد ؟) . . . لسننا من أولئك الأشخاص السطحيين الذين يمرون بهذه الآثار العظيمة ، وكأنهم يشاهدون فترينات بوند سترت . . . (فهل فهمت يا بنى آدم ؟) . . . »

ولما يش الرجل قطعاً من صرقى عن جماعة الدارسين ، بما كان يحسبه « صنعة لطافة » . بدأ محاضرتة التى استمعت إليها وكلى آذان ؛ ولولا البرود الإنجليزى ، وما أعرفه من طبع هؤلاء الناس ، ولومهم لمن لا يكتب عواطفه ، لقصدت الرجل بعد المحاضرة لأؤكد له بأنه لن يجد بين تلاميذه من كان أشد إحساساً . وأعظم حماساً لكل كلمة قالها . . . من ذلك الشاب الدخيل الغريب !

فلنستأنف رحلتنا ، ونغادر المتحف المصرى لنذهب إلى سقارة ، أعجوبة التاريخ المصرى كله . خرجت من رأس عبقرى واحد حفظ لنا التاريخ اسمه : إيموتب . ربما كان مهندساً أو كاتباً أو طبيباً أو فناناً . فالمصريون القدماء يذكرون اسمه محاطا بهالة من الإكبار والإجلال ، حتى لقد رفعوه إلى مرتبة الآلهة في عهد متأخر . هذا هو الرجل الذى يقرن اسمه بروائع سقارة التى تحيط بهرم زوسر ! فلندخل حرم المعبد ، ولنتأمل أعمدة ذلك البهو الأبيض . أتعرف أنها أول أعمدة أقيمت في تاريخ العمارة ؟ ومنها العمود المضلعة ، وإن لم تستقل بعد عن حوائطها . تأمل نحت قطاعها الحجرية ، ودقة صنعها ، ورقة إحساس صانعها . لقد حسب الأثرى إنجلباك دقة نحت عمود من الصوان الأحمر من الأسرة الخامسة . فوجد أن الخطأ في كل قطاع سمكه ٢٦٠ سنتيمتراً . يتدرج بين قطاعات قطرها من ٩٢,٢ سنتيمتراً إلى ٧٩,٨ سنتيمتراً . لا يتعدى ثمان مليمترات . وقدر فلندرزبترى الخطأ في زاوس من الجرانيت لسيزوستريس (سنوسرت) الثانى ، فلم يكتشف أكثر من ثمن مليمتر في أسطحه الجانبية . وهى صقيلة كأنها لوح زجاج مصنفر .

ولنتزل إلى مقابر قى ، وفتاح - حوتب ، وميريوكا . وهناك ستعرف أن حياة أسلافك في الأسرات القديمة هى حياتك الحاضرة . هنا ، لأول مرة وربما لآخر مرة . ستفهم بأنك حقاً حفيد أولئك الفلاحين والصيادين والصناع ، وستفهمهم كفاحهم ، وتشاركهم في مشاحناتهم . وتتعرف على أسماك نيلك . وتسمع خوار ثيرانك ، ووشوشة هيشك وقصباك . سيعيد فنان الحفر بالبارز - باريليف - أمام عينيك حياة الشعب في الدولة القديمة . ويقول الأثريون إن مصري الأسرة الخامسة قد تنبهوا إلى نتمش مقابرهم لا للزينة ، ولكن لغرض نفسه الذى عمل له المثال في الأسرات السابقة . أى لتتمصص « كاوات » الشعب صور نشاطه في الحقل والمصنع . وعلى ضفاف النهر . وفوق صفحة مستنقعات الدلتا كى ينعم المتوفى بكل ما حوله من مباحج الحياة . فجاء الفنانون يحفرون على الجدران صوراً آمنة لحياة الشعب المصرى في جده أكثر من لهوه . . . وسيجىء فنان الدولة الحديثة ليصور المصريين في لهوهم وجدهم وعبادتهم . لا أعرف كيف أصف لك هذه المحفورات البارزة وتنسيقها في صفوف مراصة - لأن الفنان المصرى لم يكتشف المنظور ولا عنى

بإثباته — والكتابات المبروغرافية تملأ فراغات الصورة بطريقة الموازنة والمقابلة ، بحيث تحس وأنت ترى هذه الصفوف الرتيبة كأنك تسمع موسيقى بعينيك ، موسيقى ذات إيقاع هادئ ، وتكاد تسمع أصوات أولئك الصانع والزراع والمراكبية والصيادين سكون صحراء منف .

ولست أنسى أنني دخلت هذه المصاطب آخر مرة مع بعثة ثقافية أجنبية ، من ضمن أعضائها موسيقى محترف . ما كان أشد عجبى إذ رأيت الشاب ينتحي منا مكاناً قصياً ، ويخرج من جيبه دفتره الموسيقى ، ليدون ألحاناً أوحى بها إليه صور المقبرة . وكان الرجل من تلك الشعوب الجديدة التي لا تعنى بتعلم اللغات الأجنبية ، فاستحيت أن أبدأ إلى المترجم لأتبادل مع الموسيقى حديثاً يتصل بمصادر الوحي الفني . المهم أن الرجل سمع بعض الموسيقى التي كنت أسمعها يعيوني منذ فجر شباني !

وما بنا حاجة إلى الانتقال من منف إلى طيبة لنطمئن إلى أن هناك تجوزاً كثيراً فيما يقال عن جمود الحياة الفنية في مصر القديمة . وإنما يغير الناس بالشبه العام بين مظاهر الحضارة المصرية ، وهو الشبه الذي نراه بين نماذج كل مدرسة فنية : في الفن الكلاسيكي اليوناني . أو في فن الرينسانس . أو الفن الهندي أو الفارسي . إنها القرابة العائلية ليس غير . فما لم تتفحص تفاصيل فن من الفنون . وتعرف مؤثراته ، وشيئاً مما وراءه من تاريخ . تظل نظرتك إليه نظرة سطحية . ترى فيها جميع الصينيين واليابانيين يشبه بعضهم بعضاً . . . كأنهم التوائم !

أما ترى الفارق العظيم بين معبد أبي الهول ومعبد زوسر ؟ ألا تلاحظ تطور بناء الأهرامات خطوة خطوة ؟ ألم يعمل المثال المصري في الحشب والصوان والديوريت ويجبر الحجر ، وفي كل مرة تملى عليه المادة خطوط تطوره الفني ؟ إذا امتدت أمامه صفحة حجر جيري متماسك . رسم عليها . ثم أعمل فيها إزميله على طريقة الحفر البارز . وإذا لم تطاوعه مادة الجدار للحفر . طلاها بطبقة من الحجر ، أو من ملاط الطين المخلوط بالقش . وصور عليها بريشته وألوانه ، كما فعل في صور إوز ميدوم من أعمال الدولة القديمة ، وفي جميع مقابر وادي طيبة في الأسرات الأولى للدولة الحديثة .

ما هو الهرم بضخامته الشامخة إلا تاج مسلة مكبر إلى أضعاف أضعافه ، كما عرفت المسلات فما بعد ، رمز عبادة آتوم - رع ؟ أو أنه مصطبة فوق مصطبة ، حتى يرتفع هرمًا مدرجًا ، ثم هرمًا هندسيًا ؟

إننا نتابع خطوط التطور حتى في ذلك القليل الباقي من آثار الدولة القديمة . أين آثار مدينة إيون بعين شمس ، بل أين مدينة منف ذاتها ومعبد فتاح بها ؟ وهل هذا الذى نرى هو كل ما بقى من آثار دهشور وأبو صير وميت رهينة وسقارة ؟ كلا ! لم يكن الفن المصرى جامدًا ذلك الجمر المزوم .

جامدًا ؟ ألا ليته ثبت طوال هذه القرون ! فما إن تنتصف الألف الثانية بعد الأسرة السادسة ، حتى ينهار كل شيء ، وتتقلص الأهرامات ، وفي ظلها المنكماشة تنحل أربطة الحكم المفرد المتماثل ، وتنهار الملكية القديمة . فهل كانت ثورة هبت من أسفل لا تبقى ولا تذر ، حتى اختفت في أنونها ثلاث أسرات ملكية أو أربع ؟ أو أن هناك تسربًا أسيويًا ، أو غزوًا شبيهاً بغزو الهكسوس فيما بعد ؟ ما معنى أن تضمر أهرام الملوك ، وتنفسح جنبات مصاطب الوجهاء والأعيان ؟

جاء فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى عصر غامض يعرف بالفترة المتوسطة الأولى ، يعتقد المؤرخون أنه كان عهد ثورات واضطرابات عنيفة وتسرب أجنبي . ولا تنس أن مصر مجموعة من الكور وحدها إيمان أهلها بأن الفرعون ابن إله الخير والفيضان والشمس ، بل وحدتها آلهة عظام ، وأنصاف آلهة ، قبل أن يوحدتها أول ملوك الأسرة الأولى . فإذا اعتقد كبار الموظفين وحكام الأقاليم أن الأهرامات والمعابد أنشئت على أكتافهم ، وبفضل سلطانهم على الشعب ، وإذا استطال حكم الملك بيبى إلى نحو مائة عام ، ألا تتوقع أن يدرك أولئك الرؤساء بأن حقهم هضمه الفرعون فينتقموا عليه ؟ تأمل حين عاد ملوك الأسرات الأولى في الدولة الحديثة من مغامراتهم الحربية ، وتوسعهم الإمبراطورى ، يغدقون على معبد آمون وكهنة آمون بطيبة أسلاب فتوحاتهم . أفلا تتوقع ، عند ما تتقاعس همة الرعامسة ، أن يزحزحهم كهنة آمون عن عرشهم ؟ وهذا ما حدث فعلا عندما تولى كبير الكهنة ، هيريهور ، عرش مصر في نهاية الأسرة العشرين .

أما في المرة الأولى ، بعد استطالة حكم بيبى ، فإن الذين تولوا الحكم كانوا

مجموعة من الأشراف والأعيان ، كل يستقل بكورته أو مجموع كوره . ومصر لا تعيش هائلة دون التعاون الوثيق بين أجزائها ، ولذلك راحت البلاد تتخبط أجيالاً في الجهول المظلم الذي كان يعرف في وقت ما باسم عهد الإقطاع ، ويفضل المؤرخون الآن تسميته بالفترة المتوسطة الأولى ، تمييزاً لها عن الفترة المتوسطة الثانية ، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة ، والتي فيها نزل البلاء الهكسوسى بمصر .

والفترتان ستزيجان الغشاوة عن أعين المصريين المؤمنين إلى آخر حدود الإيمان بالبقاء والخلود ، المطمئنين إلى منعة حدودهم الصحراوية والبحرية . الفترة الأولى أطاحت بفكرة أن هناك وسائل مادية تحقق الخلود ؛ والغزو الهكسوسى أطاح بفكرة أمة لا تغزى ولا تغلب . استمع إلى أثر الفترة الأولى في نفس الشاعر المغنى :

« لقد ترائى إلى ما جرى على أسلافى عندما تخربت بيوتهم ، واهت أسواقهم ، وكأن لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئاً مذكوراً .

« لا تفكر بما بعد هذى الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك . حيث تغرب الشمس .

« أى جدوى لما ينثره على الأرض كهان يلبسون جلد النمر ، أو لما يقدمون من قرابين ؟

« افرح بيومك المشرق . وتمتع بما توحى به إليك نفسك ، فليس من دأب القدر أن يكرر أيامه .

« وكل ما هو آت آت ، ولم نر من الداهيين إلى هناك من عاد » .

لكأنى به قس بن ساعدة القائل :

فى الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

يقول هيرودوتس ، وقد زار مصر في أواخر سنى حضارتها وهى تزرع تحت النير الفارسى ، بأن رجالاً يدورون فى المآدب على المدعويين يحثونهم على التمتع

بمباهج الحياة الدنيا، ويعرضون لعيونهم دى صغيرة تمثل ميتًا مدرجًا فى أكفانه . وقد نبهى ذلك إلى عادة متبعة فى الريف ، وهى ترك خشبة الميت مكشوفة فى العراء إلى جوار المسجد أو الزاوية من ناحية الميضة . أذلك لعدم وجود مكان خاص ، أم ليعتبر الناس ويذكروا أنهم كلهم ، وبعد عمر طويل أو قصير ، راحون إلى هناك فوق تلك الآلة الحدياء ؟

أما الفترة الثانية ، فطالع ما تركته من أثر فى نفس المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى ، الذى ألف تاريخ أسلافه باللغة اليونانية ، أيام بطليموس الثانى ، وسماه « إچيسياكا أبومنماتا » ، أى « مذكرات مصرية » :

« وفى حكم الملك ديدوميس استشاطت الآلهة غضبًا علينا لسبب لا أعرفه ، فَرَزَزْنَا دون سابق إنذار ، بفتنة من الناس لا تعرف لهم جنسًا ، وتجراً على اقتحام وطننا قوم جاءوا من الشرق ، فامتلكوا البلاد عنوة دون ممانعة منا أو قتال ، وقبضوا على الزعماء ، وأحرقوا المدن دون رحمة ، وقوضوا معابد الآلهة ، وأذلوا أهل البلاد ، وذبحوا الرجال وسبوا النساء والأطفال .

» ثم أقاموا على مصر ملكًا اسمه صاليتس ، سكن منف ، وفرض الجزية على إقليمى الصعيد والوجه البحرى ، ووضع الحاميات العسكرية حيث راق له ، وحصن القطاع الشرقى بخاصة ، توقعًا أن يتقوى الآشوريون يومًا فيطمعوا فى المملكة ويغيروا عليها . ومنف عاصمة الدولة القديمة لن يعود إليها مجدها ، وإن ظلت تحتفظ بمركزها كمدينة المجد القديم ، حتى جارت عليها العوادم ، وتاه الخلف فى معرفة مكانها زمانًا طويلًا . ولو أن الطبيب البغدادم عبد اللطيف وقف بآثارها وتحدث عن عزها مليًا ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى . وستظل مثل الدولة القديمة نصب عين المصرين القدماء حتى آخر أيامهم .

وحان الوقت لقرية حقيرة بالصعيد أن يرتفع نجمها فى فلك التاريخ ، هى طيبة . ولن يكون ذلك قبل أن يقوم أمراء الصعيد بالقضاء على فوضى الفترة الأولى ، ويؤسس أحدهم : متوحوتب - نبم - رع أسرة جديدة ، ويحىء سنوسرت الأول ليكبح جماح الأمراء ، ثم يمهدهم من المنتوحوتبيين الطريق للأسرة الثانية عشرة ، أسرة أمينمحت ؛ وستختار تلك الأسرة عاصمة عند مدخل الفيوم فى

هرقليوبوليس ، غير المعروف مكانها الآن ، وإن قيل بأنها على مقربة من لشت ، أو بين لشت ودهشور .

والأسرة الثانية عشرة هي أمجد أسرات السلام بعد الدولة القديمة في التاريخ المصرى ؛ هي أسرة البناء والإنشاء ، وملوكها طاردوا الأسويين أمامهم حتى سورية ، وتوثقت العلاقات التجارية بين ملوك مصر وأمراء ببلوس (جبيل) كما يظهر ذلك في قصة « سنوهى » ، ولو أننا لا نعرف على اليقين إن كانت هذه مجرد قصة ، أو أنها مذكرات من واقع حياة رجل البلاط سنوهى .

وفي أبيدوس لوحة تشير إلى حرب في آسيا ، أيام الملك سنوسرت الثالث ، وهو البطل الذى يتحدث عنه هيرودتس فيما يشبه الأساطير ، تحت اسم سيزوستريس إنما الواضح أن ملوك الأسرة الثانية عشرة أعادوا لمصر مقامها فى النوبة ، حيث يذكرنا نص لأمينمحمعت الأول بانتصاره فى كوروسكو على شعب « واوات » . وللأسرة آثار عند الشلال الثانى . وأعيد فتح طريق قفط - وادى الحمامات حيث مناجم الذهب ، وقد أمن سنوسرت البلاد ، وأقام التحصينات فى الجنوب ، وأوقف زحف السود على مصر ، إلا من دخل منهم بتجارة الجنوب .

ولكن أعظم ما تذكر به ملوك الأسرة هي مشروعات الرى الكبيرة ، وما قاموا به فى منخفض الفيوم ليكون ميزاناً لمياه الفيضان ، تخزن فيه المياه العالية وتطلق منه لرى الشراق ، تبعاً لحاجة البلاد ، وتمشياً مع حالة الفيضان .

ولقد اختفت معظم أعمال جبايرة الدولة الوسطى ، أولاً أن هيرودتس وديودورس وإسطنبولون وبلينيوس تحدثوا عنها فيما يكاد يدرجها فى عداد الأساطير . ولم يكن معقولاً أن يجمع كل هؤلاء على خرافات ، وبعضهم رأى بعينه قصر اللابرانت عند مدخل الفيوم . وقد عثر الأثريون على بقايا منشآت خزان المياه الكبير منخفض الفيوم ، وتتبعوا أسماء ذلك الخزان فكان « هونت » ، أى « المياه التى تفيض » و « مبرى » أى البحيرة و « فلوم » أى البحر . ومن كل هذا خرجت أسماء الفيوم ، وموريس - وهو الاسم القديم لبحيرة قارون حسب طبوغرافيتها القديمة - أما القصر فكان معبداً ، وبه مدفن لأمينمحمعت الثالث . وقد عرف فى اللغة المصرية باسم « لوبى - رو - هونت » أى « المعبد عند مدخل المياه التى تفيض » ، وهو

الاسم الذى حرفه اليونان إلى ما يقرب من قصر مينوس بجزيرة كريت المسمى «لابيرانت» .

وكان «قصر» لابيранت يقع إلى الشرق من البحيرة ، على مرتفع من الأرض في مواجهة مدينة التمساح (الفيوم) . وقامت البعثة البروسية ، برئاسة ريشارد لپسيوس ، بقياس أبعاد ما تبقى من آثاره ، فكانت مائتي متر في عرض ١٦٠ متراً . وقد بقي قائماً ، رآه في القرن الخامس قبل الميلاد أولئك الزوار من الشمال ، وكان من أسباب إعجابهم بحضارة المصريين ، قال هيرودوتس :

« رأيت اللابيранت ، فكان مرآه يفوق كل ما سمعته عنه ؛ ولو أننا جمعنا كل ما بناه الإغريق لما تناول ، عملاً وتكاليفاً ، إلى اللابيранت . هذا مع أن معبد إفسوس عظيم ، هو ومعبد ساموس . ولقد رأيت الأهرامات فكانت هي أيضاً أعظم من شهرتها ، وواحد منها يساوى أعظم منشآت اليونان ؛ فإذا باللابيранت يفوق في نظرى الأهرامات ذاتها . أما خزان موريس فهو عجيبة تفوق اللابيранت نفسه » .

وبرغم تلك الشوايح ، وما تحدث به المصريون عنها إلى الرحالة الإغريق ، فقد اختفى اسم أمينمحت . فن قائل إن منشئها هو بساماتيك أو موريس — وقد عرفنا مصدر الاسم من « ميرى » أى البحيرة — ومن قائل إنه منيتس أو إمنديس أو غيرهم ، وكلها أسماء ملوك مجهولين لا أثر لها في قوائم مانيتون ، ولا في غيرها . ولم يكتشف اسم منشئها الحقيقي ، أمينمحت الثالث ، في خرابات آثاره إلا في القرن الماضي .

ولا تعليل لاختفاء أعظم آثار الدولة الوسطى ، بل أعظم آثار الشعب المصرى القديم ، إلا فيما نكبت به البلاد من أولئك البرابرة الآسيويين الذين نزلوا بمصر نقمة . ولما طهر ملوك الدولة الحديثة البلاد منهم ، أخذوا في حمل أطلال الدولة الوسطى ، ليستعينوا بها على إنشاء معابدهم . وقد اكتشف الآثريون في بقايا صرح للملك أمينوفيس الثالث بالكرنك ، حجارة معبد صغير من الحجر الجيري ، أنشأه الملك سنوسرت الأول مقاماً لتمثال آمون وسفينه المقدس . واستطاع المعمارى مسيو هنرى شفرييه ، بعد جهود مضيئة ، أن يعيد بناء ذلك المعبد في ساحة الكرناك . وكذلك ظهرت تحت أنقاض قرية مدامود بقايا من مبان للملك سنوسرت الثالث .

ومسلة المطرية من آثار سنوسرت الأول أو « أوسرت - سن » ، كما كان يكتب اسمه في القرن الماضي ، وهي أقدم المسلات المعروفة .

وكل هذا قليل بالنسبة لما اختفى من آثار دولة الأمينمحتيين والسنوسرتيين في تانيس وهليوبوليس والقيوم وقفط وطيبة ، ولا تعوضنا إلا قليلا عن زوال معبد أمينمحت الثالث ، الذى عرفه اليونان باسم قصر اللايرانت .

بل إن أسرة المتوحوشيين كان من حقها على التاريخ أن يبقى معبد ماركها بالدير البحرى ، لا لأن متوحوش قد وحد الإقليمين ، وافتتح العهد الذهبى الثانى للحضارة المصرية فحسب ، بل لأن أسلوب بناء ذلك المعبد كان شيئا جديداً فى العمارة ، تأثرته الملكة حتشبسوت عندما أقامت معبدها فى بطن جبل طيبة ، إلى جوار معبد سلفها الكبير .

وكان هذه الدولة الوسطى محكوم على آثارها بالفناء ! فقد حفظت الأجيال منها مجموعة قبور فى سفح الجبل عند قرية بنى حسن ، أمام المنيا ، وفى البرشة ومير وأسويط ، وبالقرب من أسوان . وتفطر قلبى أسى وأنا أزور مقابر بنى حسن ذات يوم فى مطالع عام ١٩٥٥ ؛ فإذا هذه الروائع من فن الدولة الوسطى مهملات ، يسطو عليها ما هو أقوى من اللصوص . . . يحوها الزمن محواً من فوق جدران المغارات ذات العمى السابقة على الطراز الدورىكى ، والعمد ذات التيجان اللوتسية . وهى قبور أمراء الكور فى الدولة الوسطى ، صورة من فن الريف المصرى بعيداً عن العاصمة القديمة منف ، والعاصمة الجديدة هرقليوبوليس ؛ تصور ، كالعادة ، حياة الزرع والضرع ، ولكنها تصور أيضاً شيئاً جديداً على الحياة المصرية . وهو إعداد الشباب بكل أنواع التمرينات الرياضية والعسكرية للقيام بواجب الدفاع عن الوطن . تفطر قلبى لأن تصاوير بنى حسن ستختفى حتماً فى بضع سنوات إن لم ننداركها . ولأن تصاوير مقابر سقارة مآلها هى أيضاً إلى الزوال ، وبخاصة الواقع منها فى ممرات المداخل ، ولأن تصاوير الدير البحرى مآلها هى أيضاً أن تمحى . ولا أعرف على من تلقى الاوم يوم يعان فى العالم محو صور بنى حسن ، أو بعض صور سقارة أو الدير البحرى ، كما لم أعرف إلى من وجهنا الاوم عندما انهار صرح من صروح الكرنك فى أوائل عام ١٩٥٩ ، وتفركت صور مقبرة نفرتارى !

وماذا يفيد اللوم بعد أن خرج من مصر الكثير من تماثيل هذه الدولة الوسطى ، وهي كنوز غالية تحتفظ بها متاحف العالم المشهورة . فمن المسئول عن خروج رأس للملك سنوسرت الثالث من زجاج الأبيديان الأسود ، وتمثاله في شكل أسد رابض من حجر الديوريت . وتمثال الأميرة سنوى ، أميرة أسيوط ، وكان زوجها جاكاً على الذوبة من قبل سنوسرت الأول ؟

وبالمتحف المصرى مجموعة تماثيل وصور حائطية للملك الأسرة الثانية عشرة، أرجو أن يخرج بعضها إلى « متحف المختارات » يوماً . حتى لا تضيع وسط الخزن العام الذى ضاق بسكانه العظماء . فهى صور ناطقة بالتحول الذى انتقل بالمصرى من عهد الطمأنينة والسلام والمنعة، إلى عهد عرفوا فيه ثورات لا تبقى ولا تذر، وذاقوا مرارة تسرب الأسيويين البرابرة إلى وادى الحضارة .

وقاعة الحلى بالمتحف المصرى احتفظت لنا بأجمل ما أنتج صاغة الجواهر فى الدولة الوسطى . تلك العقود والخواتم والغوايش والتيجان والصدريات الملكية لأمينمحت الثالث وسنوسرت الثالث . تلك النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور ، ليست مجرد ذهب وزمرد وباقوت ولازورد ، ليست مجرد صور للبذخ والثراء أغدقه المصريون على موميات أميراتهم وملوكهم . وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة ، تعنى بالجمال فى الأثاث واللباس والصحاف والأواني، من أية مادة صنعت ، حتى لنعجب اليوم بتلك العقود « الفالصو » التى يقتنئها السياح ، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز وزجاج وقطع الميناء . لا لشيء إلا لأنها تقلد . وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى العجيب .

• • •

وفى الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الأسرة العظيمة ، الذى دام أكثر من قرنين ، أخذ يغشى مصر ظلام تاريخى وإبهام لم يكشف عنه بعد ، والغالب أن يكون الهمج الأسيويون قد عادوا إلى التسرب فى شرق الدلتا ، أو تكون موجات الهجرة قد تحركت من أواسط آسيا فاكنتسحت الشرق الأدنى ، ودفعت أمامها ذلك الشعب المجهول الأصل والنسب . فنزل بمصر ، وقضى على استقلالها وحضارتها . هى فترة مجهولة ، لأن حكم المكسوس فى المائة أو المائتى عام التى أناخ فيها بكلكله

على مصر ، لم يترك لنا من آثاره . . . إلا مجموعات من الجعارين !
وهذا الغزو الماحق أزاح عن عيون المصريين نهائياً غشاوة الاطمئنان داخل
الحدود ، فلم تفد بشيء حصون الأسرة الثانية عشرة التى تذكرنا بمآل خط ماجينو
الفرنسى ، عندما تحول إلى مصيدة هائلة لحماته ، خرجوا منها إلى معسكرات الاعتقال
الألمانية مباشرة !

تعلم المصريون ، فى الألف الثانية قبل الميلاد ، أنه غير كاف أن تطرد الدخيل
إلى خارج بلادك ، وتقيم وراء حصون حدودك ؛ بل يجب أن تطاردهم إلى ما وراء
تلك الحدود ، حتى تظمئن إلى البلاد الواقعة وراء حدودك ، سواء باستعمارها أو
بضمان صداقتها وحيادها .

يفسر لك هذا الدولة الحديثة كلها ، أو الإمبراطورية المصرية العظمى ،
ضعفاً وقوة . فضعفها نشأ عن قوتها ؛ تعندى على جيرانها لتؤمن حدودها ، فتضيف
إلى الخطر الذى يهدد نظامها فى الداخل ، كلما ضعفت أداة الحكم ، خطراً جديداً ،
وهو تحفز الدول المحكومة ، أو الدول التى تخضع بطريقة أو بأخرى ، وتربصها
بمصر ، وتحركها للانفصال عن الدولة المسيطرة ، بل والانقضاض عليها ، كلما
أحست بتدخل الضغط واضطراب الملك . سيحدث ذلك كلما قامت فى الشرق
الأدنى دولة جديدة ، حتى يقضى القضاء الأخير على استقلال مصر الفرعونية ،
تحت سنايك الجحافل الفارسية ، ثم تحت أقدام كتائب المقدونيين المتراصة ،
التي اقتحمت كل شيء أمامها منذ خرجت من بلادها ، بقيادة الإسكندر ،
حتى بلغت حدود الهند .

وما أكثر ما خلفت لنا الدولة الحديثة من آثار ، وآثار عظيمة ، ولكنها لا تقارن
فى قيمتها الفنية ، ولا فى أصالتها ، بآثار الدولة الوسطى ، ومن أولى ، بآثار الأسرات
القديمة . إننى أستجمع فى خيالى كل ما تركته آثار الدولة الحديثة ، سواء ما رأيته
منها على طول الوادى ، أو ما تزدهم به قاعات المتحف المصرى ، ومتاحف العالم
الخارجى ، فأحس حيالها بشيء من القلق ، لا تفسير له عندى إلا فى أن أصحاب
هذه الآثار يتكالبون على الدنيا ، ويحاولون إقناعك شخصياً بأنهم خير أمة أخرجت
للناس . وترتفع فى هذه الدولة جعجة الملوك ، وتصطبغ دعاويهم الطويلة ،

ويسردون عليك حكايات هي إلى الفشر أقرب ، من أمثال حكاية رمسيس الثاني الذى وقف وحده أمام جيوش الحيثا كلها ، فى العام الخامس من حكمه ، إبان موقعة قادش ، وهى القصة التى تكررهما معابد الرمسيوم والأقصر وأبو سمبل ، وغيرها ، كأنها بلاغات رسمية ، ويترنم بها شاعر العهد ، المدعو بنتاؤور ، فإذا ببردية فى متحف تورينو تسرد الحكاية بتفاصيلها ، ووقفه الملك وحيداً أمام أعدائه يدعو إله آمون ، فيهب إلى نجدته ، ويرتد الأعداء فى هرج ومرج من عرباتهم الحربية تتحطم ، ويتساقطون غرق فى نهر العاصى... ولكن هذه البردية تصف الحادث على أنه وقع للملك... تحوتمس الثالث ، وهو الملك الفاتح ، فى الأسرة السابقة على أسرة الرعامسة ، ولا يبعد أن تكون أمثال هذه الحكايات أكليشيات شعرية تعارلمن يستعير.

ورمسيس الثاني ربما كان أصعب الشخصيات تحليلاً لدى المؤرخ ، ومؤرخ الفنون بالذات . لقد تولى العرش شاباً ، ومات بعد أن حكم سبعة وستين عاماً ، وحكم على إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأنشأ من المباني ما لا يكاد يدخل تحت حصر ، وبعضها من أعظم ما أبقى التاريخ عليه من آثار الأئمة الماضية . ماذا دهمى ذلك المتكالب على الدنيا والآخرة ، المسعور بالسوطو على آثار غيره ، ومنها بعض آثار ملوك الدولة القديمة ؟

كنت أطالع ، بمحض الصدفة ، وأنا أكتب هذا الفصل ، «سفر يشوع» [يوشع] من أسفار «العهد القديم» — أتذكر قصيدة شوق : أيا شمس يوشع خبرينا إلخ ؟ — وهو سفر من أكثر أسفار التوراة إثارة للملل والضجر ، فكله طنطنة وششنة تشبه ما عرفته من أخازم الأسرة التاسعة عشرة . وإذا كان رب الجيوش ، «الأدوناي» الذى وعد بنى إسرائيل بامتلاك الأرض وما عليها ، هو الذى يأمر يوشع بأن ينفخ فى الصور فتندك حصون أريحا ، وهو الذى يستجيب ليوشع فيوقف له الشمس فى مسارها ، فإن رب الجيوش فى مصر ، المدعو آمون ، يتكفل بتحقيق الكثير مما يشبه تلك الأساطير العبرانية .

إنما الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هي أن الدولة الحديثة — بإهمال أمر الفتوة الفردية للملكها التى تذكرنا بفزورة المشط : «قد الكف ، ويقتل مائة وألف !» — هي قمة من قمم الحضارة المصرية فى كل ما عرف عنها ، بل هي اجتماع تيارات

العصور السالفة في مجرى حضارى هائل — أفكر به دائماً كلما اقتربت من شاطئ النيل في عنفوان فيضانه — حتى واو اتسمت أعمالها الفنية بالقلق . كما في عهد التحوطين ، أو بالمرض والعقد النفسية كما في عهد أخناتون . أو بالعنجهية والطنطنة كما في عهد رمسيس الثانى . ولنا أن نعتز بالعاصمة المصرية في زمانها ، إذ كانت طيبة حاضرة العالم المعروف في عهد الدولة الحديثة . كما كانت الإسكندرية في عهد البطالسة . وكما كانت القاهرة . كبرى العواصم الإسلامية في القرون الوسطى ، وفي العصر الحاضر .

كادت طيبة . عاصمة آمون ، تجعل من إلهها رب العالم ، وإننا لنسمع صدى طيبة في أشعار هوميروس . وهو يقول في الإلياذة : « طيبة حيث التصور المنيفة تنضم على الكنوز . وأبوابها المائة يخرج من كل منها مائتا فارس مغوار مدجج بالسلاح » .

طيبة أعادت مجد منف إلى مائة ضعف وأكثر . وستصور قبورها حياة المصريين . فإذا هي حياة متاع وبذخ ورقص ومآذب . لم نعهد لها كثيراً في قبور الدولة القديمة . فيربروكا . من الأسرة السادسة ، الجالس إلى مائدته . هو التشف بعينه إذا قيس ذلك بالحفلات الراقصة في الدولة الحديثة . والغواني تتولى الوصيفات زينتهن ، وعازف الصنج الأعمى ينشد قصائده ، وفتيات يعزفن على آلات وترية ، أو ينفخن في مزامير رقيقة مثل قدودهن . وذلك إلى جانب صور الحياة الجادة للزراع والصانع والصيد كما في عهد الدولة القديمة . إنما الحديد حقاً هو تصوير حياة الملاحم والوقائع الحربية تتساقط فيها الرؤوس ، وتتطاير الأكف . وتلك المعازل ، وذلك في كل شبر على جدران المعابد وصروحها ، لا تحتله صور الأسرى الأسويين والجنوبيين . أو تشغله لحي الأغراب وأنوفهم المعقوفة وشعرهم الأجمع . ولنتصور حياة طيبة عاصمة العالم القديم إذ ذاك . وقد تزاحمت في طرقاتها وساحاتها ومغانها ومعابدها أجناس وأخلاق من الشعوب . تتدلى أسنمها عجباً . ويرتد منها البصر وهو حدير ، أمام صروح الكرنك والأقصر . ومعبد سبتى بالقرنه ، والرمسيوم . وقصر أمينوفيس الثالث . ثم معبده الجنائزى . وعلى أبوابه قام تماثلان هائلان ، عرفا فيما بعد باسم « جبارى ممنون » . وكانت شمس الصباح وهى تدفئ صخورها ، فيتبخر عنهما ندى الليل ، تحدث ذبذبات عجيبة . ينبعث عنها من أحد

التمثالين صوت كالصفير أو الرنين .

ولكى تعرف ضالة ما بقى من تلك الآثار بالنسبة لما كانت عليه ، اذكر فى عودتك من مدينة هابو أن قصر أمينوفيس الثالث كان قائماً قرب معبد رمسيس الثالث ، إلى الجنوب الغربى منه ، وأن معبده الجنازى كان أمامه ، ممتداً إلى الشرق حتى تماثلى أمينوفيس الثالث (جبارى ممنون) . ثم تأمل تماثلى الملك الآن ، مشودين تشويهاً كاملاً ، وقائمين وحدهما وسط المزارع الواسعة كأنهما خيالاً مقانة أقامهما أبناء العملاق عوج بن عنق .

ويقابل صور هذه الحياة الصاخبة فى مقابر الأشراف والوجهاء ، بقرية الشبخ عبد القرنة ، عناية سكان ببيان الملوك بالحياة الآخرة ، وحرصهم على أن يبقوا بمحكمة أوزيريس وتوت وقفة البراء طاهرى الذيل . ألم يملأوا خزائن آلهتهم بخيرات الدنيا ؟ ألا تستحى عيون أولئك الأرباب وقد أطعمت أفواهها ذهباً وجواهر ، وأقيمت لها الهياكل والنصب والمعابد ، من ضفاف الفرات حتى ما فوق الشلال الرابع ؟

وكأن التمسك بالدين فى الدولة الحديثة لم يعد هو أيضاً ذلك الإحساس الصافى الصادق ، النابع من روح شعب متدين دائماً ، وكأنى به وقد أصيب بحمى الإعلان والدعاية ، والتوكيد بأن الملوك كانوا من الصالح المتقين .

لست أنسى ذلك الصديق الكاتب المبدع محمود طاهر لاشين ، ونحن نزور المتحف المصرى ، أيام أرخى شبل إسماعيل لحيته ، وعرض على الأنظار سبخته ، وإذا بطاهر يشير إلى تماثلى ملك لست أذكره الآن ، وقد تدلت من ذقنه لحية مستعارة ، ويقول : ما من جديد تحت الشمس ! ألا ترى أن هؤلاء أيضاً كانوا يضحكون بدقونهم على دقن شعبهم ؟

وتلفتنا حولنا . . . ولكن بعد أن أطلق صديقى دعابته الصادقة فردد صداها به المتحف الكبير ، وأتبعها بضحكاته المعهودة التى تمثل صراحة طاهر لاشين وصدقه أحسن تمثيل .

ومهما كان من أمر فتوحات تحوتمس ، وهى ضرورة قومية ، وكان الرجل يجمع إلى عبقرية السياسى قدرات رجل الحرب ، فإن طبيعته المصرية لا تميل إلى تلك

المغامرات البعيدة وراء الحدود ، إذ أنها ستأتى إلى بلاط فرعون بالأغراب من أمراء
ينشأون على التقاليد المصرية ، وأميرات أجنبيات يثرن في حريم الفرعون ما المرأة
أعرف به ، وستأتى بالأجناد المرتزقة من كل حوب ، يلتمسون العيش أينما كان ،
وبالتجار والمغامرين يهربون إلى داخل البلاد سموهم الخلقية . طبيعته المصرية
الحافظة تخشى ما سيحل بالشعب المصرى الأصيل عندما يختلط بالغرباء اختلاطاً
يتعدى المدى القديم ، وقد عاش تاريخه بمنأى عنهم . وكأنه أقام « كردون » صحياً
بينه وبينهم !

وعندى أن فن العمارة الجذاب يحمل جرثومة الانحلال من أثر هذا الاختلاط ،
فقد يتوه أختاتون في بوادى فلسفته الدينية ، ويدور في أبهاء قصره يتغنى بأشعاره ،
متغزلاً في ربه القرص ، أو فوق درج معبده المفتوح إلى السماء . ألم يتح الفرصة
لما يجيء به الغرباء من أفكار في الفن والأدب ، يدلسون بها على المصريين . تحت
ستار تمجيد الثورة وصاحبها ؟

ينخيل إلى أننى تماديت حتى تورطت في الخطأ المعروف بالحكم الخفاف على
هذه الدولة الحديثة . فكيف أنسى آثار سبتي الأول في أبيدوس وطيبة ، وهو
أمينوفيس الثالث بالأقصر ، وبعض آثار رمسيس الثانى في شبايه ، كيف نسيت
كل ما نشاهده في ببيان الملوك والملكات ، ومقابر عبد القرنة ، ومعابد الرمسوم
وهابو والدير البحرى ، من قرائن على قوة الخلق في حياة هذا الشعب الفنان ، وتمسكه
بمثله العليا في الجمال والخير ؟

ورميس الثانى هو اللغز الذى لا أفهمه ، وهو المسئول عن جموح رأى .
فكلما قارنت بين البهو الخاص به في معبد أبيدوس - وأبيدوس عندى ، هو
والأقصر ، أجمل المعابد المصرية كلها ، قديمها وحديثها - وبين البهو الخاص
بأبيه سبتي الأول ، ظهر الفارق العظيم بين فن الأب وفن الابن . فن سبتي عريق
رائع ، يرتفع إلى مقام فن الأسرات القديمة ، وتشغف به النفس شغفها بأجمل
الآثار ، بينما فن رمسيس متعجل ، مكلفت ، يذكرك بما خرج في حكمه الطويل
من أعمال تتميز بالضخامة والجمعجة ، وحب الدعاية والتفاخر . كيف حدث
هذا بين عهدين يتلو أحدهما الآخر ؟ فن غير المعقول أن يكون جيل الفنانين

الكبار في عهد سبتى الأول قد انقرض هكذا سريعاً ، ولا سيما أنك ترى في بعض آثار رمسيس جمالا ورقة وعمقا لا تعدها في آثاره الأخرى: تمثله الجاثى وهو يدفع قارباً ، وصور مقبرة زوجه نفرتارى ، جيل فنانى سبتى لم ينقرض ، وإنما بواعث العهدين اختلفت ، كما أن تميز ملك عن آخر في حسن اختيار مهندسيه وفنانيه ، لا دخل فيه لقرب أو بعد في الزمان أو في المكان . وعندى أن سبتى الأول كانت تتغلب عليه نزعتان : النزعة الدينية العميقة ، وتمثل في السبعة المحاريب التى أنشأها بمعبد أبيدوس لكل واحد من كبار آلهة المصريين : أوزيريس وإيزيس وهوروس وفتاح وهوروس - هاراختى ، ومحراب الملك المؤله ، ويتوسطها محراب آمون . وبها أجمل الصور بالحفر البارز في تاريخ الفن المصرى كله . النزعة الثانية عند سبتى لإحساسه التاريخى بالماضى - في مقابل اهتمام ابنه السوق باسمه ، ومستقبل اسمه فيما يجرى من الزمان - وهو الإحساس الذى أطالع أثره في القوائم الملكية التى أمر بنقشها على جدران « قاعة الأجداد » ، وقد صور فيها نفسه يحمل مبخرة ، وأمامه ولى عهده ، بشوشة الغلمان المصفورة ، يتلو من لفافة بردى ، وهما يمجدان ستة وسبعين ملكاً نقشت أسماؤهم على الجدران ، من أول مؤسسى الأسرات حتى سبتى ، الأمر بأن تكتب هذه الكلمات فوق القوائم الملكية :

« فروض الصلاة على أرواح الذاهبين ، يؤديها الملك سبتى ، ويقدم لأرواحهم القرابين : ألف رغيف ، وألف دن من الجعة ، وألف رأس من الماشية ، وألف كيله أذرة ، وألف وزنة من البخور ... فليضاعفها فتاح - سوكر - أوزيريس ، رب القبر الذى يسكن ، فى معبد سبتى » .

ولم يأخذ الصبى ذو الضفيرة عن أبيه هذا الدرس الأخلاقى ، بل راح يعتدى على آثار الأجداد يدعيها لنفسه ، تغلب عليه نزعة التفاخر ، ويتملكه جنون العظمة . اندفع يذرع أرجاء الإمبراطورية طولا وعرضاً ، كمن به مس ، يستحث المهندسين والبنائين ، كمن يتعجل تخليد ذكره ، فإذا به يحكم سبعة وستين عاماً ! لم يكن يعنى كثيراً باختيار مهندسيه وفنانيه ، وهو شبيه فى ذلك بجميع الملوك والحكام الذين حذقوا فن الإعلان ، فما أسهل أن يدخل عليهم الفنانون السوقيون بالحنجل والمنجل ، فيزيحوا الفنانين الأصالى الصادقين ، كما يطرد النقد الردى ، النقد

الجيد . ولعل رمسيس ، لتعجبه ولطفه ، حشد الجميع حشداً دون تمييز فخرجت في عهده أعمال تتفاوت تفاوتاً كبيراً في تعبيرها الفني ، ويغلب عليها التعاطف والتضخم ، والضرب في العالى . وهذه جمالها ، وجلالها دون شك ، فإن بهو الأعمدة الكبير في الكرنك يأخذ عليك أنفاسك . وصدق شامبوليون وهو يقول عنه : « هؤلاء الناس كانوا يبنون لعمالة طولهم مائة قدم ! »

° ° °

أما العهد المتأخر فقد كان موضع إشفاق المؤرخين الأثريين إلى عهد قريب ، حتى جاء رجال أكثر إحساساً بالفن . وأقل تأثراً بوقائع التاريخ . فأدركوا أن هذا العهد مرت بمحن فنية هامة . تقف إلى جانب الأحقاب السالفة رأساً برأس . ومرد ذلك تياران : الأول تيار التطور ، ولم يكن تطوراً قاصراً . فقد اعتنى فيه بإجادة تمثيل الجسم الإنساني . أما التيار الثاني فهو التزام الفنان للتقاليد والطرز المعهودة . ونشأ عن التيارين أسلوب فيه من الحيوية ما حدا باليونانيين إلى التأمل والدرس ، فاستطاعوا أن يتطوروا بفن المثال عندهم . ويحققوا ما بدا لنقاد الفن كأنه « المعجزة الإغريقية » . عنى الفنان المصرى في العهد المتأخر بشيآت القمائص الرقيقة فوق الجسم العارى ، مما يحول كسائه عرياً ، نتيجة تأثر الفنان المصرى باللمسة الحسية . سابقاً في ذلك زميله الإغريق .

وفي متحف القاهرة تمثال من الصوان لكاهن من كهنة آمون في العهد الإثيوبي ، ارتقى إلى منصب حاكم الإقليم ومحافظة طيبة . وبمتحف برلين تمثال صغير للكاهن فتاح — أمينوفيس جالساً القرفصاء . وضامناً ذراعيه فوق ركبتيه . ورأس تمثال يعرف بـ « الرأس الأخضر » من أواخر ما أنتج الفن المصرى . وبمتحف اللوفر رأس كاهن من الصوان فيه ثورة واضحة على فن النحت القديم ، توحى بالنسائل عن مدى تأثر الفن المصرى بالفن الإغريق ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نتساءل إلى أى حد تأثر فن المثال الرومانى في آخر عهد الجمهورية بهذا الفن المصرى المتأخر ، النابض بالتعبير النفساني .

وفي الوقت الذى كان فيه الإسكندر يستولى على مصر ، كان كاهن مصرى اسمه بتوزيريس يأمر بأن تنقش على مقبرته هذه الحكمة : « سعادة المرء في مراعاة

العدالة ... وإذا كنت قد بلغت إلى هنا، حيث الحياة الباقية، فبفضل ما قدمت يداى من خير على الأرض ، ولأن قلبي سلك طريق الهداية إليه تعالى ... عملت هذه الصالحات حتى أبلغ ربي بعد موتى . ولأننى لم أفتر عن ذكر أسياى العدالة فياصل الخير والشر . سعيد من أحب الرب ، وسيلبلغ مثواه الأخير مبرأ من كل ذنب . » ومقبرة هذا الكاهن . القائمة فى منطقة تونة الجبل ، من الفن المصرى المتأخر ، وليست من الفن المندهور . أعجب ما فيها محفوراتها الحائطية : صميمة فى مصريتها عندما تصور الطقموس الدينية ، فالفنان يلتزم هنا الفن الكلاسيكى التزاماً . ولكنك تحس فى التصوير بيقظة وحركة لا يفسرها إلا الصنف الأخير من تلك الصور ، حيث ترى واضحاً جلياً تأثير الفنان المصرى بالفن الإغريقى .

والتأثر غير التهجين الذى نراه فى مقبرة كوم الشقافة ، وهى من آثار القرن الثانى بعد الميلاد : تهجن الفن المصرى بالفن الغرية ورومانى ، فكان كالغراب الذى حاول أن يقلد الطاووس ففقد شخصيته الغرابية . فلا هو يخطر كالمطاووس . ولا هو يخطو كالغراب .

مقبرة بتوزيريس هى الفن المصرى يتأثر فيتحرر . لا يتحور .

* * *

ثلاثون قرناً من الفن المصرى تحيا برغم الاضطرابات والثورات والغزو الهكسوسى والرزم الفارسى والحكم المقدونى والرومانى . أليست هذه هى الأعجوبة الحققة فى تاريخ الفنون الإنسانية كلها ؟

وإن احتفاظ المصريين بتقاليد مجتمعتهم وحكومتهم . وأهم من ذلك : تمسكهم بعقائدهم ، هو الذى يفسر لنا ذلك الاستمرار ، بل تلك العودة إلى التفتح والازدهار : لا فى العهد الصاوى وحده . فى الأسرة السادسة والعشرين — وهو عهد معروف بالحرص على إنتاج الأعمال الممتازة ، واستيحاء فن الدولة القديمة — بل حتى الأسرة الثلاثين آخر الأسرات المصرية . فلا يمكن أن يعيش الفن طوال ثلاثة آلاف عام إلا إذا كانت نظرة المصرى تتجه دائماً إلى ماضيه ، يتمثل بتاريخ أجداده وأسلافه . ويرى فى أعمالهم . وأعمال الأسر الأولى بخاصة ، أن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . وجب المصريين لماضيهم ذلك الحب ، وتمسكهم به حتى آخر رمق من

حياة حضارتهم ، هو فى الحق عجيبة الأعاجيب . فإلى ما حفظته لنا الآثار من قوائم الملوك وسلسلة الأسرات ، نجد قوائم ، أو شجرات نسب ، لآحاد من الناس : مثل ذلك المهندس المعمارى الذى نقش على صخور بوادى الحمامات شجرة نسبه ، من عهد رمسيس الثانى حتى أيام حكم داريوس الفارسى . وفى متحف برلين صور من الحفر البارز لستين تمثالا لأسرة خرج من بين أفرادها عشرون كاهناً من رؤساء كهنة فتاح ، وذكرت مع أسماء ستة وعشرين من أعضائها أسماء القراعنة الذين عمل هؤلاء الأشخاص إبان حكمهم . فهذه وثيقة تبدأ فى الأسرة الحادية عشرة ، وتختتم فى حكم الأسرة التالية . ووجدت لوحة بمقبرة المدعو «تونروى» ، المعاصر لرمسيس الثانى ، وتبدأ باسم «آجب» وهو من يظن أنه منشئ مدينة منف . وفى مقبرة أوخ - حوتب ، بقرية مير ، جدار نقش عليه قائمة أجداد صاحب المقبرة ، وكانوا يتولون وظيفة حاكم كورة القوصية ، من الأسرة الخامسة حتى الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان أوخ - حوتب نفسه معاصراً للملك سنوسرت الأول : أى أنها شجرة نسب تسجل تسعة وخمسين جيلاً .

إن مجرد التفكير بالارتقاء فى شجرة الأسرة كل تلك الآلاف من السنين ظاهرة بسيكولوجية تؤيد ما نحن بسبيله . وإذا تأملنا الحضارات العظيمة فى التاريخ ، استوقفتنا دائماً علامتها المميزة : الاستمساك بالأجداد وما صنعه الأجداد . استمع ما يقوله ، فى مقدمة تاريخه ، شيخ من شيوخ التاريخ ، وأب من آبائه العظام : تيتوس ليفيوس ، مؤرخ روما الأكبر :

« موضوعى فسيح الرحاب انفساحاً هائلاً ، فهو يرقى إلى سبعمائة عام . بدأ بدايات متواضعة ، ثم أخذ يتسع على ، حتى لأخشى أن أضيع فى رحابه ؛ هذا إلى أن الكثيرين من قرائى لن تهملهم فى قليل أو كثير أصول روما ، ولا مطالع دورها فى التاريخ ؛ وسيتعجلون تحدثى إليهم بتاريخهم المعاصر ، حيث نشهد بأعيننا كيف يسير قومنا إلى العفاء ، وهم يقضون بأنفسهم على مصادر ثروتهم . أما أنا ، فخير ثواب لى أن أريح بصرى ، طوال الوقت الذى أصرفه مسدداً غرضى نحو استحضار الماضى البعيد ، وأن أريح بصيرتى مما حل بأهل هذا الجيل من شقاء وهوان » .

يبقى بعد كل هذا السؤال المعلق ، والذي سيظل معلقاً زمناً طويلاً : هل تعتبر مصر أم الحضارة الحديثة ؟

وسأجيب عنه بسؤال آخر : هل فهمنا الحضارة المصرية على وجهها الصحيح ؟
إننى واحد من عامة قراء التاريخ أحس بضعف العلماء المفسرين لديانة مصر القديمة ؛ وما لم نوقن من فهمنا الصحيح لهذه الديانة ، ستظل روح الحضارة المصرية تحاورنا وتداورنا . وشعورى بضعف تفسير العلماء لديانة أجدادى مرجعه التعقيد الذى أصابوها به ، وهو تعقيد لا أحس بوجوده فى طبائعنا نحن المصريين . اعتنقنا الإسلام فى بساطة وسماحة ، لأن الإسلام عقيدة بسيطة سمحاء ؛ وعندما تقبل أجدادنا المسيحية ، حولوا أوزيريس إلى السيد المسيح فى بصر ، ولأيزيس إلى سيدتنا مريم ، ورفضوا تعقيدات اللاهوتيين القائلين بطبيعة ناسوتية وطبيعة إلهية لابن مريم ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة ، الإلهية ، كما نتمسك نحن المسلمون ، فى الناحية الأخرى ، بطبيعته الواحدة ، البشرية ، وبأن خالقه هو الله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

كنا فى تاريخنا القديم — وما برحنا فى ظنى — رجالا عمليين . وإذا كان أسلافنا قد آمنوا بالتعاويد والتأتم والسحر ، فلأنهم وقفوا عاجزين عن تفسير ما وراء حسهم ، ولم يندفعوا فى تلك المغامرات الفلسفية التى عرفتها شعوب أخرى ، كالإغريق والهندوس .

ويعجب أطباء اليوم من طب المصريين القدماء ، إذ جمع بين الملاحظة الدقيقة والممارسة العميقة والمهارة العملية ، وبين الاعتماد على السحر والتأتم والتعاويد ، وهى تؤلف شطراً لا ينفصل عن الشطر العلمى فى المؤلفات الطبية . فإلى جانب وصفاته من الأملاح والأشربة والعجينات والمراهم ، قوائم من الأحجية وما إليها من وصفات « الطب الروحانى » . ولكن الأورد دوسون ، فى فصله الموجز الوافى عن طب المصريين فى كتاب « تراث الحضارة المصرية » ، فهم مأزقهم أحسن الفهم حين قال : « وقد يجىء ، فى يوم واحد ، إلى طبيب فى منف أو طيبة ، شقيقان : أحدهما يشكو جرحاً قطعياً من ضربة خنجر فى صدره ، والآخر يلتمس العلاج لطفح منتشر فوق صدره . علة الأخ الأول واضحة ، أما الثانى فأمره سر مستغلق ، وبذلك يختلف علاج

الاثنين . ونفهم حينئذ كيف يسير العلاج الطبي والعلاج الروحاني - أو السحري - جنباً إلى جنب . وكان دوسون قبل ذلك قد أتى على ذكر الأمراض غير الواضحة العلة . ونسبها إلى سيطرة أرواح شريرة على الجسد . ومحاولة المصري القديم التغلب عليها ومطاردتها . « ونفهم إذن أن يبق لنا من ذلك العصر بردية إدوين سميث ، وبردية جورج إبيرز ، على ما بينهما من اختلاف في وسائل العلاج » . وهنا لا أرى خيراً من أن أحيل القارئ على فصل ممتع لمحمد كامل حسين ، في كتابه « متنوعات » ، يشرح فيه ممارسة الجراح المصري لفنه . تبعاً لنص بردية إدوين سميث . ممارسة تكاد تكون من خصائص عصرنا الحديث . أما بردية إبيرز فهي الطب الروحاني يمارسه الطبيب القديم كلما تعثر حيال فهم أسباب المرض الخفية . ولقد باغ من حرص المصري على « طرُق كل وسائل العلاج » . أن لا يتخلى عن تعاويذه وتماثمه ، إلى جانب ما يصفه من علاج مادي . ويقول دوسون في هذا : « ومع ذلك فإن بردية إدوين سميث الجراحية ذاتها ، تحتوي على رقى وتعاويذ سحرية ، نسخها الناسخ على ظهر البردية ، فيما يشبه ما يملأ صفحات وصفحات من البرديات الطبية الأخرى » وكأنه طالب طب في إحدى جامعاتنا الحديثة . يضيف إلى المذكرات التي يدونها في كلبته . فصولاً مختارة من طب الركة . وكتاب أبي معشر !

الروحانية المصرية لم تكن من النوع الهندوكي المستغاق ، النائه في بوادي الأسرار الفلسفية . إنما هي روحانية الواقف بباب المجهول يحاول اختصامه ، أو تفسيره ، عن طريق تصورات مادية . ولا نعرف شعباً صور كل شيء ، عرفه أو تخيله ، بالقدر الذي بلغه آباؤنا الألى . وكان المصري منطقياً مع طبيعته ، وجسب منطق خاص به ، لا حسب المنطق الذي أورثنا إياه اليونان والعرب من بعدهم .

لذلك أرجح أن ديانة المصريين كانت أبسط بكثير مما يحاول أن يفسرها به العلماء المحدثون . وعندما أراد ذلك المؤرخ العظيم بلوتارك أن يفهم ناحية من نواحي تلك الديانة ، لم يجد صعوبة في أن يصور لنا قصة « إيزيس وأوزيريس » ذلك التصوير اليوناني الباورى الشفاف ، على الأقل في الفصول الأولى من كتابه . أما هيرودوتس فكان مثال المخبر الصحفي الكبير ، بعيوبه وفضائله ، يعنى بظواهر الأمور ، ولا يحاول النفاذ إلى أعماق مما يراه ، جل همه أن يثير انتباه القارئ لكل عجيبة ، حتى ولو لم تكن

كذلك ! ولقد ذهب في هذا إلى حد أن يرى في المصريين عكس ما رآه في الشعوب الأخرى كافة . ولما كان المصريون قد وجدوا في جو يخالف الأجواء الأخرى ، ويعيشون على ضفاف نهر تخالف طبيعته طبائع الأنهار الأخرى — كأن يجري من الجنوب إلى الشمال ، وكأن يفيض في الصيف لا في الربيع — فإن طبائع المصريين وتقاليدهم وقوانينهم يجب أن تخالف طبائع الشعوب الأخرى وقوانينها ! .. ثم يذكر رحالة هاليكارناس تفاهات وترهات انساق إليها ليثبت ما ذكره في أول الكلام ، كأن يقول بأن المصريين يسعين إلى الأسواق بينما الرجال قعيدو البيوت ، يغزلون وينسجون ؛ وأن الرجال يحملون الأثقال على رؤوسهم ، بينما النساء يحملنها على أكتافهن ؛ ورجال الدين في البلاد الأخرى يرسلون شعورهم . أما الكهنة المصريون فيحلقون شعر رؤوسهم زلطة ! أمثال هذه « اللفتات » من هيرودوتس يمكن أن تفسر لك مقدار عجز الرجل عن فهم حقائق ذلك الشعب الذي شاخ وهرم . سياسة حكم ، واجتماعاً ، ديانة ، وفناً .

ولعل كورت لانجه لم يخطئ كثيراً عندما ادعى أن مصر ، في واقع تاريخها القديم . لم تخرج عن العصر الحجري حتى آخر أيامها . ويذكرني هذا بمن يزعم أن مصر المعاصرة لم تخرج بعد عن عصرها الوسيط ، لأن الجبلة المتأصلة في قرارة هذا الشعب ، هي شدة تمسكه بالماضي ، وحرصه عليه ، برغم كل مظاهر التحول والتطور التي تلوح على سطح حياته .

يقول كورت لانجه بأن من خصائص ذلك العصر الحجري : اتصال الإنسان المصري روحياً بالحيوان . إلى درجة أثارت إعجاب الإغريق وعجبهم ، واستنكار الرومان . وقد دعى أكتافيانوس قيصر ذات مرة في مصر إلى الاشتراك في عبادة العجل أبيس فقال . من طرف أنفه : « لقد درجت على عبادة الآلهة لا الثيران ! » . من خصائص العصر الحجري قوة ملاحظة الطبيعة ، والاعتماد على الخبرة العملية . دون الاندفاع في المغامرات الفلسفية ؛ ومن خصائص العصر الحجري تمسك المصريين بالسحر .

وسواء أكان ما يقوله لانجه صواباً ، أو مجرد رجم بالغيب ، فإن الخصائص التي يشير إليها حقائق لا شبهة فيها ، وقد برزت عيوب تلك الخصائص في العصر

المتأخر ، عندما أغرق المصريون في عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد من عاشوا في أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويبصره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أخفى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التي ارتضاها ، سواء قدّ من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الجدل الصغير قد يطمسه الطمي ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه . »

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التي عرفناها في عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا في صورة جامدة متصلبة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول ، تفضل أن تموت في جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الجمود في ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتمسك مصر بعقيدتها الجديدة حفاظاً لقوميتها ، ولو تابعت الحركة الفكرية التي شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تساير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى في مسيحيتها ، أن تنهج نهجها الخاص ، في عقيدتها ، خوفاً على قوميتها أن تذوب في القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحي نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهينة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والجمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام ، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براعة خاصة في الفلسفة ولكنها — كما كان شأنها من قديم — حذقت فنون العمارة والزخرف ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وعنت بالدراسات الدينية

عناية كبرى ، وبالعلوم العربية كوسيلة فعالة ، لا ثانی لها ، لفهم الدین فهماً صحيحاً . وبذلك كانت مصر منارة للعلوم الإسلامية على طول تاريخها ؛ وبالرغم من تدهورها الاقتصادي والفكري تحت الحكم العثماني ، تمكنت من الاحتفاظ بمركز الصدارة الروحية للعالم الإسلامي إلى اليوم .

خير ما تقدمه مصر القديمة ليس شيئاً ملموساً محسوساً ، إنما كانت مصر أمثلة رائعة أمام كل من يعنى بأقدار الإنسانية . فذلك شعب حقق حياته في صميم داخلية ، مليئاً نوازع نفسه ، وظل متمسكاً بحضارته ، متعالياً في إباء ، لا يتكلم كثيراً ، وإنما يدعو ، في رزاقته ، الوافدين عليه ، ليروا بأنفسهم آثار حضارته ، ويقول لفلاسفة اليونان في شمم : ما أنتم سوى أطفال بالنسبة لنا . ولا شك بأن موسى وصولون وطاليس وأفلاطون ، تأثروا بكل ما رأوه وعركوه في الحضارة المصرية . لم يرتدوا إلى أوطانهم ليقلدوا شيئاً عز على التقليد ، وإنما آبوا إليها ، وقد عرفوا المدى الذي يبلغه الإنسان بكفاحه العقلي والمادي .

لعل هذا هو ما يراه الرجل الحكيم في العصور الحديثة ، ولعله يفسر إعجاب أولى الألباب في العالم كله بهذه الحضارة المصرية .

خاتمة

لا يعينى كثيراً إن كانت مصر أثرت على حضارة أوربا ، أو أن أوربا هي بنت التوراة ويونان وروما والإنجيل فحسب . كما لا يجدى الادعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم ، فهي غير باقية ، وانتهى الأمر . إنما الذى يعينى ، ويجب أن نهتم به كل الاهتمام ، هو أن نعيد تلك الحضارة إلى الحياة فى نفوسنا ، وذلك بأن نحاول فهمها ، وأن ندرس حكمتها وعلمها وفنها ، إلى جانب دراساتها للحضارة العربية ، والحضارة الأوربية ، حكمتها وعلمها وفنها . وليس معنى هذا الفهم وتلك الدراسة أن نعود إلى أساليب الفن القديم ، فتلك أفكار سطحية مشوشة ، ودعوة تنقصها أقل خبرة بالحياة الفكرية .

إنما الشعب الحى يجب أن يعيش دائماً على اتصال وجدانى بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء ، التاريخ مثل حية تضرب للناس ، فإذا كنا اليوم نعى بتاريخ الحضارات التى انتهت إلى العالم الحديث ، قلا أقل من أن نجعل من حضارتنا المصرية نموذجاً ، لا للاحتذاء ، وإنما للإلهام . والتاريخ رياضة فكرية عجيبة ، كما أن التاريخ القوى لأهله عصب أخلاقى ، يحرك فينا نشاطاً جديداً ، ونتعلم منه الشئ الكثير دون وعى . ولا أقصد أن يدرس تاريخنا على طريقة « تلك آثارنا » ، أو « نحن أول من . . . » ، أى لمجرد التفاخر والغطرسة ، بل يدرس ونصب عين القائم على تدريسه السهر على بقاء خمسة آلاف عام من تاريخنا حية بحيث يتابع التلميذ دراستها أطول مدة ممكنة ، وتشرح له فى أطوارها كلها ، مبسطة سهلة فى مرحلة التعاميم الأولى ، ثم يعود إليها فى المراحل التالية بشئ من التفصيل . ولا داعى لحشد ذاكرة التلاميذ فى المرحلة الأولى بأسماء ملوك لم يبق منهم غير اسمهم فى الأغلب ، ولا بأرقام سنوات يعترف المؤرخون أنهم يخطئون فى بعضها بالمائة وبالحسمائة سنة . ولماذا نضطر التلميذ إلى معرفة الثلاثين أسرة فرعونية ؟ أما يكفى لفهم الحضارة المصرية أن يعرف عصر بناء الأهرام والمصاطب : ثلاث أسرآت ؟

وأسرة أمينمحت ، والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ؟ ست أسرات في أول الأمر ؛ ثم تملأ بعض الخانات : أسرة أو اثنتين من العهد المتأخر ؛ ويمكن أن نعتبر سريعاً العهد البطليموسى والرومانى ، كى نغنى عناية خاصة بدراسة العهد المسيحى في مصر . وبعد الفتح العربى تتجه الدراسة اتجاهاً توسعياً ، لما لتاريخ مصر الإسلامية من صلة بحياتنا الحاضرة ، وبمركزنا في العالم العربى . ويراعى في تدريس كل تلك العهود أن يشاهد الطالب أمثلة من الفن المصرى كله ، من الدولة القديمة ، حتى الفن العثمانى ؛ وأن يطالع نماذج ومختارات من الأدب المصرى ، مترجماً من النصوص القديمة ، ومن اللغة القبطية . يجب أن توضع بين أيدي الطالب ترجمات عربية جزلة الأسلوب لذلك الأدب القديم ، في تصرف يخلصها مما يعتور النصوص من غموض أو نقص ، أو خروج على العرف العام .

أما اللغة العربية فهي دعامة صرحنا الثقافى كله ، وتعمقنا دراستها ، نحواً وصرفاً وأساليب ، يزيد من اطمئناننا إلى صدق حياتنا ، ورسوخ قواعدها . ولست بمن يطالبون بتدريس اللغة المصرية القديمة ، ولا اللغة القبطية ، إلا لمن يتخصصون في حقباتها التاريخية . وإذا كان الأدب العربى المصرى في بعض العصور يقصر عن البلاغة الكلاسيكية ، فليس معنى هذا النكوص عن دراسته ، ولا سيما أن أدبنا المصرى المعاصر تطور على أساس من كل عصور العربية في مصر ، وخارج مصر ، ومن المؤثرات الغربية .

وعنايتنا القوية بالحضارة العربية لاتعطينا من أن نحى في نفوسنا تاريخ حضارتنا السالفة ، في قالب عربى بليغ . إذ يجب أن يتكون المصرى عقلاً وشعوراً مما يوحى به تاريخه الحضارى كله ، فيتمثل حضارته جميعها في إطار من لغته العربية . يجب أن يدعم قوامه الفكرى والخلقى بكل ما هو مصرى ، حتى تكون له شخصية مصرية واضحة ، تعمل في الآداب والفنون والعلوم . ثم ليصور الرسام ، وينحت الحفار ، ويؤلف الموسيقى ، ويكتب الكاتب ، في كل ما يوحى به إليه عصره وبيئته وثقافته ووجدانه . وليتأثر ما شاء له التأثير بمدرسة هنا ، ومدرسة هناك ، دون خوف ولا وجل . فإن وجدانه المصرى سوف يطبع تأليفه وتصاويره وتماثيله وموسيقاه بالروح المصرى المتأصل .

ولقد مسكنا أخيراً جداً بنحيط من خيوط « أريان » يهديننا إلى مصرتنا ، ألا وهو التراث الشعبي . ولكنه واحد من خيوط الهدى ، أسهلها رؤية وأبسطها وجوداً . إنما التاريخ الحضارى كله — وما الفلكلور إلا قطعة منه — فهمه ، وتمثله ، هو مستودع خيوط « أريان » الأخرى ، الأصعب مثلاً . وبمجموع هذه الخيوط ، يهتدى المصرى إلى أركان شخصيته وأغوارها ، فيتمكن من أن يقدم للإنسانية شيئاً جديداً ، وجديراً بالبلاد التى وهبت العالم مثلاً فى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفنون وفى العلوم ، ما تزال مصدر وحى ودرس وإعجاب لا حد له فى سائر العالم المتملن .

• • •

أردت لهذا الكتاب أن يكون ملحمة للشعب المصرى ، فإذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الأزمان ، وإذا بى ، وأنا أؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، وأشير إلى ما أداه من خدمات للحضارة ، أتوكأ على آلامه وهزائمه .

أترى فى هذا معنى من المعانى المتأصلة فى النفس المصرية ، وهل كنت معبراً عن ذلك الروح الحزين ، روح المصرى يضحك بملء فيه وحنجرته ، ثم يقول فجأة « اللهم اجعله خير » ؟ لا أدرى ، وإنما أعرف أننى أعيش مثل مواطنى ، نظرننا يحدق فى الماضى المجيد ، يستوحيه أملاً فى المستقبل ، وموقن بأن ما أبقي على المصرى خمسة أو ستة آلاف سنة من تاريخه المهول ، هو إيمانه بشمسه ونيله وأرضه السمراء ، وقوة الخير التى تدبر أموره من عل ، فهو مؤمن بأن المدبر الأعلى لا ينسى كنانته ، وأن من أرادها بسوء قصمه الله ، وأن بعد العسر يسراً . وهو يحب أن يردد « رب تمم بالخير » . وإن أعمق الكلمات التى سمعتها تردد على لسان الناس فى أحياء القاهرة القديمة هى كلمة « الفرج » ؛ فالمصرى ، مهما نزلت به النوازل ، يأمل فى الفرج بعد الشدة . ولست تأكداً إن كنت هنا قد نفذت إلى سر قوة هذا الشعب العجيب ، أتكون حقاً فى إيمانه بكلمة « تفرج » ؟ أهى فى أنه لم ييأس يوماً واحداً فى ستة آلاف عام ، من رحمة مفرج الكرب ؟

هأنذا وقد بلغت ذروة المجد فى عصر الحدود الأوائل ، أختم كتابى بكلام لهم ، فيه

صورة من نفسيته ، ومن نفسيتنا نحن أحفاد الأحفاد . فقد عرفوا الشدة والآلام والاضطراب والحرب ، على الأقل في فترتين من تاريخهم الوضاء : الفترة الأولى بعد نهاية الأسرة السادسة ، وهي فترة طويلة ، في حياة أربع أو خمس أسر ، يخرجون منها منتصرين على أنفسهم ، في عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ والفترة الثانية عندما تقع مصر بين برائن شعب لا يرحم ، وهم الهكسوس ، أى ملوك الرعاة ، في ترجمة مانيتون ، والملوك اللصوص في ترجمة أخرى ، والغرباء حسب آخر النظريات في ترجمة الاسم . وسيدوق المصريون صاب الذل بعد ذلك أحقاباً فوق أحقاب ، بعد أن فتحوا بلادهم للغرباء ، فطمع هؤلاء في أرض الجود والعطاء ، وفي الموقع المتحكم المسيطر وسط العالم القديم بين ثلاث قارات . سيخضعهم بعد الهكسوس ، الآشوريون واللوبيون والإثيوبيون والفرس والمقدونيون والرومان وعرب تدمر في ملك زنوبيا ، والروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة على الشرق الأدنى من أجناس الترك ، سيحكمهم العثمانيون والفرنسيين والأرنؤد والبريطانيون . أى أن مصر ذاقت حكم الأجنبي على كل لون تراه فوق خريطة أوروبا وآسيا ، لم ينقصها إلا حكم الهنود والصينيين واليابان ، حتى يمكن القول بأن مصر ليست بأقدم الأمم حضارة وأعرقها فحسب ، بل قد تكون الوحيدة من بلاد الله عانت خلق الله جميعاً .

أقول هذا دون تحرج ولا خجل ، لأن بلادى خرجت من مخائنها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء ، مقبلة دائماً على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شيء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان .

* * *

آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة في الزمان ، إلى ركنى من هذه الأرض ، وزمانى من تاريخها ، فهل أقول بلغة الجدات : توتة توتة ، فرغت الحدوتة ، وادبنى كنت عندهم وجيت ، وإن ماكانشى طاقيتي مخروقة ، لجبت لكم معايا فتة وسلوكة ؟

ولكن الجدة كانت تعود من عندهم في عالم القصص والأساطير ، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسست بوجيبه كما أحس به فى دمه ولحمه ساكن نغن

وبوطو ومنف وطيبة وتانيس والإسكندرية ومصر والقاهرة .

أنا الذى بدأت رحلتى بالسرى فى ظلام العبودية ، وانتهيت من رحلتى إلى ضياء العصور القديمة ، ونفسي تشرق بنور الأمل فى العصر الحديث . حاشا وكلا . أن أعود من رحلتى خاوى الوفاض !

وإنما حملت لكم ، ممن كنت عندهم ، حديث رجلين عاشا منذ أربعة آلاف عام ، يندبان عصر الاضطرابات فى الفترة المتوسطة الأولى ، التى كانت تعرف بعصر الإقطاع . وهما مثلك أيها المصرى ، لا تنكس أعلامهما النكبات ، بل يحدوهما الأمل الواسع العريض . لأنك يجب أن تعرف نفسك على حقيقتك ، أنت المصرى البجوب الطرير ، السارح فى بوادى الخيال ، المغرم بأغاني الحب وألحان الصباية . أنت أيضاً ، مثل الكاتب الذى عاش منذ أربعة آلاف سنة ، ومثل هذا الضعيف الذى يضع كتابه ودعية بين يديك : فى طبعك سوداوية وحزن كظيم ، تقول فى عز أفرحك « اللهم اجعله خير » . وكما أنك لا تنسى البأساء فى السراء ، فإنك لا تفقد الأمل مهما عز الأمل ، وتؤكد بأنها . فى ليلة اليأس الليلاء : تفرج !

أصغ إلى ما يقوله جد من جدوك الأولين ، المدعو إپو - وير :
« اسمع يا قلبى ، واندب حظ البلاد التى فيها نشأت . . . فقد خربت . ولا حياة لمن تنادى . ابك يا قلب وحدك . فليس ثمة من يواسيك . انظر الشمس يا قلبى وقد غيبتها الغياهب ، فلا هى مشرقة ولا هى غاربة ، انظر إلى نيل مصر وقد غاض ماؤه ، تخوضه بأقدامك إن شئت ، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسفينتك ، فستجد مجراه شطئناً ، ووضفاه ماء جارياً .

« كل طيب ولى ، والبلاد حليقة الشقاء ، تنن تحت أقدام الغرباء ، اقتحموا علينا ديارنا ، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان ، وقد وقع وقوع القاس فى الراس . « فالابن عدو لأبيه ، والأخ يضرب أخاه ابن أمه ، ويدبر له وجهه وهو يذبح . كل طيب ولى ، والبلاد تموت ، والأرض تنزع من يد صاحبها ، ويغتصبها الغرباء . تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل ، لأن أعداء البلاد أفقر وأصنعها ، والحاصد لا يملك ما حصد ؛ تأمل من لم يحرق الأرض . ويملاً بالغلل أهراءه ، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجة ، والغريب يملأ كرشه .

« انظر الماشية السائمة ، لا راعى يرعاها ، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا ، وأصابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادي ، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولاب صانع الفخار . فاللصوص صعدوا الحدود واستطالوا ، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا . ومن لم يكن يملك زوج ثيران ، يحتكم اليوم على قطيع منها . لم يبق من العدالة غير اسمها ، وباسمها تقترف المظالم . سكن هرج الأفراح ، وعلا صوت العويل والنواح . والصغير يقول قبل الكبير : ليتني كنت ترابا ، ويكاد الطفل يندب مجيئه إلى هذا العالم .

« أليست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح . من لا يعرف قلبه المرحلة ، الذي إذا قلت مواشيه . قضى يومه يجمع شملها ، ويروى ضمأها ، ويداوى عللها . ألا متى نجىء فيجث الشر من أصله ، ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت ؟ أين ذو اليوم ، هل راح في غيوبة النوم ؟ »

وإذا بع من أعمالك الأولين ، المدعو نفر — روهو ، يجييه :

« كلا ، لم تأخذه سنة ولا نوم . سيأتى من الجنوب ، اسمه آمينى (أمنيحمت ؟) أبوه من الصعيد ، وأمه من النوبة . وسيضع على رأسه التاج الأبيض ، ثم يضع على رأسه التاج الأحمر ، ليوحد الإقليمين ، وينشر السلام في ربوع الوجهين . وسيفرح به أهل زمانه ، وسيخالد اسمه في العالمين .

« أما الذين دبروا الشر ، ونشروا الفساد . فسيفض فوهم من خشيته . ويسقط الأسويون تحت ربات حسامه . ويكتوى الليبيون بنار انتقامه ، ويصيخ الثائرون لحكمته . أو سطوته ، ويطأطئون رءوسهم لرأس الصل الذى يطل من جبهته .

« وعندما تطارد ” معات “ الظلم من سطح الأرض ، سيعود الحق إلى نصابه ، والعدالة سيرتها الأولى .

« فليفرح قلب كل من قدر له أن يشهد ذلك الزمان . »

مجلد تاريخ مصر

فلنرجع هنا أيضاً الفضل لذويه . دون أن نحملهم تبعة : اقتبست هذه الخلاصة عن نبذة للأستاذ جورج شتايندورف . بتصرف شخصي . وإجمال . وقد وردت هذه النبذة في مقدمات دليل « كارل بديكر » ، النص الإنجليزي : طبع لايبزج سنة ١٩٢٩ .

واتبعنا فيها التوقيت القصير : بدء تاريخ الأسرات في آخر القرن الأربعين قبل الميلاد ، سنة ٣٢٠٠ . ولا يمكن الاعتماد على هذه التواريخ قبل حكم بساماتيك الأول ، أى في مطالع الأسرة السادسة والعشرين . أما قبل ذلك ، فقد يخطئ المؤرخون التقدير . وبخاصة في الحقبات الأولى ، بضع عشرات : أو مئات من السنين .

والتقسيم إلى أسرات من عمل الكاهن مانيتون السمنودي ، الذى عاش لثلاثمائة عام قبل الميلاد . والغالب أنه كان من كهنة هليوبوليس . وألف تاريخه في ثلاثة كتب ، أيام بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ، ألفه باليونانية وسماه مذكرات مصرية « إچيسياكا أبومنا » . ولم يكن المصريون يؤرخون إلا لحكم الملك الواحد ، حسب أعوام حكمه ، ولا يتابعون تاريخهم في سلسلة متصلة . أما التقسيم إلى عهود ، أو دول ، أو إمبراطوريات فن عمل المؤرخين المتأخرين . لمجرد حسن العرض . وسهولة المراجعة .

الدولة القديمة

[٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق . م .]

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٢٠٠ - ٢٧٨٠

الأسرة الأولى والأسرة الثانية تؤلفان العهد الطينى ، أو الطينيسى ، نسبة إلى العاصمة القديمة في طينة أو طينيس . التى يظن أن موقعها إلى الشمال الغربى من جرجا ، مكان قرية البرباء ، شمال بيت خلاف . والمحاسنة .

أول الملوك منيس ، أو منا ، أو مينا ، منشئ « السور الأبيض » - حائط العجوز ؟ - وهو حصن أنشئت في موضعه مدينة منف فيما بعد . وعثر الأثريون على قبور لبعض ملوك الأسرتين في أبيدوس (العراة المدفونة) قرب البليانة .

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ - ٢٧٢٠

نقل زوسر عاصمته إلى منف ، وبنى في موضع سقارة الهرم المدرج ليدفن فيه . وفي عهده أنشئت أقدم المصاطب . سنفزو (سوريد العرب ؟) باني هرم ميدوم ، وهرم دهشور (؟) .

الأسرة الرابعة : ٢٧٢٠ - ٢٥٦٠

خوفو ، أو خيوبس ، صاحب الهرم الأكبر .
ددف - رع ، هرمه في أبي رواش
خضرع أو خفرن ، باني الهرم الثاني بالجيزة
منقرع ، أو منقرورع ، صاحب الهرم الثالث بالجيزة
شيسسكاف : مدفون بما يعرف بمصطبة فرعون ، إلى الجنوب من سقارة ، في الطريق إلى دهشور .

الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ - ٢٤٢٠

أوسر كاف : هرمه في سقارة
سهورع

نيوسرع

أوناس أو أونيس أو أونوس : آخر ملوك الأسرة ، هرمه في سقارة ، واكتشف فيه ماسبرو أول متون الأهرام .

الأسرة السادسة : ٢٤٢٠ - ٢٢٧٠

تيتي ، أو أطويس

فيوبس الأول

مرنرع

نفر كارع

أهرامهم بسقارة

الفترة المتوسطة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة ٢٢٧٠ - ٢١٠٠

مجهولة التاريخ ، ويظن أن الأسرة الثامنة حكمت في منف ، ولكن ملوكا آخرين . من الأسرة التاسعة والعاشرة حكموا في هرقلوبوليس . ومكانها ، فيما يظن ، إهناسيا المدينة ، أو أم الكيمان . اسمها المصرى هات - نن - نسوت . واللقبى اهنس ، وتبعد نحو ستة عشر كيومترا إلى الغرب من بنى سويف .

الدولة الوسطى

[٢١٠٠ - ١٧٠٠ ق.م.]

الأسرة الحادية عشرة ٢١٠٠ - ٢٠٠٠

عصر أمراء طيبة ، امتدوا بسلطانهم إلى الكور المجاورة ، ثم إلى كل الكور شمالا وجنوبا ، والاسم الغالب على ملوكها : منتوحوتب ، ملوكها تغلبوا على ملوك هرقلوبوليس .

الأسرة الثانية عشرة ٢٠٠٠ - ١٧٩٠

عصر بناء ، وفنون وآداب . أعظم العهود المصرية رخاء

أمينمحت الأول : مدفون بهرمه في لشت

سنوسرت الأول : أو سيزوستريس الأول . دفن في هرمه بلشت

أمينمحت الثانى : دفن في هرمه بدهشور

سنوسرت الثانى : صاحب هرم اللاهون

سنوسرت الثالث : هذا هو سيزوستريس العظيم في تاريخ هيرودوتس .

وهرمه في دهشور

أمينمحت الثالث : صاحب هرم هواره . وبانى المعبد الكبير بمدخل

منخفض الفيوم ، وسماه الإغريق اللايرانت .

ومنظم خزن المياه بالفيوم .

أمنمحت الرابع
الملكة سبك - نفرو
الأسرة الثالثة عشرة ١٧٩٠ - ١٧٠٠
يحمل ملوكها اسم سبك - حوتب ؟

الفترة المتوسطة الثانية

[١٧٠٠ - ١٥٥٥ ق.م]

الأسرات من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة
مأساة التاريخ المصرى القديم . أسرات غير معروفة . ربما كانت تحكم
فى وقت واحد فى أمكنة مختلفة . ويغلب أن يكون ملوك طيبة من الأسرة السابقة
استطاعوا أن يتابعوا حكمهم فى الجنوب . بينما كان يحكم ملوك الأسرة الرابعة
عشرة فى خويس (سخا) .
وقضى غزو الهكسوس على الأسرتين . وحكم البرابرة الآسيويون مصر بالحديد
والنار ، من عاصمتهم فى أواريس ، فى موضع صان ، إلى الشمال من فاقوس .
ويؤلف الهكسوس الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة . ويبدو أن
أمرأ من طيبة ظلوا يحكمون فى الجنوب كأتباع للهكسوس ، وقبورهم اكتشفت
فى دراع أبى النجا ، بوادى طيبة .
أما الأسرة السابعة عشرة فهى التى أنجبت محرر مصر من الهكسوس الملك
أحمس (أحموزى) . فاتح أواريس . وأحمس هذا هو ابن أول ملوك هذه
الأسرة المسمى سكنن - رع ، وأخو ملكها الثانى كيموزى .

الدولة الحديثة

[١٥٥٥ - ٧١٢ ق.م]

عهد الإمبراطورية العظمى . والفتوحات الآسيوية ، والتوسع فى بلاد أعالى
النيل . تأثرت الحضارة فى حكم تحوتمس الثالث بمؤثرات أجنبية نتيجة اتصالها
بشعوب الشرق الأدنى . عصر سلطان طيبة وراثتها وبنحها .

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٥٥ - ١٣٥٠

أمينوفيس الأول : أو أمينحوتب

تحوتمس الأول أو تحوتموزى ، قاهر أعالي النوبة . قبره فى ببيان الملوك ،
وأول قبور ملوك الأسرة هناك .

تحوتمس الثانى

حتشبسوت ، سيدة الدير البحرى

تحوتمس الثالث ، قيصر الدولة القديمة ، أعظم ملوك مصر قاطبة

أمينوفيس الثانى ، أو أمينحوتب

تحوتمس الرابع . أول من غنى بتمثال أبى الهول بالجيزة، وأزال عنه الرمال تحقيقاً
لما رآه فى حلمه، وهو مضطجع بين ذراعى من كان يظنه إله الشمس هارماخيـس .

أمينوفيس الثالث . أو أمينحوتب : هذا هو « ممنون » الإغريق ،
وزوجته « تى » أم أخناتون . وصاحب الصلات الوثيقة مع أمة « الميتانى » .
على ضفاف الفرات الأعلى . بانى معابد الأقصر والكرنك والنوبة ومعبده
الجنازى كان بمدينة « هابو » ، لم يبق منه سوى « القولوسات » المعروفة باسم
صمنى ممنون .

أمينوفيس الرابع وزوجته نفرتى : هذا هو الثائر الأول فى التاريخ ،
وصاحب ديانة الواحد آتون . ومحطم أصنام طيبة . غير اسمه الآمونى إلى
آخن - آتون (عبد قرص الشمس) . وبنى عاصمته الجديدة فى موقع تل
العمارة حالاً أمام ملوى . واسمها آخت - آتون (أفق قرص الشمس) .
نوت عنخ - آمون : الملك الشاب المرتد إلى ديانة الأجداد . العائد إلى
طيبة .

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٥٠ - ١٢٠٠

هورمحب قائد الجيوش ونائب الملك ، أعاد السلام إلى الربوع ، وأكمل
القضاء على آثار عبادة الشمس ، أخناتون .

رمسيس الأول

سبتي الأول : حارب الليبيين والحيتيين . وثبت أقدام الإمبراطورية .

باني معبد أبيدوس بالعراية المدفونة . ومعابد بالقرنة والكرنك .
 رمسيس الثاني : أشهر ملوك مصر القدماء . عاد إلى حرب الحيثيين ،
 وصالحهم على اقتسام سورية ، محتفظاً بفلسطين .
 يكاد نصف المعابد المصرية القائمة حالا ينسب إليه بناؤها ؛ وأعظمها معابد
 أبو سمبل والكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس . عاصمته
 في تانيس ، ولكن طيبة لم تتقهقر عن عظمتها .
 منفتح أو مرفتاح : حارب الليبيين وشعوب البحر والإثيوبيين . وله معبد
 جنازى في طيبة .

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ - ١٠٩٠

ست - نخت : أعاد السلام إلى الربوع
 رمسيس الثالث : قاهر الليبيين . والمدافع عن الحدود ضد البرابرة من
 آسيا ومن البحر . ثم قضى بقية حكمه ، نحو واحد وعشرين عاماً ، في سلام .
 باني معبد مدينة هابو وقصورها . بالغ في إغداق العطايا والخيرات على معبد
 آمون .

رمسيس الرابع - حتى رمسيس الثاني عشر : سلموا ذقونهم لكهنة آمون
 هريهور ، كاهن طيبة الأكبر : استولى على الملك بعد موت آخر الرعامسة .

الأسرة الأولى بعد العشرين : ١٠٩٠ - ٩٤٥

قاوم أمراء تانيس حكم هريهور المغتصب . وأسسوا الأسرة الأولى بعد
 العشرين (أسرة بسوسنس وأمينمحيوت) . عهد مضطرب . خرجت فيه
 الذوبة وفلسطين على الحكم المصري . وفي أيام هذه الأسرة تمكن كاهن من
 أشباه هريهور من السيطرة على مصر كلها بعد زواجه بأميرة من الأسرة
 الثانية .

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ - ٧٤٥

ملوك هذه الأسرة من أصل ليبي ، من أفخاذ المشاوشة . وهي قبيلة ليبية
 من أهم القبائل التي كانت تؤلف فرقا من الأجناد المرتزقة في الجيش المصري .
 وانزوت طيبة أمام العاصمة الجديدة في بوباسطيس .

شيشونق . وهو شيشاك التوراة : قهر التانيسيين ، واستولى على أورشليم ،
وخرب معبد سليمان حوالى ٩٣٠ قبل الميلاد . ثم أسوركون ، وشيشونق الثانى إلخ .
الأسرة الثالثة والعشرون ٧٤٥ - ٧١٨ .

أسرة لا يعرف عنها إلا القليل : تف - نخت . أمير صا ومنف ، حاول إقامة
حكمه فى الدلتا . ولكنه غلب على أمره أمام بعانخى ملك إثيوبيا الذى
أغار على مصر ودخل منف .

الأسرة الرابعة والعشرون ٧١٨ - ٧١٢ .

حاول واحد من نسل ملوك تانيس ، هو بوكوريس بن تف - نخت ،
أن يستقل بالدلتا ، ولكن ملك كوش (إثيوبيا) قهره وأسره وأحرقه حيًّا ،
وبذلك تم للكوشيين الاستيلاء على مصر وتأسيس الأسرة الإثيوبية .

العصر المتأخر

[٧١٢ - ٣٣٢ ق . م]

الأسرة الخامسة والعشرون الإثيوبية : ٧١٢ - ٦٦٣

شباكو أو سباكون . ثم شباتاكا
طهارة . وهو ترهاقة التوراة : ساعد أمراء سورية وفلسطين ضد الآشوريين .
ولكن هؤلاء استداروا إليه وقهروه ، بقيادة ملكهم أسارهادون سنة ٦٧٠ .
واستولوا على منف ، وخضع لهم أمراء الصعيد . بيد أن انشغال الآشوريين
بجرب بابل وإيلام ، كانت فرصة انتهزها بساماتيك أمير سايس (صالحجر) .
بمساعدة المرتزقة الإغريق ، وطرد الآشوريين ، ووجد المملكة تحت حكمه .

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ - ٥٢٥

عود إلى الرخاء وبعض العز القديم ، بفضل الاتصالات التجارية بالإغريق
وعناية الملوك والشعب بالمثل العليا فى الفن والأدب . كما تلقوها عن عصر
الدولة القديمة والدولة الوسطى .

بساماتيك الأول : أمير صا ، الذى قاد الثورة ضد الآشوريين وطردهم
نخاو : غزا سورية وهزم جيش يوشع ملك اليهودية فى موقعة مجدو ؛ ثم انهزم

المصريون في موقعة كركيمش على الفرات عندما استدار لهم يختصر ملك بابل فأجلاهم عن سورية وفلسطين . ونخاو صاحب البعثة البحرية التي قامت من البحر الأحمر وخرجت إلى بحر الهند ، ودارت حول الطرف الجنوبي من أفريقيا ، واتجهت شمالاً إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق (أعمدة هرقل عند اليونان) . ثم عادت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض . وقد جاءت أخبارها في كتاب هيرودوتس .

وبدأ نخاو حفر قناة تصل بين الفرع الشرقي للنيل وخليج السويس :

بساماتيك الثاني .

أبريس أو وه -- إب -- رع ، أو « هو فرات » التوراة . حاول استرجاع سورية . ولكنه لم يستطع الوقوف أمام يختصر الذي فتح أورشليم سنة ٥٨٧ . أمازيس : قائد لبني أقصى الملك أبريس عن العرش ، وتزوج ابنة بساماتيك الثاني ، وكانت سبيله إلى الملك . وأسكن أمازيس الإغريق مدينة نوكراتيس التي نمت بسرعة حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية في الشرق الأدنى بساماتيك الثالث : هزمه قمبيز ملك الفرس في فيلوزيوم (الفرما) على الحدود المصرية ، سنة ٥٢٥ ق . م .

الأسرة السابعة والعشرون (فارسية) : ٥٢٥ - ٣٣٨

حكم الفرس : وجه قمبيز حملة في الصحراء الليبية . فابتلعها الصحراء . وحملة أخرى ضد الإثيوبيين . داريوس الأول : أتم قناة نخاو من النيل إلى البحر الأحمر . بنى في عهده معبداً لآمون بالواحات الخارجة .

ثار المصريون على الحكم الفارسي بعد أن وصلتهم أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق في موقعة ماراثون . ولكن أكسرسيس الأول أخذ الثورة ، وولى أخاه أميراً (شربة) على مصر .

وفي حكم أرتاكسرسيس الأول نشبت ثورة مصرية جديدة لم تنجح ؛ وصاب إناروس زعيم الثورة ، وكان أمير منطقة مريوط .

زار هيرودوتس مصر بعد سنة ٤٤٩

داريوس الثاني : تدهور الحكم الفارسي . وثار المصريون للمرة الثالثة . واستقلوا من عام ٤٠٤ حتى ٣٤١ . وحكمهم ملوك منهم ، أدرجهم مانيتون في الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين .

الأسرتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون : ٤٠٤ - ٣٧٨
أمورطيوس حكم في « صا » حكماً قصيراً ، وكانت أسرات أخرى تتنازع الحكم في البلاد : ثم جاءت أسرة من منديس (منديد في القرون الوسطى . قرب تمي الإمديد . بموضع يعرف بتل القصر) . وتولت الحكم بمساعدة المرتزقة الإغريق . وملوكها نفيريتس وأخورييس وبسافوتيس إلخ .

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ - ٣٤١
نكتانيبوس الملك : عاصمته سبينيتوس (سمند) . وكان ملكاً قوياً . بنى معابد في قبليه . ومدينة هابو . وصرحاً في الكرنك . نكتانيبوس الثاني : بنى معبداً كبيراً لإيزيس في (بهبيت الحجارة . قرب ميت عماس) وهي « هيب » في لغة القدماء ، وأقام صرحاً في الكرنك . عودة الفرس : ٣٤١ ق . م . وعاد الفرس إلى مصر . فهرب آخر ملوكها . نكتانيبوس الثاني إلى إثيوبيا وأنهال الفرس في هذه المرة على مصر تخريباً وسلباً ونهباً .

العصر الإغريقي

[٣٣٢ - ٣٠ ق . م]

عرف إدوارد ماير هذا العهد بقوله : « في حكم البطالسة عاد وادي النيل الأدنى . ولمدة ثلاثمائة سنة . مركزاً لمملكة من أغنى الممالك وأقواها وأكثرها رخاء . يحكمها ملوك موهوبون ، في أول الأمر . بيد أن خلفهم الطالح المنحل . يحارب الأخ منهم أخاه ، فزلوا بها إلى الحضيض . ولم يكن لمصر حياة إلا بفضل روما ، حتى وجدت نفسها وسط معترك العالم الروماني ثم انتهت كدولة مستقلة » .

٣٣٢ - ٣٢٣

الإسكندر الأكبر : أبدى تساعاً نحو الديانة المصرية ، وسافر إلى واحة سيوة ، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله .
 وأنشأ الإسكندرية إلى جانب قرية صيادين تحمل اسم « رقودة »
 (راكوتيس) ، فما عتمت حتى أصبحت - بفضل البطالسة الأوائل -
 مركزاً للثقافة الإغريقية وللتجارة العالمية . وبعد موت الإسكندر ، تفككت
 الإمبراطورية المقدونية .

٣٢٣ - ٢٨٥

وتقاسمها قواده ، فكانت مصر من نصيب بطليموس الأول (سوتر) ،
 أبوه لاجوس . وتعرف أسرته باسم الأسرة اللاجيدية . بدأ حكمها « شتريه » ،
 أى نائباً للملك ، حتى موت الإسكندر الثانى سنة ٣١١ ، وارتقى عرش مصر
 سنة ٣٠٥ . منشئ الموزيون (مدرسة الإسكندرية) ، ومدينة بطوليمائيس بالصعيد ،
 ومكانها الحالى قرية المنشا ، أو المنشية ، فيما بين سوهاج وجرجا .

٢٨٥ - ٢٤٦

بطليموس الثانى (فيلادلفوس) : بلغت مصر فى عهده ذروة توسعها
 الخارجى ، وسميت مديرية الفيوم باسم أخته - زوجته ، الملكة أرسينوى .
 استجلب الفيل من الصومال ، واستؤلف لأغراض عسكرية (؟) . ألف الكاهن
 المصرى مانيتون السمنودى تاريخ الأسرات الفرعونية ، باللغة اليونانية .

٢٤٦ - ٢٢٢

بطليموس الثالث (إورجيتس) : غزا مملكة السلوقيين فى آسيا الصغرى ،
 وتقدم لفتح بابل ، ولكنه قفل راجعاً إلى مصر ليعالج ثورة محمية . فاسترد
 السلوقيون ما فقدوه . وفى عهده حاول الكهنة المصريون تصحيح التقويم بإضافة
 يوم كل أربع سنوات ، ولم يتم لهم ذلك . كما ظهر فيما يعرف بمرسوم كانوب ،
 الذى عثر عليه سنة ١٨٨١ ، فى كوم الحصن (بين دمنهور وإيتاى البارود) ،
 وفى تانيس سنة ١٨٦٦ . وهو مكتوب باللغة المصرية فى صورتها الهيروغليفية
 والديموطيقية ، وباللغة اليونانية . أصدره مجمع الكهنة فى كانوب فى السابع

عشر من شهر طوبة سنة ٢٣٨ ق . م . في حكم إورجيتس هذا . ليعجلوا اسم الملك الذى أعاد الأصنام المصرية من آسيا ، ونشر السلام فوق الربوع . ويقترحون فى المرسوم تعديل التقويم حتى يقع عيد إورجيتس فى اليوم الأول من العام . كما اتفق له سنة إصدار المرسوم .

٢٢٢ - ٢٠٣

بطليموس الرابع (فيلوپاتور) : بدأ انحلال الدولة فى عهده . مع أنه هزم أنطيوخوس الأكبر فى موقعة رفح . وكان هذا الملك يهدد الحدود المصرية . وتزعم أمراء طيبة فى عهده تورات جعلتهم فى حكم المستقلين فى الجنوب .

٢٠٣ - ١٨١

بطليموس الخامس (إيفانيس) : تولى العرش طفلاً . تحت وصاية شرذمة من الأوغاد . فأنتمزها فرصة ملكا سورية ومقدونية (أنطيوخوس وفيليب الخامس) . واقتطعا من مصر أملاكها . فلم يبق لما غير برقة وقبرص . ووضعت الأسرة بطليموسها الصغير تحت حماية مجلس شيوخ روما (الساناتو) وعمت الثورات . واضطربت شؤون الحكم .

١٨١ - ١٤٦

بطليموس السادس (فيلوميتر) : تولى الملك تحت وصاية امه كليوباترة . وغزا أنطيوخوس مصر . ودخل منف . ولكن المبعوث الرومانى اضطره إلى الجلاء . واستدعى الشعب بطليموس التاسع (أبا كرش) ليحكم إلى جانب فيلوميتر . فدب الخلاف بينهما ، وهرب فيلوميتر إلى روما . وأعاده مجلس الشيوخ الرومانى إلى العرش وحده . وأعطيت لأبى كرش ولاية برقة .

١٤٦ - ١١٧

بطليموس السابع ، ابن السادس : حكم ثم ترك الحكم لخلفه بطليموس التاسع (أبو كرش) : حكم وحده . باسم إورجيتس الثانى . ثم طارده ثورة . فذهب إلى قبرص . وحكمت زوجته كليوباترة ، ثم عاد إلى العرش ، وبعد وفاته سنة ١٢٧ ، حكمت أرملته وابنها .

بطليموس العاشر [سوتر الثاني] ، وهذا هو بطليموس لاتيروس [حمص] ،
وطورد فقام بدله :

١٠٦

بطليموس الحادى عشر (إسكندر الأول) .

٩٦

وقدّمت برقة هدية إلى روما ، فتحولت إلى إيالة رومانية .

٨٨

وعاد بطليموس حمص بعد أن طاردت الثورة إسكندر الأول . وفى عهده
ثار أمراء طيبة وفشلوا ، فدمرت طيبة .

٨٠

بطليموس الثانى عشر : كان يعيش فى روما ، فلما علم القائد سيلا بأن
كليوباترة - برنيقة تولت العرش ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، أوعز
إلى الأمير بالسفر إلى الإسكندرية ليتزوج الملكة ، فزوجها وقتلها بعد
أسبوعين من الزواج ، وحكم وحده ، وثار الإسكندريون عليه فقتلوه فى الملعب الكبير .

٨٠ - ٥١

بطليموس الثالث عشر ، أو ديونسيوس الحديد ، المكنى بعازف الناي
[أوليتس] ، أى الزمار . وهو أبو كليوباترة المشهورة . اقتطعت روما قبرص
من مصر ، فطارد الإسكندريون الملك الزمار ، وأعادته روما إلى العرش .
وفى عهده تم إنشاء معبد إدفو ، وبدئ فى إقامة معبد الإله هاتور فى دندرة .

٥١ - ٤٧

تولت كليوباترة الشهيرة ، وأخوها بطليموس الرابع عشر العرش ، تحت
وصاية مجلس شيوخ روما . ولكن الغلام طرد أخته ، وحكم وحده بمعونة ثلاثة
من الأوغاد . والتجأ القائد بومبيوس الأكبر ، بعد هزيمته فى فارساليا . إلى
مصر . فاستقبله أمام فيلوزيوم هذا الغلام وأوصياؤه الأشرار . وذبح بومبيوس فى
القارب الذى حملة من السفينة ، قبل أن يصل إلى الشاطئ ، وعلى مرأى من
زوجته ورجاله على السفينة ، ومن الغلام الغادر وأوصيائه فى البر .

نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية ، وناصر كليوباترة على أخيها ، الذى حاول العودة إلى عرشه ، فقهرته جنود قيصر وغرق فى النيل . وعندما عين قيصر دكتاتوراً فى روما ، عين أخاً ثانياً لها شريكاً فى الحكم هو :

٤٧

بطليموس الخامس عشر ، وهو حدث ابن أحد عشر عاماً ، وقتل هذا بتدبير أخته ، التى أقامت طفلها من قيصر (قيصارىون) شريكاً لها ، وهو :

٤٥

بطليموس السادس عشر .

٤٤

قتل الجمهوريون يوليوس قيصر فى مجلس الشيوخ الرومانى :

٤١ — ٣٠

استدعى مارك أنطونيوس كليوباترة إلى طرسوس بكليكييا ، بحجة تقديم حساب سياسى له . ووقع أسير غرامها . وعاشا حياة استهتار وتبذل أعواماً طويلة . حتى انتهى الأمر بأن أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، وقرر مجلس الشيوخ أن أنطونيوس عدو الوطن . وقاد أكتافيانوس قيصر ، حفيد يوليوس ، جيش روما وأسطولها ، وهزم أسطول أنطونيوس فى موقعة أكتيوم ، وبعد عام ، استولى على الاسكندرية ، وانتحر انطونيوس بالسيف ،

العهد الرومانى

[٣٠ ق. م — ٣٩٥ ميلادية]

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصاً للإمبراطور أغسطس قيصر [أكتافيانوس] يوفد إليها مندوباً من قبله . وتابع الإمبراطور سياسة البطالسة فى مملأة الكهنة المصريين ، وما كان أسرع هؤلاء إلى اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة . وكان أول الولاة الرومانيين الشاعر كورنيليوس جالوس ، وبدأت ولايته بثورة مصرية فى الصعيد . وفى عهد أغسطس قيصر بدأ

العمل بالتقويم المصرى المعدل [اليولياني] .

٢٤ - ٢٣ ق . م

غزت كنداسة ملكة الإثيوبيين مصر سنة ٢٤ ق . م ، وطاردها الولى
الرومانى بطرونيوس .

١٤ - ٣٧ ميلادية

الإمبراطور طباريوس : وفى عهده رفع المسيح إلى السماء (٣٠ م ؟)

٣٧ - ٤١

كاليجولا ، الإمبراطور المجنون .

٤١ - ٥٤

كلاوديوس [أقلاديوس] : بدئ فى عهده بناء معبد إسنا ومعبد فى فيليه

٥٤ - ٦٨

نيرون

٦٩ - ٨٠

فسباسيان : أعلن إمبراطوراً فى الأسكندرية ، ومن هناك قام ابنه طيطس
بفتح فلسطين ، وهدم أورشليم ومعبد الكبير .

٨١ - ٩٦

دومطيانوس قيصر : أقام عبادة إيزيس وسيرايس فى روما

٩٨ - ١١٧

ترايانوس : أعاد فتح قناة نخاو - داريوس ، بين النيل والبحر الأحمر ،
باسم « آمينيس ترايانوس » .

١١٧ - ١٣٨

أدريانوس : زار مصر عام ١٣٠ م ، واصطحب صفيه الأمرد أنطونوس ،
وغرق الشاب فى النيل ، فأنشأ الإمبراطور مدينة أنطوبوليس أو أنطوى
[فى موضع الشيخ عبادة حالا على الشاطئ الشرقى للنيل ، فى مواجهة الروضة ،
إلى الشمال من ملوى] . وزارها مرة أخرى بصحبة الإمبراطورة ، وكانت معهم
السيدة بليلة ، شاعرة البلاط ، فسجلت زيارة الأسرة الإمبراطورية لقواوسات

ممنون بقصيدة حفرت على ساق أحد التمثالين .

١٦١ - ١٣٨

أنطونينوس بيوس : في عهده كان بطليموس العالم الفلكي والجغرافي [صاحب المجسطى] يتابع دراساته بالإسكندرية (حوالى سنة ١٥٠ م) .

١٨٠ - ١٦١

ماركوس أوريليوس ، الإمبراطور الفيلسوف الرواقى : في عهده قامت ثورة « رعاة البقر » فى « بوقوليا » ، إلى الشرق من الإسكندرية . وزار أوريليوس الإسكندرية سنة ١٧٦ م .

١٨٠ - ١٩٢

قومودوس : أنشأ الأقباط فى عهده المدرسة الكاتشائية أو الديد سقالية [سنة ١٩٠] وقد اشتهرت فى العالم المسيحى بفضل أساتذتها الأوائل بنطائينوس ، واكليمانفصس ، وأوريجانوس .

١٩٣ - ٢١١

سبتيميوس ساويرس : انتشرت المسيحية فى الوجه البحرى ، وبدأت الاضطهادات

٢١١ - ٢١٧

كاراكلا : زار مصر ، ودارت المذابح فى الإسكندريين .

٢٤٩ - ٢٥١

دقيوس : اضطهاد المسيحيين مستمر .

٢٦٠ - ٢٦٨

جالينوس : خف الاضطهاد ، وأصبحت مصر بوباء . وفى عهده أعلن الجند الرومان بالإسكندرية ماكرينوس إمبراطوراً ، ثم هزم وقتل ، وأعلن الجنود مرة ثانية بالإسكندرية إميليانوس إمبراطوراً ، فهزم وقتل .

٢٦٨

وجدت الملكة زنوبيا ، أميرة تدمر ، فرصة مؤاتية لغزو مصر ، فدخلتها واحتلت الوجه البحرى .

كما احتل البليميون [أجداد البجاوين وون [ليم] بعض الصعيد .

٢٧٠

ولكن القائد بروبوس أعاد مصر إلى الحضيرة الرومانية .

٢٧١

أنبا أنطونيوس ، منشيء الرهبة القبطية .

٢٨٤ - ٣٠٥

دقلديانوس (ديوقليسيانوس) : ثار الصعيد في عهده ، وهاج شعب الإسكندرية ، فجاء الإمبراطور بنفسه ، وتولى أقسى اضطهاد روماني للمسيحيين المصريين . عصر الشهداء يؤرخ من وقته .

٣٢٠

أنبا باخوم ينشيء أول دير قبطي في طابنا .

٣٢٤ - ٣٣٧

قسطنطين الأكبر ، أول الإمبراطرة الخانين على المسيحية ، وقد اعتنقها .

٣٢٥

وفي عهده نشأت هرطقة آريوس ، وقضى عليها مجمع نيقيا .

٣٢٨

أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ، هازم الأريوسية .

٣٣٠

بيزنطة تصبح عاصمة الإمبراطورية ، باسم روما الجديدة ، أو قسطنطينية بدء استيطان رهبان القبط لوادي الإسقيط و برية شحات [بوادي التطرون] .

٣٥٠

تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية حوالى هذا التاريخ .

٣٦١ - ٣٦٣

الإمبراطور المارقي يوليانوس : ارتد عن المسيحية ، والغالب أنه لم يعتنقها ، إذ ربي تربية هليستية ، فما إن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته .

٣٦٦

٣٧٣

تنتح البطريك العظيم أثناسيوس .

٣٧٩ - ٣٩٥

ثيودوسيوس الأكبر : أعلن المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، واضطهد الوثنيين ، والمسيحيين الأريوسيين . وبدأ هجوم الأقباط على المعابد المصرية القديمة بهدم الصنم الكبير بمعبد سيرايس بالإسكندرية

٣٩٥

انقسام الإمبراطورية الرومانية : أركاديوس على الشرق ، وأونوريوس على الغرب .

العهد البيزنطى

[٣٩٥ - ٦٤٠ م]

٤١٢

كيرلس الأول : يرقى كرسى الكرازة المرقسية . ويغلب أن يكون هو المخرض على قتل أجمل أستاذة للفلسفة فى التاريخ : هيياسيا بنت الرياضى ثيون . تربص بها الرهبان والصبوات وقتلوا رجماً ، وسحلوا حتى صحن الكنيسة ، حيث قطعوا جسمها إرباً إرباً ، انتقاماً من تعمقها الفلسفة الوثنية .

٤٣١

كما هزم أثناسيوس آريوس ، هزم كيرلس هرطقة نسطوريوس ، بطريك القسطنطينية فى مجمع إفسوس الأول [المجمع المسكونى الثالث] .

٤٤٩

مجمع إفسوس الثانى : يكرهه الكاثوليك . ويطلقون عليه اسم « مجمع اللصوص » ، لأن البطريك المصرى ديوسقوروس انتصر على معارضيه بوسائل يعدونها غير كريمة . وبذلك فازت عقيدة الطبيعة الواحدة القبطية ، لوقت قصير ، فى العالم .

مجمع خلقدونيا [المجمع المسكوني الرابع] : هزيمة ديوسقوروس والكنيسة المصرية ، وفوز عقيدة الطبيعتين [وهي ركن إيمان الكنائس الشرقية والكاثوليكية البابوية] ، وشلح ديوسقوروس ، أو على الأقل إبعاده عن كرسي الإسكندرية . وجاء ذلك نتيجة لتكاتف جهود البابا ليون الأكبر صاحب « طومس لاون » ، والإمبراطور البيزنطي ماركيانوس . وبذلك انفصلت الكنيسة القبطية عن كنائس الشرق والغرب إلى اليوم .

٥٢٧ - ٥٦٥

يوستينيانوس المقتن : أجرى تقسيمات إدارية جديدة بمصر ، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال موحدة ، بل كان كل حاكم إقليم مستقلاً بجيشه ، مما ساعد على انهيار الجحافل الرومانية المشتتة أمام فرسان العرب .

٦١٠ - ٦٤١

الإمبراطور هرقل : وفي حكمه تم للفرس ، أيام كسرى الثاني [سنة ٦١٩ م] فتح مصر ، واستطاع هرقل ، بعد موت كسرى ، التغلب عليهم وطردهم سنة ٦٢٦ .

٦٢٢

هجرة النبي العربي ، خاتم الأنبياء والرسل ، في السنة الأولى للتقويم الإسلامي .

٦٣٢

انتقال سيد المرسلين إلى الرفيق الأعلى ، وخلافة أبي بكر الصديق .

٦٣٤

بدء الفتوحات الإسلامية : فتح سورية ، ووفاة أبي بكر . وخلافة عمر ابن الخطاب .

٦٣٦

ظفر المسلمين بالروم في يوم اليرموك . فتح دمشق .

٣٦٨

٦٣٧

انتصار المسلمين الساحق على الفرس في موقعة القادسية ، وسقوط المدائن
[اكسيفون] ، ونهاية الأكاسرة الساسانيين .

٦٣٨

فتح بيت المقدس ، واستقبال منشي قبة الصخرة ، ثاني الخلفاء الراشدين ،
عمر الفاروق .

مصر الإسلامية

[٦٤٠ م - إلى ما شاء الله]

٦٤٠

فتح مصر بسيف عمرو بن العاص وفرسان العرب .

٦٤١

تسليم المقوقس قوروش حصن بابلون [قصر الشمع] للقائد العربي المنتصر .
وإنشاء جامع عمرو .

٦٤٢

إنشاء القسطنطينية معسكراً للعرب ، وحاضرة العصر الإسلامي الجديد ، وسقوط
الإسكندرية في أيدي العرب بعد حصار طويل .

٦٤٥

عودة الإسكندرية إلى الروم .

٦٤٦

أعاد عمرو فتح الإسكندرية .

٦٥٦

مقتل ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان ، على إثر ثورة بدأت في
مصر .

٦٥٦ - ٦٦١

خلافة علي بن أبي طالب ، وقيام الحرب بينه وبين معاوية ، ودخول مصر

في حكم الأمويين سنة ٦٥٨ .

٦٥٨ - ٧٥٠

دولة بني أمية وعاصمتها دمشق ، وقد حرصوا على أن لا تخرج ولاية مصر من أعضاء الأسرة الأموية .

٧٤٤ - ٧٥٠

التجاء مروان الثاني ، آخر الأمويين ، إلى مصر ومقتله فيها . ودفنه بأبي صير الملك ، إلى الشمال الغربي من أشمنت .

٧٥٠ - ٨٦٨

دولة بني العباس في بغداد . وهروب عبد الرحمن الأموي إلى الأندلس ، وخلافته بقرطبة (سنة ٧٥٦ م) . ثورات المصريين الأقباط .

٨١٣ - ٨٣٣

المأمون في مصر لإخماد ثورة المصريين الأقباط وعصيان البدو . بدء انتشار اللغة العربية بين المصريين جميعا . تغلب الأجناد الترك في بلاط العباسيين .

استقلال مصر الإسلامية

[٨٦٨ - ١٥١٧ م]

الدولة الطولونية

[٨٦٨ - ٩٠٥ م]

٨٨٣ - ٨٦٨

أحمد بن طولون يستقل بمصر وسوريا حتى حدود العراق . المسجد الجامع الذي بناه ابن طولون فريد في العمارة الإسلامية .

٨٨٣ - ٨٩٥

خارويه بن أحمد بن طولون . لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلال مصر فعادت إلى حكم العباسيين (٩٠٥ - ٩٣٥)

٩٢٥

هجوم فاضل للفاطمين على مصر .

للدولة الإخشيدية

[٩٣٥ - ٩٦٩ م]

٩٣٥-٩٤٦

محمد بن طغج الإخشيد ، حاكم من أصل فرغانى : استقل بمصر .

٩٦٦ - ٩٦٩

كافور الخصى الحبشى يحكم مصر وصياً على أولاد الإخشيد ، ثم يحكم باسمه تابعاً للعباسيين ، فى مصر وفلسطين وسوريا . وبعد موته يحكم أحمد الإخشيد ، حفيد مؤسس الأسرة ، ولم يبلغ سن الرشد ، ويتمزها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها .

للدولة الفاطمية

[٩٦٩ - ١١٧١ م]

٩٦٩

جوهـر الصقلى ، قائد المعز ، يفتح مصر وينشئ القاهرة عاصمة لمصر بعد الفسطاط والعسكر والقطائع .

٩٧٠

إنشاء الجامع الأزهر .

٩٧٣ - ٩٧٥

وصول المعز إلى القاهرة ومعه رفات أسرته ، ونقل خلافته إليها ، ووفاته بها .

٩٧٥ - ٩٩٦

العزیز بن المعز ، صديق العلم والعلماء . رخاء مصر فى عهده .

٩٩٦ - ١٠٢١

الحاكم بأمر الله . ابن العزیز من أم نصرانية : ملك مجنون متعصب

سفاح . انتحل لنفسه نحلة درزية وتآله ، وأسس داعيته ، درزى ، طائفة الدروز . مقتل الملك المشعوز ، وهو فى تجواله الليلي بجبل المقطم ، بتدبير أخته ست الملك ، وإخفاء رمتة . مما اتخذته الدروز ذريعة فى نشر خرافة ارتفاعه إلى السماء ، هروبا من شرور هذا العالم [والعالم هو الذى تخلص من شره وإجرامه !] وسيعود إلى الأرض يوما ، قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

١٠٢١ - ١٠٣٦

الظاهر ابن الحاكم : تولى الخلافة الفاطمية وهو ابن ستة عشر عاما ، تحت وصاية عمته ست الملك ، حتى عام ١٠٢٤ .

١٠٣٦ - ١٠٩٤

المستنصر : إمعة ، سىء الطالع . غاب النيل عن مصر سبع سنوات ، فنزلت بمصر أشد المجاعات ، وتداولها القحط والطواعين ، وثار الجند من الترك والبربر ، وعاثوا فساداً ، ودمروا القصر ، ونهبوا تحفه ، وأفنوا مكتبته . واستطاع الأرمنى بدر الجمالى ، وزير الخليفة الإمعة ، إعادة الهدوء والنظام ، وبنى أسوار القاهرة وأبوابها ومسجد الحيوشى .

١٠٩٤ - ١١٠١

المستعلى ابن المستنصر : فتح بيت المقدس وبلاد الشاطئ السورى . ثم انتزعها منه جيش الصليبية الأول .

١٠٩٦

الملك بلدوين الصليبي ، صاحب مملكة أورشليم المسيحية : حاول غزو مصر وفشل ، ومات بالوباء على رمال شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالى سيناء . ويسميه مؤرخو العرب « بغدوين » و « بردويل » ، وهو أصل اسم بحيرة البردويل المشهورة إلى اليوم بمصايد سمك البورى ، وتحضير البطارخ من حيتانه .

١١٦٠ - ١١٧١

العاقد آخر الفاطميين : تنازع على الوزارة بين ضرغام وشاور . والتجأ

شاوور إلى نور الدين صاحب دمشق ، فأعاده إلى مركز الوزارة ، بمعمونة الأجناد الكرد ، تحت قيادة شيركوه وصلاح الدين يوسف آل ايوب . ولما اختلف شاوور مع الأكراد ، استعدى عليهم أمالريق [أمورى] الأول ، الملك الصليبي . فدخل هذا مصر ، وطارد الأكراد وحاول — كما هي عادة رجال العصابات — أن يستغل وساطته في الاستيلاء على مصر . فاستجار الأنخرق الخائن شاوور بنور الدين ، وأحرق القسطنطينية [نوفمبر ١١٦٨] حتى لا يستولى عليها أمالريق . أو أمورى [وهو عمورى المؤرخين العرب] .

وجاء شيركوه وصلاح الدين فطاردا الصليبي إلى خارج البلاد ، وقضيا على شاوور بالموت ، وتولى شيركوه الوزارة حتى وفاته (١١٦٩) . فتولاها بعده صلاح الدين يوسف ، وحكم باسم آخر خلفاء الشيعة حتى وفاة هذا الخليفة ، ثم ارتقى عرش مصر وأسس دولة جديدة ، أعادت إلى مصر حكم السنة .

الدولة الأيوبية

[١١٧١ — ١٢٥٠ م]

١١٧١ — ١٢٠٠

أعظم ما يلفت النظر في حياة صلاح الدين الأيوبي ، أنه وهو سلطان مصر ، باني قلعة الجبل ، وأسوار القاهرة ، والذي اجتث المذهب الشيعي من مصر وأقام علوم السنة ، لم يزد لبثه بقاعدة ملكه أكثر من ثمان سنوات . أما العشرون عاما الباقية فما كاد يغمد فيها حسامه وينزل عن جواده ، مقاتلا في سبيل عقيدته . يندفع كالشهب بين فلسطين وسورية وما بين الهرين ، يحرق المعتدين بناؤه ، ويضرب الصليبيين في بطولة وأريحية كانت مضرب المثل ، بين الأعداء قبل الأصدقاء ، في فروسية العصور الوسطى .

١٢٠٠ — ١٢١٨

الملك العادل ، أخو صلاح الدين : استطاع المحافظة على تماسك الدولة

بعد ما حدث من تنازع ومشاحنات عقب موت البطل الأعظم . ويجب أن يذكر للسلطنة ، أم ابنه الملك الكامل ، ذلك الأثر الجميل من آثار القاهرة : مقام الإمام الشافعى .

١٢١٨ — ١٢٣٨

الملك الكامل : صاحب المنصورة أنشأها سنة ١٢٢١ ، بعد أن دافع عن دمياط ضد الصليبيين الجرمان والنيرلنديين [الصليبية الخامسة] ، الذين استولوا على ذلك الثغر ، وكان يقع إلى الشمال من موقع دمياط الحالى ، وباعوا سكانها بيع الإماء ، ونهبوا متاجرها وآثارها ، وحولوا مساجدها إلى كنائس . ثم اضطروهم الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١ . فلما نزل لويس التاسع إلى البر ليحتلها سنة ١٢٤٩ [الصليبية السادسة] ، غادرها سكانها عن بكرة أبيهم ، ودخلها فرسان الصليب خاوية على عروشها ، وكانهم يدخلون جبانة لا مدينة أحياء . وقد دفعوا ثمن صليبيتهم غالباً فى المنصورة ، وكان إجلاؤهم عن دمياط ، أو إجلاء من بقى منهم حياً ، بعض الثمن الذى دفعوه فدية للقديس المحارب ، المحبوس فى بيت لقمان .

١٢٣٨ — ١٢٤٠

الملك العادل الثانى .

١٢٤٠ — ١٢٥٠

الصالح أيوب ، صاحب قلعة الروضة ، مهد المماليك البحرية : توفى عندما بدأ فرسان الصليبية السادسة [بقيادة لويس التاسع] يتحركون من دمياط متجهين إلى المنصورة . وأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته عن جيش المماليك الصالحية ، حتى لا يتفاشلوا ؛ وواصلوا المعركة بقيادة أبطالم بيبرس وقطر فارس الدين أقطاى . ثم وصل :

١٢٥٠

طورانشاه ، فسلمته شجرة الدر سلطنة أبيه ، وقاد المعركة إلى نهايتها الظافرة . ولكنه بعد الحرب لم يعرف الطريق إلى قلب ممالك أبيه ، فقتلوه .

دولة المماليك البحرية

[١٢٥٠-١٣٨٢ م]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والدة خليل » بن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوماً ، ثم تزوجت واحداً منهم هو :

١٢٥٧ - ١٢٥٠

عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية . ولاقى حتفه بتدبير أم خليل ، ولاحقته فى العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ - ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقدارى : قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صადقات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريفة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « إعمل برقك . فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك » . وخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوماً ، فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلاً : عزلت نفسى ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبنى الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه . سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ - ١٢٩٠

المنصور قلاوون : حارب المغول وصدّهم . وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أراحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به . وكانوا من أعظم البناة في تاريخ مصر منذ عهد الأمرات .

١٢٩٠ - ١٢٩٣

الأشرف خليل : قضى على آخر حصن صليبي في الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا . سنة ١٢٩١ .

١٢٩٣ - ١٣٤٠

الناصر محمد بن قلاوون : أعظم سلاطين المماليك . تولى الملك وهو ابن تسع سنين . وطورد من الملك أكثر من مرة . وعاد إليه أقوى سنداً ، وأكمل شخصية . وأشهر أمراء هذا السلطان هو الأمير عماد الدين أبو الفداء ، صاحب حماة ، العالم المؤرخ والجغرافي الأشهر في تاريخ العلوم العربية [توفي سنة ١٣٣١] . وكان الناصر بناء عظيماً . وجميع ما ترك من آثار تعد في مقدمة كنوز القاهرة . هذا والسور المائي الكبير ، فيما بين فم الخليج والقلعة . المعروف بسور « السبع سواقي » ، من آثار الناصر محمد .

١٣٠٣

حدثت زلزلة مشهورة ، هدمت غير قليل من مباني القاهرة .

١٣٤٧ - ١٣٦١

السلطان حسن هو الابن السادس للناصر محمد . ربما نسي الناس الوباء الفظيع الذي نزل بمصر إبان حكمه . فيما بين سنتي ١٣٤٨ و ١٣٤٩ . ولكنهم يذكرون له أعظم أثر مصري في القرون الوسطى : وهو مسجده . بأول سوق الخيل . وإذا سألتني عما أضاع من الآثار المصرية في أول القائمة أجبتك : معبد سيني الأول بأبيدوس [العرابية المدفونة] ، ومسجد السلطان حسن أمام قلعة صلاح الدين .

ومات صاحب المسجد قتيلاً شر قتلة . وستطامع كثيراً من مقتلات هؤلاء السلاطين . وقتل من مات منهم على فراشه . وبعضهم ألقيت جثته في ساقية . أو فوق تل من التمامة !

دولة المماليك الجراكسة

[١٣٨٢ - ١٥١٧ م]

١٣٨٢ - ١٣٩٩

آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحرية كان الغلام حاجي ، وسنه ست سنوات . وكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسي برقوق . فأزاح الغلام عن كرسى المملكة . وغضب الأمراء وطردهوا برقوق ، ولكنه عاد بعد سنة . وكانت السلطنة المصرية بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، لأن جنساً جديداً من برايرة أواسط آسيا ، من المغول بقيادة تيمور الأعرج (لك) بدأ يزحف على الشرق الأدنى . فدفع برقوق غائلته ، ثم أتبع ذلك بمجاربة الغازي بايزيد الأول ، خان العثمانيين . وكان برقوق بناء عظيماً .

١٣٩٩ - ١٤١٢

السلطان فرج : حدث في الثالثة عشرة من عمره ، ابن برقوق : تولى السلطنة . والعمانيون يهددون ولايات مصر الشمالية ، وسافر فرج حتى بلغ دمشق . وإذا بأمرائه الثائرين يضطرونه إلى العودة إلى القاهرة . وفي هذه الأثناء يكون تيمورلنك قد هزم العثمانيين في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ . وتلجأ السلطنة المصرية إلى مفاوضات ومصانعة . ولكن أيام الفتى فرج أصبحت معدودة . حتى قضى عليه الأمراء . وعلى رأسهم الأمير شيخ الحمودي .

١٤١٢ - ١٤٢١

السلطان المؤيد شيخ ، صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة . بداخل باب زويلة : وكان المؤيد من أشد الملوك اضطهاداً لغير المسلمين . وقد حكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص ، وعمامات سوداء ، وبحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب تغل في رقابهم . وكانت أكثر تجريداته ضد أمرائه في سورية .

١٤٢٢ - ١٤٣٨

الأشرف برسباي : أزاح الطفل ابن المؤيد شيخ ، وسافر يحارب في قبرص ، ويجاهد ضد المغول .

١٤٦٨ - ١٤٩٦

قاييتباي : آخر السلاطين العظام سياسة وجهاداً : قاوم قوى العثمانيين الصاعدة المنقضة .. أيام سلاطينها الغزاة محمد الفاتح وبايزيد الثاني -- بفضل قائد عسكره الأمير أذربك . وجامع أذربك كان يقوم على حافة منخفض الأذربكية . وقد أنشئ في ذكرى انتصاره على العثمانيين . هدم هذا المسجد سنة ١٨٦٩ . في حكم إسماعيل . وما أكثر ما هدم من مساجد أثرية في عهد إسماعيل ! ونظم مسيو بارييه . مدير حدائق باريس . حديقة الأذربكية في مساحة عشرين فداناً . وهي الحديقة التي عرفناها في أواخر عزمها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال . فندور في الحديقة نقضم أطرافها . وننتف ريشها ونقتاع . أشجارها . حتى أمتت أشلاء خضراء ، وسط خضم من السيارات ، والآتوبيسات ولقاييتباي أكثر من مسجد . ولكن مدفنه بالقرافة تحفة من أروع التحف . حرصنا على أن تبقى تربة ضمن التراب !

١٥٠١ - ١٥١٦

ها نحن نقرب بقلوب واجفة من نهاية تاريخ مصر المستقلة : يعتلى العرش السلطان الشهيد قانصوه الغورى ، الوحيد من بين كل أولئك السلاطين يموت في حومة الوغى ، مدافعاً عن سلطنته في مروج الشام . إلى الشمال من حلب . لقد صعد إلى الكرسي بعد أن أوفى على الستين ، وكان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الطويل إلى الهند . حول جنوب أفريقيا ، فقصوا على المركز النجاري الممتاز الذى كان لمصر . وأخذوا يهددون بلاد المحيط الهندي وجنوب البحر الأحمر . بيد أن السلطان الشيخ لم يقف مكتوف اليدين . بل جهز أسطولاً يحارب البرتغاليين في بحار الهند ، ويكسرهم في موقعة « شول » إلى الجنوب من بومباي سنة ١٥٠٨ . وهذا الخطر الجنوبي لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لخطر الشمال : فسلم بن بايزيد زاحف على حدود الإمبراطورية المصرية في شمال سورية . وقد خرج الغورى لمحاربه . فاندحرت الجيوش المصرية في « مرج دابق » . وساعد على اندحارها خيانة بعض أمراء السلطان . وإبان المعركة . مات السلطان وهو على جواده . وقبته ومسجده بالغورية يتيمان من جثائه . إذ لم تعرف له جثة من بين الآلاف الذين قتلوا في المعركة .

ولم يبق لطومان باى . آخر سلاطين المماليك . إلا أن يقاتل حرب الساقة بأرباض القاهرة . وأن يثيرها على سليم حرباً فى شوارع القاهرة . وينتهى أمره بالأسر فالشنق على باب زويلة .

وتتحول مصر إلى إيالة عثمانية . « عثمانلى باشاليك » . يحكمها . نائباً عن السلطان سليم . الأمير خاير بيك أو خاين بيك فى لغة المصريين . وينقل الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى إسطنبول حيث يبقّى حتى موت سليم سنة ١٥٢٠ . ويعود « المسكين لله » إلى القاهرة ، وفيها يلاقى ربه . بعد أن أقام العثمانيون فى إسطنبول خرافة تنازله عن الخلافة لآل عثمان وهى الخلافة التى محا كمال أتاتورك أثرها من فوق الأرض فى مارس سنة ١٩٢٤ .

مصر الحديثة

[١٥١٧ - ١٩٥٦ م]

لفهم الحكم العثمانى يجب إدراك حقيقة أساسية . وهى أنه تدهور سريعاً جداً فى مصر . بسبب نظام فى الإدارة هو الاختلال بعينه . ولأن الباشوات الولاية كانوا فى غالبيتهم قليلى الخبرة . طماعين . ملوثين خلقياً . حتى من كان منهم على شئ من الخلق اضطرت طريقتهم « تقديم الحساب » . بعد نهاية ولايتهم القصيرة . من عام إلى عامين . ولا حساب هناك يعتد به . عندما تحمل ذمته بمبالغ ليست فى الحسبان . ولم تدر فى خلد . أن « يعمل حساب » المستقبل بما يقيه شر الثوابت .

ولأن أمراء المماليك استعادوا سلطانهم الفعلى على البلاد دون أن يخضعوا لمصلحة عليا .

لهذا استحال الباشوات والأمراء المماليك وجيش الاحتلال العثمانى [الوجاقات] إلى منسر من قطاع الطرق . وكان البيكوات المماليك هم كشاف الأقاليم [أى مديريها] وجامعى ضرائبها ورؤساء الجند فيها . ويتولى زعامة المماليك كباران منهم :

شيخ البلد وأمير الحج . واختلطت الوجاقات العثمانية بأخلاط من أجناد المماليك وغيرهم من حثالات الشرق الأدنى ، بل كان الأغاوات ، أى قواد الفرق . يدرجون فى قوائم وجاقاتهم أسماء لا وجود لها . طمعاً فى زيادة العلوفة والجماكى .

والصمورة التى بقيت لنا من تلك « العصور المظلمة » حقاً . صورة مهزوزة سوداء فى احمرار داكن . يبدو فيها من هنا وهناك أضواء جهنمية ، تؤكد حقيقة الحياة المصرية فى ذلك الزمان . كانت شيئاً أشبه بجحيم دانتي فى أقصى طوابقه .

١٧٦٨

على بيك الكبير . البروفة الأولى لمحمد على باشا : مملوك استقل تماماً بحكم مصر عن السلطنة واستولى على سورية .

١٧٧٣

حتى خانة مملوكه محمد بيك أبو الذهب . ونجح فى القضاء عليه ، واستولى على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشاهانية . وبعد موته . تقاسم السلطة زعيمان كبيران وشيخان من شيوخ المنصر المملوكى : مراد بيك المحمدى . وإبراهيم بيك المحمدى ، نسبة إلى محمد بيك أبى الذهب .

١٧٩٨

وفى بين أول يولية والثانى منه . سنة ١٧٩٨ ، اقتحم جيش « الجمهور الفرنساوى » بقيادة سارى عسكر بونابارته ، أسوار الإسكندرية دون مقاومة تذكر . وتقدم إلى شبريس وهزم مراد بيك ، وبلغ إنابة وكسر جموع المماليك فى موقعة إنابة المشهورة باسم موقعة الأهرام ، فى الواحد والعشرين من يولية . ودخل القاهرة . وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصى الصعيد . حتى تم « للجمهور الفرنساوى » ... أى الجمهورية الأولى للثورة الفرنسية -- الاستيلاء على الإيالة المصرية فيما بين يناير ومايو ١٧٩٩ .

٣٨٠

١٧٩٨

ثورة القاهرة الأولى ضد فرنساوية: نشبت وأخذت فيما بين ١٣ و ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وجاء اندلاع حبيبها عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي في جونة أبي قبر في أول أغسطس ١٧٩٨ .

١٧٩٩

وبعد عام من معركة أبي قبر البحرية ، عاد بونابرت سرًا إلى فرنسا في ٢٤ أغسطس ١٧٩٩ .

١٨٠٠

وجاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين . وهزمهم كليبر في العشرين من مارس سنة ١٨٠٠ ، بالمطرية . ثم قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر في حديقة بيته في ١٤ يونية ١٨٠٠ . وتولى القيادة الجنرال عبد الله منو ، لينتهي بتسليم :

١٨٠١

القاهرة والإسكندرية في سبتمبر ١٨٠١ ، وبالجلاء هو وجنده نهائيًا عن مصر . وقد عاد الفرنسيون إليها في نوفمبر ١٩٥٦ لبضعة أيام قضوها في بورسعيد ، ثم خرجوا منها على وجوههم عفرها الحزى والشنار . وكان في ضباط الحملة العثمانية ضابط مقدوني من قولة ولد سنة ١٧٦٩ . وكان يفخر بأنه من مواليد العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت بأجاكسيو من أعمال كورسيكا .

وعينه الوالي خسرو باشا كولونيل [سرشمة] للفرقة الألبانية حتى يعينه على أجناد المماليك . ولكن محمد علي لم يجرى إلا لمعونة نفسه . على حساب المماليك ، والباشوات العثمانيين ، والشعب المصري نفسه فيما بعد . وانتهى به الحال إلى أن يلبسه الشيخة المصريون كرك الولاية . وعلى رأسهم الرجل الطيب أكثر من اللازم ، نقيب الأشراف عمر مكرم .

١٨٠٥

وصعد محمد علي إلى القلعة سنة ١٨٠٥ ، وبدأ حكمه بطرد السيد عمر مكرم

من القاهرة ، ثم بمصالحه المماليك حتى يتخلص من الاحتلال البريطاني للإسكندرية .

١٨٠٧

ولما حاول الإنجليز العودة إلى مصر . عن طريق احتلال رشيد . أجلهم شعب هذه المدينة الباسلة في أبريل سنة ١٨٠٧ .

١٨١١

وقتل محمد على ٤٨٠ أميراً مملوكياً في داخل القلعة . وقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون إلى الحجاز لحرب الوهابيين . وإذا بأبواب القلعة تقفل ، وفرسان المماليك محصورون في المنحدرات الضيقة المتجهة إلى الباب . وطاح الألبانيون فيهم ضرباً بالرصاص فالسلاح الأبيض . وذلك في أول مارس سنة ١٨١١ .

١٨١٩

وقضى محمد على على سلطة الوهابيين سنة ١٨١٩ ، وقد تولى قيادة الحملة المصرية ابنه طوسون أولاً ، ثم ابنه ، وقيل ابن زوجته ، إبراهيم ، وحان الوقت ليتخلص محمد على من عصاباته الألبانية ، فأرسلها للحرب في فيافي النوبة والسودان . وقد بدا له أن « النظام الجديد » في الجندية يسمح له بمحشد أولاد الفلاحين تحت قيادة ضباط أجانب من كل ملة ولون وجنس . وأثبت هذا الجيش بقيادة إبراهيم - وبشهادته - قدرة فائقة على القتال . ولكن أول المواقع التي خاضها أول جيش مصرى منذ عهد الأسرات :

١٨٢٤ - ١٨٢٧

كانت لمساعدة العثمانيين على مقاومة الشعب اليوناني الباسل . هب في وجه مستعمره البرابرة ، ينتزع منهم استقلاله . وانتهت تلك المواقع - ولا فخر - بإخماد ثورة التحرير اليونانية !

ودمر الأسطول المصرى في موقعة نافارين ، وقد انحصر بين أساطيل روسيا وبريطانيا وفرنسا .

١٨٣٢ - ١٨٣٣

وانقلب الذى كان يساعد أسياده حتى سنة ١٨٢٧ ، إلى عدو لهم يضرب ظهورهم ، بعد هزيمتهم الكبرى أمام الروس فى حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ .
فقد خرج الجيش المصرى يفتح سورية وآسيا الصغرى بقيادة إبراهيم باشا ،
وتألبت الدول العظمى على مصر ، وفرضت على محمد على معاهدة كوتاهية
سنة ١٨٣٣ .

١٨٣٩

ثم قام السلطان محمود - الذى أطلق محمد على اسمه على ترعة المحمودية -
لمحاربة محمد على ، عندما رآه يتوغل فى جنوب الجزيرة العربية .
وإذا إبراهيم ينقض على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، ويهزمهم فى موقعة
« نزيب » إلى الغرب من نهر الفرات الأعلى .

١٨٤١

وتعود جيوش إنجلترا والنمسا لتملى إرادتها على محمد على . وقد خضع وسلم
للباب العالى سنة ١٨٤١ . وذهب فى أحسن بزة إلى إسطنبول يركع ويسجد .
ويقبل يد سيد المابين . وخليفة رب العالمين . ظل الله على الأرض !
ولا يبقى للألبانى المغامر سوى مصر شفالاك له ، ولأكبر أفراد أسرته من
بعده . إلا بعض شروط تبعية ، منها جزية سنوية قدرها ثمانون ألف كيس
[أى ما يقرب من ٤٠٠.٠٠٠ ألف جنيه] . ويصاب الجبار بالعتة فى
أخريات أيامه .

١٨٤٨

فيتولى الحكم ابنه . أو ابن زوجته ، إبراهيم لبضعة أشهر ، حتى وفاته
قبل أبيه سنة ١٨٤٨ .

١٨٤٩ - ١٨٥٤

يتولى عباس الأول باشوية مصر . وهو ابن طوسون بن محمد على . ويموت
محمد على فى صيف ذلك العام ، ويكون حفيده قد شرع فى تبليط ما حرثه

جده ، والقضاء على بواق الخير من أعماله وإصلاحاته . وينتقل إلى السودان
باعت النهضة الفكرية في مصر رفاعة الطهطاوي ورفاقه ، ومنهم نابغة نوابها ،
بيومي أفندي .

ويموت عباس الأول مقتولاً بيد جماعة من أخصائه ، ورفقاء متعته . فقد
كان مصاباً بلوثة جنسية .

١٨٥٤ - ١٨٦٣

ويتولى سعيد ، الشاب السمين المترف ، هاوى المظاهرات العسكرية في البر
والبحر ، وقد تربى تربية بحرية . وكان شاباً عصياً ، بدأ في زمانه زحف
المغامرين الأوروبيين وغيرهم . وعلى رأسهم فردينان دى لسبس الشاب الأنيق
المشوق القوام ، الذى كان يجيد الرقص وركوب الخيل ، واستغلال صداقة
الباشا . وقد حصل من سعيد على امتياز الشركة العالمية لقناة السويس .
ويمتد خط القاهرة الإسكندرية الحديدي . ويعود الجيش المصرى لمساعدة
الباب العالي في حرب القرم .

١٨٦٣ - ١٨٧٩

اسماعيل الأفخم ، الابن الثانى لإبراهيم . وقد أوفد إلى فرنسا ليتعلم . فكان
كأبناء الذوات الفاسدين ، بروفة أولى لحفيده الملك المعظم . لم يحصل في فرنسا
إلا على قشور الحضارة الغربية ، ولذلك اتسمت أعماله بالتظاهر والقفحفة .
وبذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد . وينجح في الاستيلاء على خمس
الأراضي المتزرعة لنفسه ، دون أسرته ، ويشتري سنة ١٨٦٦ . بفلوس المصريين .
حق بقاء كرسى الولاية في أولاده . وفي السنة التالية يشتري . من نفس المصدر
لقباً فارغاً أهم ما فيه لكنته التركية « خديو » . أما معناه فلا يتعدى قولك نائب
السلطنة في مصر !

وينثر الذهب كأنه « ملححة في عين اللى ما يصلى عالنبي » على حفلات
افتتاح قناة السويس . بطريقة لم يعرف لها التاريخ شبيهاً في السفه . ثم يشتري
قسطاً من استقلال مصر يسمح له بشيء هام جداً : وهو حق استدانة ما يشاء
من شاء . وترتفع الجزية المصرية إلى ٧٠٠.٠٠٠ جنيه ، ويبلغ بجيشه ثلاثين

ألف رجل يرسلهم لفتح أعالي النيل حتى حدود الحبشة وحتى خط عرض ٢٠ درجة شمالى خط الاستواء . ويتضخم الدين أصلاً « وفوائظ » ، حتى يبلغ فى آخر حكمه مائة مليون جنيه ، فيحجز على أملاكه ، وتفرض عليه وزارة يرأسها أرمنى ، وزير ماليتها بريطانى . ووزير الأشغال فيها فرنسى . ولكن الخديو يلعب بذيله . ويحاول أن يهرب من وفاء الدين ، فيعين وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ . من وراء ظهر الدول المستعمرة التى لبست لبوس المرايين . فتضيق صدورها به ، وتطالب الإستانة بعزل الحضرة الفخيمة الخديوية . وتنزل ورقة الرقبة على ولى النعم نزول الصاعقة . ويتولى الحكم بدله ابنه توفيق . وهو كالحمل الوديع ، اشتراه الذئاب الأوربيون ليأكلوه فى عيدهم الكبير .

١٨٨٢

وجاء هذا العيد صباح ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، احتفلت به بريطانيا بإطلاق مدافع أسطولها على طوانى الإسكندرية وغير طوايها . ونزلوا بالمدينة فى اليوم التالى بملابس العيد الحمراء والبيضاء . ثم استدارت الجيوش البريطانية واعتدت على حياد القناة المزعوم ، وظفرت بجيش عرابى بالثل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ . وكان قد قضى ليلته . قبل الموقعة . هو وجنوده ، فى الأذكار . بحسبان أن البريطانيين ما زالوا . . . على مدد الشوف . ودخل جيش الاحتلال لحماية الحمل الوديع محمد توفيق . من الغول المصرى الذى قاده أحمد عرابى لتحرير مصر من ربة الجراكسة والأرنؤد . ونسى عرابى القائمة الطويلة من مصاصى دماء المصريين . وأن الأمر خرج منذ زمن طويل من أبدي أسرة محمد على إلى الدائنين والمستعمرين والمستغلين . وحوكم زعيم الوطنية المصرية . ونفى إلى سيلان . وعاد منها شيخاً محطماً عام ١٩٠١ . ومات بالقاهرة سنة ١٩١١ .

١٨٨٣

وفى عام ١٨٨٣ يتولى حكم مصر الفعلى ، تحت اسم قنصل بريطانيا الجنرال . المدعو إيفلن بيرنج ، وهو الذى اشتهر فى تاريخ الاستعمار باسم

اللورد كرومر . بطل دنشواى السفاح . وكان رجلاً مصلحاً من النوع الذى عرفته مصر منذ عهد محمد على ، أى عبقريةً ينظم شئون البلاد كأن أهلها قطعان من الماشية ، يعملون لحساب حضرة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا . وإمبراطورة الهند ، وحساب الدائنين .

١٩٠٢

وكان كل هم كرومر أن يزيد من حصيلة البلاد ، باعتبارها شفا لك للمستعمرين . وكان أعظم عمل قام به ، بعد تنظيم المالية والإدارة هو بناء خزان أسوان ، الذى احتفل بافتتاحه فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ . ولم يبق علىّ فى استعراض هذه الصفحة السوداء من تاريخ مصر إلا أن أشير إلى جهاد بطلين من أبطال الوطنية المصرية ضد الاحتلال : مصطفى كامل ومحمد فريد . وقد مات الأول فى عنفوان رجولته ، وحمل محمد فريد راية الجهاد ، وذهب بها إلى أوروبا وقد أعلنت الحرب العظمى الأولى . وسقط بطل الوطنية الثانى بعيداً عن وطنه . وكانت الظواهر كلها تنبئ بأن الوطنية برد أوراها . وقد يتمت البلاد من أبطالها صرعى ومنفيين . وأعلنت بريطانيا زوال السيادة التركية عن مصر . وأقامت بدلا الحماية البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وفى اليوم التالى . قررت عزل الخديو عباس حامى بن محمد توفيق . وأعلنت عمه حسين كامل ساطانا على مصر .

١٩١٧

وبعد وفاته تولى أخوه باسم حضرة صاحب العظمة الساطان أحمد فؤاد .

١٩٢٢

وفى ٢٨ فبراير أعلنت بريطانيا زوال الحماية . واعترفت باستقلال مصر [كذا كذا كذا] ! وعندما وافق البرلمان البريطانى على ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير . وكان ذلك فى ١٥ مارس . رقى فؤاد من سلطان إلى ملك . باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول .

١٩٢٣

وفى أبريل سنة ١٩٢٣ . منح جلالته « شعبه العزيز » دستوراً . لم يتنبه

الناس حينئذ إلى صدوره في شهر أبريل .

* * *

١٩١٨

لقد سئمت الخوض في تلك الأحداث ، وآن لى أن أختم هذه العجالة متمسكاً بضوء الأمل ، أشرق به نفوس المصريين عندما تولى سعد زغلول ، ابن فلاح من مطوبس ، زعامة الوطنية المصرية . وجاهد في سبيل استقلال مصر من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى وفاته في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وقد دفعته

١٩١٩

إلى الأمام . ودفعها ، ثورة الشعب المصرى عن بكرة أبيه . في مارس سنة ١٩١٩ . والقليل الذى حصلت عليه مصر في الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة . أما الذى حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية ، هو جامعها المصرية ومصرفها الوطنى أسسه محمد طلعت حرب ، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثاليون . هم ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ . ورأى بعينه . وأحس بكل جوارحه ، كيف باءت تلك الثورة بالخيبة على يدى الملك وأعوانه . وأصحاب المصالح . من كل لون وصنف ، يتواطئون مع المحتل ومع رأس المال الأجنبي ، ويسرون بتلك النهضة الحضارية الرائعة في الدرب الضيق الذى أقاموا له حدوداً وسدوداً باسم « التقاليد » . حتى وفقوا في مدي ثلاثين عاماً إلى أن يخضعوا أعظم حركة شعبية في تاريخ مصر الحديثة لأغراضهم ، ويسخروها لمنافعهم . فانهت إلى مهزلة في شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع ، على يدى آخر ملوك أسرة محمد على .

١٩٥٢

ثم تطلع الشمس ، بعد ذلك الفجر البعيد في مارس سنة ١٩١٩ ، ذات صباح من يولية ١٩٥٢ ، فيعرف المصريون أن ثورة من الضباط الأحرار ضد الملك قامت بعد منتصف ليل ٢٣ يولية ، ويندفعون لمؤازرتها بقوة روحية عارمة ، تنتهى بطرد آخر أفراد أسرة الأرنؤدى ، وتولية طفل يحمله أبوه . قماطه ، مولياً الأدبار إلى كعبة كبرى ، ثم إلى روما .

١٩٥٣

وما يلبث زعماء « ثورة البعث الكبرى » أن يعلنوا نهاية الملكية الزائفة ،
وليدة الاحتلال البريطاني ، وقيام الجمهورية المصرية الأولى في التاريخ وذلك .
في يولية سنة ١٩٥٣ .

١٩٥٦

ويخرج آخر جندي بريطاني من مصر في ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .
وتعود قناة السويس إلى أهلها في ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ .

ثبت المراجع

- إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى .
القاهرة د . ت . [= دون تاريخ]
- إرمان (أدولف) ورائكة (هرمان) : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ؛
ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . القاهرة د . ت .
- ابن إياس (محمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٨٩٦ - ١٨٩٨ .
- بدوى (أحمد) فى موكب الشمس ؛ جزءان . القاهرة ١٩٥٠ .
- بدوى (أحمد أحمد) . رفاة الطهطاوى بك . القاهرة د . ت .
- تباى (رفائيل) : قوى التفرنج فى الشرق الأوسط . « المجلة » ، عدد سبتمبر ،
القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء
التي صدرت .
- الترك (نقولا) : ذكر ملك الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية . باريس
١٧٣٩ .
- الجبرى (عبد الرحمن) : عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار . القاهرة ١٩٠٤
(طبعة أهلية) .
- ابن جبير (محمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ .
- حبشى (بانوب) : شنودة الأنربى ؛ من رسالة مارميلا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .
- حسن (سليم) : مصر القديمة . الأجزاء التي صدرت . القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٥٧
- حسن (على إبراهيم) : مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح
العثمانى . القاهرة ١٩٥٤ .
- حسن (على إبراهيم) : دراسات فى تاريخ الممالك البحرية . القاهرة ١٩٤٨ .
- حسين (محمد كامل) : متنوعات . القاهرة ١٩٤٧ .
- حمزة (عبد القادر) : على هامش التاريخ المصرى القديم . مجلدان . القاهرة
١٩٤٠ - ١٩٤١ .
- الرافعى (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ؛
ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٩ .

- الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ؛ جزءان . القاهرة ١٩٣٢ .
- روفيلا (يعقوب نخلة) : تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٨٩٨ .
- ابن زنبيل الرمال : رسالة مشتملة على غزوة السلطان سليم خان مع السلطان أبي النصر قانصوه الغورى . القاهرة ١٨٦١ .
- سامى (أمين) : تقويم النيل . ثلاثة أجزاء وملحق . القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ .
- سرور (محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر . القاهرة ١٩٣٨ .
- » » : الظاهر بيبرس ، وحضارة مصر فى عصره . القاهرة ١٩٣٨ .
- السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٨٨١ .
- الشرقاوى (محمد) : مصر فى القرن الثامن عشر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٥ .
- ١٩٥٦ .
- شكرى (منير) : أثناسيوس الرسولى ؛ من رسالة مارميثا العجايبى . الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- شكرى (منير) : المسيحية وما تدين به للقبط ؛ من رسالة مارميثا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٥١ .
- صالح (عبد العزيز) : التاريخ فى مصر القديمة ، مفهومه ، عناصره ، بواعث القومية فيه . القاهرة ١٩٥٧ .
- صالح (عبد العزيز) : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة . القاهرة د . ت .
- صالح (عبد العزيز) : قصة الدين فى مصر القديمة ؛ « المجلة » ، عدد نوفمبر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- صبى (محمد) : كتاب القناة ، أسرار قضية التدويل ، واتفاقية ١٨٨٨ . القاهرة ١٩٥٧ .
- الطهطاوى (رفاعة رافع) : تخلص الإبريز . فى تلخيص باريز . القاهرة ١٩٥٨ .
- طوسون (عمر) : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول

وسعيد . الإسكندرية ١٩٣٤ .

طوسون (عمر) : الجيش المصرى فى الحرب الروسية ١٨٥٣ - ١٨٥٥ . الإسكندرية ١٩٣٦ .

طوسون (عمر) : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى . القاهرة ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن) : كتاب فتوح مصر والمغرب . نيوهفن ١٩٢٢ .
ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج) : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
عبد المسيح (يسى) : اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارميونا العجايبى ،
الخامسة : الإسكندرية ١٩٥٤ .

عبد المسيح (يسى) : ساويرس بن المقفع : وآثاره الأدبية ؛ من رسالة مارميونا العجايبى . الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .

عبد النور (راغب) : أوريجانوس : وآثاره الأدبية ؛ من رسالة مارميونا العجايبى ،
الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

عبد الوهاب (حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ؛ جزءان . القاهرة ١٩٤٦ .

فخرى (أحمد) : مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٥٧ .

فوزى (حسين) : سندباد مصرى . القاهرة ١٩٣٨ .

» » : حديث السندباد القديم . القاهرة ١٩٤٣ .

» » : سندباد إلى الغرب . القاهرة ١٩٥٠ .

القمص (منسى) : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ .

كامل (مراد) : القبط فى ركب الحضارة العالمية ؛ من رسالة مارميونا العجايبى ،
الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .

كامل (مراد) : يوحنا النقيوسى ؛ من رسالة مارميونا العجايبى . الرابعة الإسكندرية ١٩٥٠ .

كمال (أحمد) : العقد الثمين . فى محاسن أخبار ، وبدائع آثار ، الأقدمين
المصريين . القاهرة ١٨٨٢ .

ليب (باهور) : الآثار القبطية ؛ من رسالة مارميونا العجايبى ، الخامسة :
الإسكندرية ١٩٥٤ .

مجدى (صالح) : حلية الزمن ، بمناقب خادِم الوطن . نشر جمال الدين الشيال .
القاهرة ١٩٥٨ .

المسعودى (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الفضة . القاهرة ١٩٣٨ (طبعة
أهلية) .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : المواعظ الاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .
القاهرة ١٨٥٣ .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : كتاب السلوك ، لمعرفة الملوك ؛ نشر محمد مصطفى
زيادة ، جزءان . القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .

ابن المقفع (ساويرس الأشمونين) : رسالة فى الرد على أفتخىوس بن بطريق .
مكرم (موريس) : ابن كبر ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية
١٩٥٠ .

الملاخ (فتحى يونان) : كيرلس الرابع ؛ رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .

ابن ممتى (شرف الدين أبو المكارم) : قوانين الدولة ؛ نشر عزيز سوريال عطية .
القاهرة ١٩٤٣ .

ميخائيل (فايق) : كيرلس الكبير ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .

ميخائيل (ملاك) : باخوميوس ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية
١٩٥٠ .

النابلسى (فخر الدين عثمان) : تاريخ القيوم . القاهرة ١٨٩٨ .
ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الخامسة ،
الإسكندرية ١٩٥٤ .

ولسون (جون) : الحضارة المصرية ؛ ترجمة أحمد فخرى . القاهرة د . ت .

- Albright (W.F.) : From the Stone Age to Christianity; "Anchor"; New York, 1957.
- Amélineau (E.) : Contes et romans de l'Egypte chrétienne; 2 vol., Paris 1888.
- Amélineau (E.) : Vie de Schnondé : Moines égyptiens;; Paris 1889.
- Arberry (A.) : The Contribution to Islam; "The Legacy of Egypt"; Oxford 1942.
- Atiya (A.S.) : The Crusades in the Later Middle Ages; London 1938.
- Aveline (C.) et Al. : Egypt; "Hachette World Albums"; Paris 1955.
- Aymard (A.) : La civilisation égyptienne; "Hist. gén. des civilisations; dir. Crouzet"; T. I; Paris 1953.
- Baedeker : Egypt and the Sudan, Handbook for Travellers; Leipzig 1929.
- Bainville (J.) : l'Expédition française en Egypte; "Précis de l'hist. d'Egypte" T. III; le Caire 1933.
- Band (M.) : Egypte; "les guides bleus"; Paris 1950.
- Bell (H.I.) : Egypt from Alexander the great to the Arab Conquest; Oxford 1948.
- Bell (H.I.) : Egypt and the Byzantine Empire; "The Legacy of Egypt."
- Blackman (W.S.) : The Fellahin of Upper Egypt; London 1927.
- Blochet (R.) : Histoire d'Egypte de Makrizi; Paris 1908.
- Boreux (C.) : Département des antiquités égyptiennes; "Musée du Louvre"; 2 vol.; Paris 1932.
- Bouvier - Lapierre (P.) : L'Egypte préhistorique; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. I; le Caire 1932.
- Breasted (J.H.) : A History of Egypt; New York 1905 et 1909.
- Breasted (J.H.) : The Dawn of Conscience, New York 1933.
- Breccia (E.) : Alexandria ad Ægyptum; Bergame 1922.
- Butcher (E.L.) : The Story of the Church of Egypt; 2 vols; London 1897.
- Butler (A.) : The Ancient Coptic Churches of Egypt; 2 vols; Oxford 1884.
- Butler (A.) : The Arab Conquest of Egypt; Oxford 1902.
- Capart (J.) : La Beauté égyptienne; Bruxelles 1943.
- Capart (J.) : Egyptian Art; "The Legacy of Egypt."
- Capart (J.) et Contenau (G.) : Histoire de l'Orient ancien; Paris 1936.
- Canivet (R.) et Fort (M.) : l'Egypte, pages littéraires et d'histoire, Paris 1923.
- Carré (J.-M.) : Voyageurs et écrivains français en Egypte; 2 vol.; le Caire 1933.
- Champdor (A.) : Saladin, le plus pur héros de l'Islam; Paris 1956.
- Charlesworth (M.P.) : The Roman Empire; "Home University Library"; Oxford 1951.

- Charles-Roux (F.) : L'Égypte de 1801 à 1882 et de l'occupation française à l'indépendance; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux, T. VI et T. V et VII; Paris 1936 et 1940.
- Chauvin (V.) : La légende égyptienne de Bonaparte; Mém. Soc. Art et lettres du Hainant; T. IV; Mons 1902.
- Childe (G.) : What Happened in History; "Penguin"; London 1942.
- Childe (G.) : The Prehistory of European Society; "Penguin"; London 1958.
- Colvin (A.) : The Making of Modern Egypt; London 1911.
- Combe (E.) : L'Égypte ottomane; "Préc. de l'hist. d'Égypte"; T. III; le Caire 1933.
- Contenau (G.) et Chapot (V.) : L'Art antique; "Hist. universelle des arts", dir. L. Réau; Paris 1930.
- Cowell (F.R.) : Cicero and the Roman Republic; "Penguin"; London 1956.
- Creed (J.M.) : Egypt and the Christian Church; "The Legacy of Egypt".
- Creswell (K.A.C.) : A Short Account of Early Muslim Architecture; "Penguin"; London 1958.
- Creswell (K.A.C.) : Islamic Architecture in Egypt; "Baedeker's".
- Cromer (E.B.) : Modern Egypt; 2 vols; London 1908.
- Cromer (E.B.) : Abbas II; London 1915.
- Dawson (C.) : The Making of Europe; London 1932.
- Dawson (W.R.) : Medicine; "The Legacy of Egypt".
- De Burgh (W.G.) : The Legacy of the Ancient World; "Penguin"; 2 vols; London 1953.
- Dehéraïn (H.) : L'Égypte turque, du XVI. au XVIII. S. L'Exp. de Bonaparte; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. G. Hanoteaux; T. V.; Paris 1934.
- Deroches-Noblecourt (C.) : Le style égyptien; Paris 1942.
- Devonshire (Mme.) : L'Égypte musulmane et les fondations de ses monuments; Paris 1926.
- Didier (C.) : Les nuits du Caire; Paris 1860.
- Diehl (C.) : L'Égypte chrétienne et byzantine; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux; T. III; Paris 1933.
- Driault (E.) : Mohammed Ali et Ibrahim; "Préc. de l'hist. d'Égypte"; T. III; le Caire 1933.
- Drioton (E.) : Pages d'égyptologie; le Caire 1957.
- Drioton (E.) et Lauer (J.-P.) : Sakkara; le Caire 1939.
- Drioton (E.) et Vigneau (A.) : Le Musée du Caire; Paris 1949.
- Drioton (E.) et Vandier (J.) : L'Égypte; "Clio"; Paris 1952.
- Drower (M.S.) : The Political Approach to the Classical World; "The Legacy of Egypt".

- Ebers (G.) : *An Egyptian Princess*.
- Ebers (G.) : *Uarda*; Stuttgart u. Leipzig
- Egypte (L') : *Aperçu hist. et géogr. Gouvern. et instit. Vie écon. et sociale*; le Caire 1926.
- Engelbach (R.) : *Mechanical and Technical Processes. Materials*; "The Legacy of Egypt".
- Erman (A.) : *A Handbook of Egyptian Religion*; transl. from German; London 1907.
- Erman (A.) : *The Literature of the Ancient Egyptians*; transl. from German; London 1927.
- Flaubert (G.) : *Tentation de Saint Antoine*.
- France (A.) : *Thais*.
- Frankfort (H.) et Al. : *Before Philosophy*; "Penguin"; London 1954.
- Gardiner (A.H.) : *Writing and Literature*. "The Legacy of Egypt".
- Gauthier (H.) : *L'Egypte pharaonique*; "Préc. de l'hist. d'Eg.", T. I; le Caire 1932.
- Ghallab (M.) : *Les survivances de l'Egypte antique dans le folklore égyptien*; Paris 1929.
- Ghorbal (M.C.) : *The Beginning of the Egyptian Question & the Rise of Mehemed Ali*; London 1928.
- Ghorbal (M.C.) : *The Making of Egypt*; Cairo s.d. (1957 ?).
- Gibbon (E.) : *A History of the Decline & Fall of the Roman Empire*.
- Glanville (S.R.K.) éditeur : *The Legacy of Egypt*; Oxford 1942.
- Grousset (R.) : *L'Egypte des Croisades*; Paris 1939.
- Hammer (J. von) : *Histoire de l'empire ottoman*; trad. de l'allemand; 18 vol.; Paris 1835-1843.
- Hanoteaux (G.) : *Introduction générale*; "Hist. de la nation égyptienne". T. I; Paris 1931.
- Hénaut (de) : *Manuel d'histoire de l'Egypte, de Ménès à nos jours*; le Caire 1927.
- Herbelin (A.) : *La fresque égyptienne aux tombeaux des nobles à Thèbes*; Rev. conf. fr. en Orient, le Caire 1949.
- Herodotus : *History*; Rawlinson's translation.
- Herriot (E.) : *Sanctuaires*.
- Herz (Max) : *Catalogue raisonné du Masée national de l'art arabe*; le Caire 1906.
- Heydt (W.) : *Histoire du commerce du Levant au Moyen-Age*; 2 vol.; Leipzig 1886.
- Hocart (A.M.) : *The Legacy of Modern Egypt*; "The Legacy of Egypt."
- Jéquier (G.) : *Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquête d'Alexandre*; Paris 1913.

- Joinville (J. Sire de) : Histoire de Saint Louis; transt. from old French by F.T. Margials; London 1908.
- Jones (A.H.M.) : Egypt and Rome; "The Legacy of Egypt".
- Jouguet (P.) : L'Egypte gréco-romaine; Préc. de l'hist. d'Egypte", T.I.; le Caire 1932.
- Jouguet (P.) : L'Egypte prolémaïque; "Hist. de la nat. ég."; T. III. Paris 1933.
- Kayser (E.) et Roloff (E.M.) : Histoire d'Egypte; trad. de l'allemand; Paris s.d.
- Kingsley (C.) : Hypatia.
- Lambrino (M.) Encyclopédie par l'image : l'Egypte; Paris 1930.
- Lane (E.) : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians; London 1836.
- Lane-Poole (S.) : The Art of the Saracens in Egypt; London 1886.
- Lane-Poole (S.) : Cairo, sketches on its History, Monuments & Social Life; London 1898.
- Lane-Poole (S.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London 1898.
- Lane-Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages; London 1900.
- Lange (K.) & Hirmer (M.) : Egypt; "Phaidon Press"; London.
- Legrain (G.) : Louqsor sans les Pharaons; Paris 1914.
- Leibovitch (J.) : Ancient Egypt; transl. from French; Cairo 1938.
- Lot (F.) : La fin du monde antique et le début du Moyen-Age; Paris 1927.
- Loti (P.) : La mort de Philae.
- Lucan : Pharsalia; transl. from Latin; "Penguin"; London 1956.
- Lyons (H.) : Geographical & Ethnographical Notes; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Maillet (B. de) : Description de l'Egypte; Paris 1735.
- Marcel (J.) : L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française; Paris 1848.
- Mariette (A.) : Voyage en haute Egypte; Paris 1893.
- Martin (H.) sous la dir. de : L'Art égyptien, grammaire de style; Paris 1929.
- Maspero (G.) : Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique; 3 vol.; Paris 1895-1899.
- Maspero (G.) : L'Archéologie égyptienne; Paris 1907.
- Maspero (G.) : Les contes populaires de l'Egypte ancienne; Paris 1911.
- Maspero (G.) : L'Egypte; "Ars Una"; Paris 1911.
- Maspero (J.) : Histoire des patriarches d'Alexandrie; Paris 1923.
- Maspero (J.) : Horapollon et la fin du paganisme égyptien; le Caire 1914.
- Mekhiterian (A.) : La peinture égyptienne; éd. Skira; en Suisse 1954.
- Migeon (G.) : Manuel d'art musulman; Paris 1927.

- Milne (J.G.) : A History of Egypt under the Roman Rule; London 1924.
- Montet (P.) : La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès; Paris 1946.
- Moret (A.) : Mystères égyptiens; Paris 1922.
- Moret (A.) : L'Egypte pharaonique; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. Hanoteaux; T. II, Paris 1931.
- Moret (A.) : Le Nil et la civilisation égyptienne; Paris 1926.
- Moret (A.) et Davy (G.) : Des clans aux empires; Paris 1923.
- Munier (H.) : L'Egypte byzantine de Diocletien à la conquête arabe; "Préc. de l'hist. d'Eg."; T. II; le Caire 1932.
- Musée du Caire : Description sommaire des principaux monuments; le Caire 1932.
- Nasiri-i-Khusru : Sefer-Nameh; trad. du persan; Paris 1881.
- Nerval (G. de) : Voyage en Orient; 2 vol.
- Nikiou (Jean de) : Chronique; trad. Zotenberg; "Notices et extr." des manuser. de la Biblioth. nat. et autres; T. XXIV Paris 1883.
- Oesterley (W.) : Egypt & Israel; "The Legacy of Egypt".
- O'Leary (de Lacy) : The Coptic Church and Egyptian Monasticism; "The Legacy of Egypt".
- Paton (A.A.) : A History of the Egyptian Revolution from the Mamlukes to the Death of Mohamed Aly, 2 vol., London 1870.
- Perry (E.) et Al. : Le Moyen-âge; "Hist. gén. d. civilis.", dir. Crouzet; T. III; Paris 1954.
- Petrie (F.) : Social Life in Ancient Egypt; London 1923.
- Petrie (F.) : Arts et métiers de l'ancienne Egypte; trad. de l'anglais; Paris 1925.
- Plutarque : Vies des hommes illustres; trad. D. Ricard, Paris 1837.
- Poliak (A.N.) : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine & the Lebanon; London 1939.
- Quatremère (E.) : Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines; 2 vol. Paris 1811.
- Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte; 2 vol., Paris 1837-1844.
- Rhoné (A.) : L'Egypte à petites journées; Paris 1910.
- Roberts (C.H.) : The Greek Papyri; "The Legacy of Egypt".
- Roncière (Cl. de la) : Géographie de l'Egypte à travers les âges; Hist. de la nat. ég. "dir. Hanoteaux, T. I, Paris 1931.
- Runciman (C.) : History of the Crusades; 3 vols.
- Sabry (M.) : L'empire égyptien sous Ismail; Paris 1933.
- Sacy (S. de) : Relation de l'Egypte par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad; Paris 1810.

- Samivel : Trésor de l'Egypte; Paris 1954.
- Sammarco (A.) : Les régnes de Abbas, de Sa'id et d'Isma'il; Préc. de l'hist. d'Eg. T. IV, le Caire 1935.
- Savary (C.E.) : Lettres sur l'Egypte; 3 vol.; Paris 1785-1786.
- Seidl (E.) : Law; "The Legacy of Egypt".
- Sewell (J.W.S.) : The Calender & Chronology; "The Legacy of Egypt".
- Simaika (M.H.) : Guide sommaire du Musée copte; le Caire 1937.
- Sloley (R.W.) : Science; "The Legacy of Egypt".
- Smith (W.) : History of Rome.
- Smith (G. Elliot) : The Ancient Egyptians & the Origin of Civilization; London 1923.
- Sottas (H.) et Drioton : Introduction à l'étude des Hiéroglyphes; Paris 1922.
- Steindorff (G.) : Outline of the History of Egypt. Hieroglyphics, Religion, Art; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Suetonius : The Twelve Caesars; "Penguin"; London 1957.
- Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation. London 1930.
- Thurman (Cap.) : Bonaparte en Egypte; Paris 1902.
- Vandier (J.) : Egypte; peintures des tombeaux et des temples; U.N.E.S.C.O., Paris 1954.
- Vattier : L'Egypte de Murtadi, fils de Gaphiphes trad-de l'arabe; Paris 1656.
- Vaux (Carra de) : L'Abregé des merveilles; trad. de l'arabe; Paris 1898.
- Villard (M. de) : Christian Art in Egypt; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Volney (C.F.) : Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785; 2 vol., Paris 1787.
- Weigall (A.) : The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt; London 1923.
- Weigall (A.) : Alexandre le grand; trad. de l'anglais; Paris 1934.
- Wertheim (O. von) : Cléopâtre; trad. de l'allemand; Paris.
- Wiet (G.) : L'Egypte arabe, 622-1517 A.D.; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux; T. IV; Paris 1937.
- Wiet (G.) : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane; Préc. de l'hist. d'Eg. T. II; le Caire 1932.
- Wiet (G.) : Guide sommaire du musée national de l'art arabe; le Caire 1939.
- Wilson (J.A.) : The Culture of Ancient Egypt (orig. "The Burden of Egypt"); Chicago 1958.
- Worrel (W.) : A Short Account of the Copts; Michigan 1945.